# دور المجلّات الثّقافية في دعم الهويّة العربيّة الإسلاميّة للشّعب التّونسيّ (1881-1956)

الحبيب الجنحاني

أود، بادئ ذي بدء، إبداء الملاحظات التالية:

**أولا** - لا يمكن الحديث عن ظاهرة «المجلات الثقافية»، وعن دورها في الوعي بالهوية العربية الإسلامية، والوعي بالشعور الوطني بصفة أخص دون الإلماع إلى الظروف التاريخية التي ساعدت على بروز حركة الطباعة، وتأسيس الدوريات في البلدان العربية التي عاشت تجارب تحديثية في القرن التاسع عشر. فالاهتمام بحركة الطباعة والنشر مثل ركنا أساسيا من أركان برامج تحديثية شملت إصلاح التعليم، وإصلاح أجهزة الدولة، وتعليم اللغات الأجنبية، وإرسال البعثات الطلابية للتعلم في أوروبا محاولة من رادة الحركات الإصلاحية العربية الوقوف أمام تسرب النفوذ الأوروبي، وقد مثل الخطوة الأولى للاحتلال والاستعمار، وتأتي تونس في طليعة الأقطار العربية التي عاشت تجربة تحديثية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد تم تأسيس المطبعة الرسمية سنة ١٨٦٠، وأنشئت «الرائد التونسي» بقسميها الرسمي والثقافي العام، كما سمح دخول الطباعة إلى نشر كتب التراث، والمؤلفات المترجمة عن اللغات الأوروبية، والكتب الجديدة التي نظرت للتجربة التحديثية، وفي مقدمتها كتاب خير الدين «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» (١٨٦٧)، ونظرا أن تجربة النشر والطباعة جديدة فقد استعان المصلحون التونسيون بمن لهم خبرة في هذا الميدان من مثقفي المشرق العربي مثل أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧) صاحب الجوائب، وحمزة فتح الله المصري (١٨٤٩-١٩١٨)، والصحفي الشامي منصور كرليتي.

**ثانيا** - مثلت الدوريات الثقافية بشتى أنواعها: مجلات، وصحف أسبوعية، وصفحات ثقافية في جرائد يومية منابر لتيارات تجديدية على اختلاف نزعاتها، وأسهمت في إثراء ثقافي ذي رؤية إصلاحية في أكثر الحالات، كما كان لها أثر بعيد المدى في تجديد اللغة، وبروز أسلوب جديد هو أسلوب المقالة الفكرية، والمقالة السياسية.

**ثالثا** - أسهم إنشاء الدوريات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي مطلع القرن العشرين في تنشيط حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية، فقد كانت كثير من مقالات «الرائد التونسي» مترجمة عن الفرنسية بصفة خاصة، وجاء الاهتمام بالترجمة خدمة للبرنامج الاصلاحي التحديثي الذي أرسى أسسه خير الدين، فكان الغرض من نقل المعارف الأوروبية التعريف بما بلغته الحضارة الحديثة، وقد أسهمت الترجمة في

ظهور أسلوب صحفي من جهة، وشيوع مفاهيم سياسية وفكرية في أوساط النخبة من جهة أخرى.

**رابعا**- لابد من التلميح هنا إلى أن الدوريات الثقافية مثلت في حالات معينة في تونس، وفي غيرها من الأقطار العربية منابر فكرية وسياسية وطنية في الوقت ذاته، بل مثلت أحيانا تجمعا لفئة من رجال النخبة أدى دور الحزب السياسي، كما هو الشأن في حالة جريدة «الحاضرة»، فلا بد إذن من تنزيل رسالة الدوريات الثقافية في مراحلها التاريخية، وفي بيئاتها الوطنية السياسية.

تأسست «الحاضرة» (1888-1911) بعد سنوات معدودات من فرض الهيمنة الاستعمارية على البلاد التونسية، وفشل المشروع الإصلاحي الذي قاده خير الدين أملا في إمكانية الوقوف أمام أطماع فرنسا في تونس، فشل المشروع سياسيا، ولكنه نجح في غرس بذرة الإصلاح والتحديث، وهو الجانب الذي هدفت «الحاضرة» إلى مواصلة السعي لإحيائه في ظرفية سياسية جديدة، وقد كان لها دور بعيد المدى في ميلاد الحركة الوطنية التونسية، فقد تعاهد مؤسسوها على «حب البلاد... وتصافحوا على ما يفيد العباد»، كما جاء في العدد الأول منها.

تحدث الزعيم المغربي علال الفاسي في كتابه «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» عن مؤسس «الحاضرة» علي بوشوشة (1859-1917) قائلا: «أبرز هؤلاء الشبان (يعني الجماعة التي أسست الحاضرة)، وأقواهم شخصية هو السيد علي بوشوشة صاحب جريدة الحاضرة، فاستطاع أن يجمع من حول الجريدة كتلة قوية من أصدقائه، وغيرهم من المثقفين الزيتونيين والمدرسيين، وقاموا بحركة قومية ودينية ترمي إلى تقوية روابط القطر التونسي بحركة الجامعة الإسلامية».

أما رائد الجماعة ومنظرها البارز فهو البشير صفر (1863-1917)، وقد نعت بأنه أب النهضة التونسية الثاني بعد خير الدين، وقد تأثر به زعماء حركة «الشباب التونسي» الذين تزعموا الحركة الوطنية والإصلاحية في مطلع القرن العشرين مثل الزعيم عبد العزيز الثعالبي (1875-1944)، وعلي باش حانبة (1879-1918)، وأخيه محمد باش حانبة (1881-1920).

ويمكن أن نلخص القضايا المحورية التي عالجتها «الحاضرة» في النقاط التالية:

- الذود عن الهوية العربية الإسلامية للبلاد.
- التفاعل مع القضايا العربية والإسلامية مشرقا ومغربا.
- وطرحوا في مجال الفكر الإصلاحي التساؤل الكلاسيكي: «لماذا تأخر المسلمون، وتقدم غيرهم؟»
- التعريف بالماضي الزاهر للحضارة العربية الإسلامية باعتباره حافزا لهم على التمسك بالهوية الحضارية.
- التوفيق بين الشريعة الإسلامية والأخذ بأسباب التقدم الذي تعرفوا إليه عن كثب غداة اتصالهم المباشر بالنهضة الأوروبية، ويمثل ذلك الفكرة المحورية التي تقوم عليها مقدمة «أقوم المسالك» لخير الدين.

ألمعنا قبل قليل إلى أن جماعة «الحاضرة» لم تكتف بأداء دورها الإعلامي التنويري، بل شكلت نواة لحزب سياسي إصلاحي معتدل، ومن هنا جاء اهتمامها بتأسيس جمعيات أهلية ذات طابع اقتصادي وثقافي، ومن أبرز هذه المؤسسات «الجمعية الخلدونية» التي أسسوها عام 1896، ودشنت رسميا سنة 1897 بمحاضرة أحد رواد الحركة الإصلاحية، وصديق خير الدين الشيخ سالم بوحاجب (1827-1924) حول أهمية العلم والتعليم في الإسلام تحت عنوان «وعلّم آدم الأسماء كلها».

أسسوا «الخلدونية» جمعية أهلية مستقلة عن السلطة الاستعمارية بعد أن انحرفت «الصادقية» التي أسسها خير الدين عام 1875 عن أهدافها التي بعثت من أجلها، وهي تنشئة جيل يخدم المشروع الإصلاحي التحديثي الذي وضع أسسه النظرية في كتابه «أقوم المسالك».

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه قبل قليل، وهو أن جماعة

«الحاضرة» نظروا إلى أنفسهم باعتبارهم حزبا سياسيا إصلاحيا فقد تجاوزوا الحدود الوطنية، والقضايا الداخلية ليتفاعلوا مع الحركات الوطنية والإصلاحية في العالم العربي الإسلامي، فقد نوّه علال الفاسي بالمقالات التي نشرها البشير صفر في جريدة «الحاضرة»، مدافعا عن استقلال المغرب الأقصى ووحدته بعد أن انكشف المخطط الفرنسي لاحتلاله، وكانت تربطها علاقات متينة مع حركة الدستور المغربية التي نشرت مقالات متعددة في «الحاضرة» سنة 1909 هاجمت فيها السلطان عبد العزيز مطالبة إياه سلوك سياسة حازمة لوقاية المغرب من مؤامرات الاستعمار الفرنسي، وبخاصة بعد توقيع معاهدة الصداقة عام 1904.

أما العلاقات الثرية والمتنوعة فقد كانت مع رواد تيار الفكر الإصلاحي بالمشرق العربي، ولهذه العلاقات تقاليد راسخة تعود إلى اهتمام المصلحين التونسيين بمؤلفات الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873)، وخصوصا «تخليص الابريز في تلخيص باريز»، و«مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، ويصف الطهطاوي خير الدين بحكيم السياسة.

وكانت للحاضرة صلة بجمال الدين الأفغاني، وسعت إلى نشر آرائه في صفوف النخبة التونسية فاتهمها الحزب الصيادي بالأستانة (نسبة إلى أبي الهدى الصيادي 1849-1909) بتأييد الأفغاني، ونشر آرائه المناوئة للخليفة، وكان السيد جمال الدين مواكبا على متابعة نشاط النخبة التونسية، ومطالعا لما تنشره «الحاضرة»، ومن الثابت أن مدير الجريدة قد سافر إلى عاصمة الخلافة العثمانية، والتقى بالسيد جمال الدين، وشهرت جريدة المحروسة المصرية الموالية لأبي الهدى الصيادي بهذا اللقاء قائلة: « إن الأستاذ علي بوشوشة قد اجتمع قبل رجوعه إلى تونس ببعض من لا خلاق لهم»، وهي تعني الأفغاني (ع. العريبي، ص328).

ومن المعروف أن العلاقة قد توطدت بين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده منذ إصدارهما مجلة «العروة الوثقى» بباريس، وأذهب إلى القول في هذا الصدد إلى أن جماعة «الحاضرة» قد كانت متأثرة إلى حد بعيد بتجربة «العروة الوثقى»، وهي التي مثلت جسرا متينا بين التيار الإصلاحي التونسي وبين زعيمي الحركة الإصلاحية المشرقية يومئذ: الأفغاني، وعبده، فقد زار الشيخ عبده تونس مرتين، الأولى عام 1884 قادما من باريس، والثانية عام 1903 قادما من الجزائر، ورحبت به «الحاضرة» في زيارته الثانية، ونشرت محاضرته الشهيرة التي ألقاها على منبر «الخلدونية» تحت عنوان «العلم وطرق التعليم»، وهو الموضوع الذي ركز عليه محمد عبده باعتباره دعامة الإصلاح الديني والاجتماعي، وخصوصا بعد اختلافه مع أستاذه السيد جمال الدين، وقد لقيت دعوته صدى واسعا بين المثقفين التونسيين بفضل الحيز الكبير الذي خصصته للمحاضرة، ولنشاط صاحبها في تونس بصفة أعم.

انحازت جماعة «الحاضرة» إلى موقف محمد عبده بعد أن اتضحت أسباب الخلاف بين الأفغاني وتلميذه عبده، ويمكن تلخيصها في سبب جوهري يتمثل في إيمان السيد جمال الدين بأن الإصلاح ينبغي أن يبدأ بالإصلاح السياسي، أي مقاومة الحكم المطلق الاستبدادي في الداخل، ومقاومة الاحتلال الأجنبي في الوقت ذاته، ولا يمكن إنجاز مشروعات إصلاحية أخرى قبل الإصلاح السياسي، أما الشيخ عبده قد ذهب إلى أن عملية الإصلاح ينبغي أن تركز على التربية والتعليم، ونشر العلوم العصرية، وهي التي تكمن وراء تقدم الغرب كما يرى، وهي الرؤية التي بشر بها في تونس أثناء زيارتيه، وقد تبنتها جماعة «الحاضرة»، وهي بعيدة كل البعد عن اتخاذ مواقف سياسية ضد حكم الباي، أو سلطة المحتل، وقد برهنت أحداث العالم العربي الإسلامي بعد ما يقرب من قرن ونصف على بروز الخلاف بين الأستاذ وتلميذه على صواب الرؤية الأفغانية.

ولا يمكن أن ننهي هذه الفقرة دون الإشارة إلى أن جماعة «الحاضرة» لم يقتصر تفاعلها على التيار الإسلامي الإصلاحي في المشرق العربي فحسب، بل شمل أيضا

حركات التحرر الوطني، إذ نشرت أخبارا عن الحزب الوطني، وعرفت بزعيمه ومؤسسه مصطفى كامل (1874-1908)، كما رحبت بمحمد فريد (1868-1919)، وقد زار تونس مرتين، وربطته علاقات صداقة بجماعة «الحاضرة».

***

عرفت الصحافة الوطنية بصفة عامة، والدوريات ذات الطابع الفكري والثقافي بصفة أخص تحولا واضحا في مطلع القرن العشرين تزامن مع ميلاد الحركة الوطنية الحديثة غداة تأسيس جماعة «الشباب التونسي»، وصدور لسان حالها باللغة الفرنسية جريدة «التونسي» عام 1907، وينحدر زعماء الحركة الجديدة من أسر البورجوازية التقليدية للمدن الكبرى، وبخاصة لمدينة تونس، ويتحدر أكثرهم من أصول تركية، فقد كان زعيمهم علي باش حانبة متأثرا بحركة الشباب العثماني، وحركة الوطنيين في سوريا ومصر أكثر من تأثره بحركة الإصلاح الديني التي تزعمها جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ عبده، وتخرج جلهم من المدارس الفرنسية، وتبنوا في المرحلة الأولى سياسة المشاركة والاندماج، واستمرت هذه المرحلة إلى سنة 1912 بعد إعلان حالة الطوارئ غداة الانتفاضة الشعبية التي عاشتها مدينة تونس، والمعروفة بحوادث «الجلاز».

مثلت جريدة «التونسي» ظاهرة جديدة في تاريخ الصحافة الوطنية، ألا وهي صدور صحف بالفرنسية ناطقة باسم الأحزاب الوطنية، ولعل السبب في ذلك يعود بالأساس إلى التوجه للرأي العام الفرنسي من جهة، والرد على صحف الجالية الاستعمارية المهاجمة للحركة الوطنية الفتية، والمنددة بزعمائها من جهة أخرى، ملاحظا أن جل مؤسسي حركة «الشباب التونسي» من ذوي الثقافة الفرنسية، وكتبوا أساسا بالفرنسية، ولكن تأثير التيار العروبي الإسلامي قد تواصل، وأبرز من مثله في صفوف «الشباب التونسي» الزعيم الإصلاحي عبد العزيز الثعالبي، وهو من تلامذة الشيخ سالم بوحاجب، ومن المتأثرين بالثنائي الأفغاني- عبده، وقد بدأت تجربته في الميدان الإعلامي وهو في سن العشرين لما أصدر جريدة «سبيل الرشاد» عام 1895، وقد عرف برسالتها بالصفحة الأولى من العدد الأول (16/ 12/ 1895) قائلا: إنها «جريدة علمية أدبية سياسية تاريخية»، وخصص ركنا من أركانها لقضايا الفنون الأدبية، والعلوم الفلسفية.

وليس من المبالغة في شيء الإصداع هنا بأن الثعالبي بقي وفيا للسنة التي سنتها جماعة «الحاضرة»، فهو من أنصار الجامعة الإسلامية، ومن المدافعين عن الخلافة العثمانية، فقد كتب عنه رفيقه في الحركة الإصلاحية الإسلامية عجاج نويهض يقول: «إنه خطيب من الطراز الأول أخذ عن جمال الدين الأفغاني حماية بيضة الإسلام، ومن عبد الرحمان الكواكبي السياحة، ودراسة شؤون العرب المسلمين عن كثب، وقد جمع الثعالبي بين التنظيم القومي العملي، والقدرة العجيبة على الحديث الشهي الذي يحول به الحقائق الفلسفية إلى طعام ذهني».

وبعد هذه التجربة المبكرة في مجال النشر والصحافة سافر إلى الشرق، واتصل برجال الإصلاح في عاصمة الخلافة، وفي مصر، ولما عاد إلى تونس، وانضم إلى حركة «الشباب التونسي» أصدر جريدة «الاتحاد الإسلامي» (أكتوبر 1911)، وقد نعتت نفسها بأنها جريدة «الشعب»، وقد برهنت مقالاته في الصحيفة الجديدة على التحول الذي عرفه فكر الثعالبي السياسي، وبخاصة موقفه من الحكم الاستبدادي، وآثاره السلبية على الوضع العربي الإسلامي يومئذ، وقد لمس عن كثب في الأستانة ويلات الحكم الاستبدادي العثماني، فندد بالخصوص بعلماء السوء الذين ساندوا الحكم المطلق، وأضفوا الشرعية على سلطة غير شرعية، فقد كتب في افتتاحية العدد الأول يقول:

«كل ذلك وعلماء السوء كانوا يبررون أعمال هؤلاء الجبابرة الطغاة، ويدعون لهم على المنابر، ويقرنون

ذكرهم بذكر الله مقابل ما كانوا يتقاضوه منهم من العطايا والهبات».

إن تأثير الثعالبي في الفكر الإسلامي الإصلاحي المعاصر قد تجاوز تونس، ومصر، وفلسطين، وعاصمة الخلافة العثمانية ليبلغ شبه القارة الهندية، وسومطرة، وسيلان، وسنغافورة، واليمن، والكويت.

***

يتميز الربع الأول من القرن العشرين ببروز ظاهرة المجلات ذات الموضوعات العامة، ونجد ضمنها أبوابا مخصصة للأدب، والثقافة بصفة أعم، وتكاد تتخصص مجلات أخرى في طرح القضايا الثقافية، وهي دوريات ذات رؤى متباينة أسسها أفراد، أو جماعات انتبهوا إلى أهمية العمل الثقافي في نشر الوعي، والذود عن الهوية الحضارية للشعب التونسي، وقد عانى جلها من صعوبات حالت دون استمرار صدورها بانتظام، ولذا يلاحظ الدارس لهذه الدوريات توقفها بعد صدور أعداد قليلة نذكر من بين هذه المجالات:

– السعادة العظمى (1904-1905)، وهي تعتبر أول مجلة تونسية تصدر بالعربية، وقد أسسها أحد شيوخ الزيتونة محمد الخضر حسين (1876-1958)، وهو يصنف ضمن التيار الزيتوني المحافظ، وقد رحل إلى المشرق العربي فدرس بدمشق، ثم عاش فترة في عاصمة الخلافة، وقد أرسلته القيادة التركية الجديدة في مهمة إلى برلين أثناء الحرب العالمية الأولى، واستقر بعد ذلك في مصر، وأصبح من أشهر شيوخ الأزهر، وقد تقلد في المرحلة الناصرية منصب مشيخة الأزهر.

أما الموضوعات التي تناولتها المجلة (وكان أغلبها من تحرير مؤسسها) فهي:

– المباحث العلمية.

– الآداب، وهو الركن، المخصص للشعر، وللإبداع الأدبي.

– الحكم، والموضوعات ذات الطابع الأخلاقي.

– قضايا الإصلاح، والدعوة إلى الأخذ بأسباب المدنية.

ولا ننسى الإشارة في هذا الصدد إلى أن مؤسس المجلة هو من تلامذة الشيخ سالم بوحاجب، فقد كتب في العدد الثاني عشر عن «مدنية الإسلام والعلوم العصرية»، ونشر قصيدة تحض أبناء جيله على الأخذ بأسباب نهضة جديدة تعيد للمسلمين قوتهم ومكانتهم في العصر الحديث، وقد ختمها قائلا:

إن المعـارف والصنائع عـدة

باب الترقي من سواها موصد

– «خير الدين» (1906) يكشف اسم المجلة على اتجاهها منذ العدد الأول، وهو الدفاع عن مشروع خير الدين التونسي، وقد قدمه مؤسسها الصحفي التونسي المشهور محمد الجعايبي (1880-1938) مصلحا كبيرا، وسياسيا محنكا تجاوزت رسالته حدود القطر التونسي ليشمل إصلاح الرجل المريض: الخلافة العثمانية (تولى الصدارة العظمى في الاستانة)،

ومن أبرز المسائل التي تناولتها المجلة قضية المرأة، وقضية اللغة العربية باعتبارها الدعامة الصلبة للنهضة العربية، وكان لها فضل نشر أول نص روائي عرفه الأدب التونسي الحديث بعنوان «الهيفاء وسراج الليل» للأديب القيرواني صالح السويسي (ت عام 1941).

وتوقفت « خير الدين» في نفس السنة التي صدرت فيها، وهي تلتقي في هذه الظاهرة مع كثير من المجلات الثقافية التي صدرت قبل الاستقلال.

– «الفجر» (1920-1922) كان لهذه المجلة أثر بعيد المدى في الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي، ورغم دفاعها عن الجامعة الإسلامية في المجال السياسي، وعن الإسلام الاجتهادي في مجال الفكر الإسلامي فقد تبنت مبدأ الإفادة من النهضة الأوروبية الحديثة، ونادت بمبدإ حرية المواطن، بل ذهبت بعيدا

فأعلنت أن المسلمين ليسوا مطالبين بطاعة سلطة غير شرعية تتنكر لقيم الشورى والحرية في الإسلام، كما أشادت بحرية الصحافة باعتبارها الأس المتين لكل نهضة، أما قضايا اللغة والثقافة قد تبوأت مكانة بارزة بين أركان المجلة، إذ أننا نجد دعوة متواصلة لتجديد اللغة العربية كي تستطيع مواكبة تطورات العصر الحديث، ودعت إلى تعلم اللغات الحية لتكون نافذة على الحضارة الأوروبية، وفتحت صفحاتها في الوقت نفسه للتعريف بالتراث العربي الإسلامي.

أما المسائل الأدبية فقد حظيت بحيز بارز بين القضايا التي عالجتها المجلة فنشرت إنتاج كثير من أدباء المشرق العربي إلى جانب الأدباء التونسيين.

- «البدر» (1920- 1921)، إن المتصفح لأعداد هذه المجلة يلمس في يسر اهتمامها بقضايا الجامعة الإسلامية، وبإبراز دور مناصري الخلافة العثمانية من التونسيين، فقد عرفت القراء بشيخين من شيوخ الزيتونة عرفا المنفى دفاعا عن الجامعة الإسلامية، وتوفيا في دار الغربة، وهما الشيخ إسماعيل الصفايحي (1852-1919)، والشيخ صالح الشريف (1860-1920)، وقد انغمسا في قضايا السياسة في بعديها الوطني والإسلامي على غرار تلميذهما الزعيم عبد العزيز الثعالبي، ولذا نجد المجلة قد دافعت عن مقولة «الإسلام دين ودولة»، وعن ضرورة اهتمام العلماء بالسياسة متخذة من تجربة ابن خلدون مثالا يحتذى.

تلتقي «البدر» مع المجلات الثقافية الصادرة بين الحربين العالميتين في اهتمامها بقضية اللغة العربية، مؤكدة أنه لا يمكن إنجاز نهضة عربية حديثة دون تحديث العربية وتطويرها لتصبح قادرة على التعبير عن القضايا المعاصرة، وقد جعلها هذا التوجه تعرف بالنصوص التراثية التي كتبت بلغة أدبية راقية، فاستعانت في ذلك بابن المقفع، وابن أبي طاهر، والمعري من القدامى، وبمعروف الرصافي (1875-1945)، وجميل صدقي الزهاوي (1863-1936)، والمنفلوطي (1872-1924) من أدباء المشرق العربي، وذلك إلى جانب الأدباء التونسيين مثل محمد الخضر حسين، وسعيد أبو بكر، كما نشرت المجلة نصوصا معربة لكبار الكتاب الفرنسيين.

ولما توقفت «البدر» عوضتها مجلة «العرب» (1923-1924) بإدارة كاتب تونسي تبوأ مكانة مرموقة في تاريخ المجلات الثقافية التونسية وأعني زين العابدين السنوسي، وقد كان ضمن زمرة جماعة «البدر»، ولذا فقد اتبعت المجلة الجديدة المنهج التي سارت عليه «البدر» في اهتمامها بقضية اللغة العربية، وفي تفتحها على الأدب المشرقي، وفي تعريفها بالتراث العربي الإسلامي، ولكنها أفردت حيزا أكبر للأدب، ونشر فيها كبار الأدباء.

تزامن صدور مجلة «العرب» مع أحداث سياسية كبرى عاشتها تونس، والمغرب العربي (ثورة الريف)، وبداية تأسيس الحركة العمالية ذات الطابع الوطني بقيادة محمد علي الحامي (1890-1928)، وقضية الخلافة في المشرق، وبداية المقاومة الفلسطينية ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وغيرها من القضايا السياسية المطروحة على الساحة العربية يومئذ.

كل هذه القضايا جعلت صاحب المجلة يخصص ملحقا سياسيا صدر مع المجلة فالتحمت الثقافة بالنضال السياسي والاجتماعي التحاما شديدا، وقد تواصلت الظاهرة في المجلات الثقافية إلى استقلال البلاد.



***

دخلت المجلات الثقافية مرحلة جديدة ابتداء من الثلاثينات اتسمت بتعدد المنابر، وبالتجديد الفكري والأدبي، وبروز أقلام جديدة، وسنقف عند أبرزها لما تمثله من أهمية كبرى في التأريخ للثقافة التونسية الحديثة، وهي «العالم الأدبي»، و «المباحث»، و«الثريا»، و«الندوة»، ولكن لابد من الإشارة إلى دوريات أخرى كان لها أيضا أثر بعيد المدى في النهضة الثقافية التي عرفتها تونس في مرحلة ما بين الحربين، وأعني الصحيفة الأسبوعية «الشباب» (1936-1937) التي أسسها محمود بيرم التونسي (1893-1961) في مرحلة منفاه بتونس، فقد

خصص قسما كبيرا من الصحيفة للسياسة فهاجم السياسة الاستعمارية، ووجه في الوقت نفسه نقده الهزلي اللاذع إلى المتعاونين مع الاستعمار، كما ناصر التيار السياسي المجدد الذي تزعمه الزعيم الحبيب بورقيبة، وناصر تحرر المرأة، مندداً بمظاهر الجمود، والفكر الأسطوري.

ومن الطبيعي أن يخصص الكاتب والشاعر الكبير بيرم التونسي حيزا بارزا للأدب والفن، وبحكم صلته بالشعر الغنائي، وبالوسط الفني بصفة عامة فقد كانت جريدته رائدة في العناية بالحياة الفنية، وهي ظاهرة جديدة، أو تكاد لم تعرفها الدوريات الثقافية من قبل.

أما «المجلة الزيتونية» (1936-1955) فقد أسسها شيوخ الزيتونة لتعبر عن رؤاهم في القضايا الإسلامية بالدرجة الأولى، ولكنها لم تهمل قضايا اللغة والأدب، وقد تناولتها من وجهة نظر محافظة.

وأعود إلى «العالم الأدبي» (1930-1936) لأشير إلى أنها تمثل المجلة الأولى المتخصصة في قضايا الأدب العربي الجديد، فقد كانت منبرا للمجددين في فن المقالة، وفي الشعر، والنصوص السردية، وكذلك في الميدان المسرحي، ولم تهمل الترجمة.

وقد نشر فيها جل الأدباء التونسيين المعروفين في تلك الفترة، كما نقرأ فيها نصوصا لأدباء المشرق العربي، وقد عرفت بموقفها المناصر للمصلح التونسي المدافع عن حرية المرأة الطاهر الحداد (1899-1935)، لما أصدر كتابه الشهير «امرأتنا في الشريعة والمجتمع»، وعرفت بالشاعر النابغة أبو القاسم الشابي (1909 - 1934)، كما تصدت لممثلي التيار المحافظ في الفكر والأدب.

وتميزت «المباحث» في سلسلتها الثانية (1944-1947) بتمثيلها لجيل جديد من المثقفين التونسيين عرفوا باطلاعهم الواسع على الثقافة الغربية، ومعرفتهم في الوقت ذاته بالأدب العربي القديم، فقد تخرج بعضهم من جامعة السوربون في اختصاص الأدب العربي، ونجد في مقدمتهم الكاتب التونسي المعروف محمود المسعدي (1911-2004)، وقد علقت جماعة «المباحث» آمالا كبرى على هبوب رياح الحرية على بلادهم بعد انتصار قوى الديمقراطية على النازية، وآمنوا برسالة المثقف في تغيير الأوضاع المتردية، ولكن سرعان ما خيبت الأيام ظنونهم، إذ أن الإدارة الاستعمارية قد واصلت سياستها التعسفية فاشتدت الرقابة على الصحافة، كما تعرب عن ذلك رسالة أسرة المجلة إلى الكاتب الفرنسي الشهير، والوزير المشرف على الإعلام يومئذ أندري مالرو (راجع المباحث، أكتوبر 1945).

وقد حددت «المباحث» رسالتها في العدد الأولى من السلسلة الثانية تحت عنوان «تزول الأعراض ويبقى الجوهر» قائلة:

**«ولا تريد هذه المجلة أن تنتصب للدفاع عن مذهب دون مذهب، والتعصب لفريق دون فريق، وإنما هي تود أن تكون مرآة صافية، صادقة لما يستطيعه** كل تونسي من مفيد **البحث والتفكير والابتكار»** (المباحث، 10/ 4/ 1944).

ومن الأهداف التي حددتها الدفاع عن صفاء الإسلام، ومقاومة البدع، وآفاق الدخلاء، وعلل الشعوبية، ولكن الرقابة الاستعمارية وقفت حائلة بينها وبين خدمة هذا الهدف السامي، وبخاصة في مستوى المغرب العربي، «لكن **سامح الله الرقابة، وعجل بدفنها حتى يكون للحرية معنى...**» (عدد مارس 1945).

دافعت «المباحث» عن اللغة العربية، وتصدت لمحاولات الإدارة الاستعمارية تهميش الثقافة العربية وإهمالها، ولكنها نادت في الوقت نفسه بضرورة التفتح على الثقافات الغربية، وبخاصة الثقافة الفرنسية، معللة ذلك بما عرفته الحضارة العربية أيام ازدهارها من التفتح على ثقافات الشعوب الأخرى.

وعرف موقفها تجاه القضايا السياسية مراحل مختلفة، وأصبحت في مرحلتها الأخيرة - وبعد خيبة الأمل في سلوك الإدارة الاستعمارية سياسة اعتدال وانفراج- منارة لحركات التحرر الوطني في تونس، وفي العالم العربي الإسلامي (ر. افتتاحية عدد أغسطس- سبتمبر 1946).

أما مجلة «الثريا» (1943- 1950) فقد كان لها أثر بعيد المدى في خدمة الأدب التونسي، وفي التعريف بكثير من الأقلام التونسية، وأولت عناية خاصة بأدب أقطار المغرب العربي، ونشر فيها أدباء مقهى «تحت السور» إنتاجهم، وكان لصاحبها علاقة متينة بهم، ومن المعروف أن جماعة مقهى «تحت السور» قد أثرت تأثيرا عميقا في الحياة الأدبية والفنية التي عاشتها تونس في الأربعينات (ر. عنهم ما كتبه أحد أفرادها البارزين علي الدوعاجي في جريدة «الأسبوع»16، 9، 30/ 06/ 1946).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ارتباط صاحب المجلة بالإدارة الاستعمارية قد أثر في سمعتها في أوساط النخبة رغم ما أدته من خدمة للثقافة التونسية.

صدرت قبل استقلال تونس بسنوات معدودات مجلة «الندوة» (1953-1957)، وتعد مجموعتها مرجعا ثريا وأساسيا للتعرف إلى رؤى النخبة المثقفة التونسية في مرحلة حاسمة من مراحل حركة التحرر الوطني، فقد صدرت بعد مرور سنة على اندلاع الانتفاضة المسلحة للشعب التونسي من أجل الحرية والاستقلال (يناير 1952)، كما أنها تتميز بنشر مقالات لعدد من المثقفين التونسيين الذين تحملوا مسؤوليات سياسية في أجهزة الدولة الوطنية الفتية غداة الاستقلال، وساهمت فيها أقلام فئتي النخبة المثقفة التونسية: فئة الزيتونيين، وفئة المدرسيين في فترة حاسمة من تاريخ البلاد التحم فيها نضال النخبة من أجل استرجاع سيادة البلاد، ثم الإسهام في بناء الدولة الوطنية الحديثة.

وعندما يتساءل المرء عن موقف أسرة «الندوة» من الأحداث السياسية التي عاشتها البلاد، وقد صدرت المجلة، والانتفاضة الشعبية مشتعلة، كما ألمعنا إلى ذلك قبل قليل، فإنه يلمس الحذر كل الحذر، فهي تشير من بعيد إلى كفاح الأمم المغلوبة (كلمة الندوة، عدد يوليو- أغسطس 1954)، وتلمح بعد نيل تونس استقلالها الداخلي (يونيو 1955)، وعودة المجلة في سلسلتها الرابعة إلى الظروف السياسية التي أوجبت عليها الانكماش (راجع افتتاحية عدد يناير 1956).

ولا بد من القول في نهاية هذا النص: إنه لا يمكن البتة التأريخ لتيارات الفكر والأدب التونسيين من جهة، ولرسالة العمل الثقافي في دعم الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي من جهة أخرى دون دراسة الدوريات الوطنية الصادرة بين 1881 و 1956.



## المراجع والمصادر

رجعنا إلى مجموعة بعض المجلات الثقافية، كما أفدنا من مراجع متنوعة نثبت بعضها في القائمة التالية لمن يريد التوسع في بحث الموضوع.

1) الحبيب الجنحاني: عبد العزيز الثعالبي رائد بارز من رواد الإصلاح ضمن كتابه: «دراسات في الفكر والسياسة»، تونس 2006.

2) نفس المؤلف: محمد باش حانبة أحد رواد الحركة الوطنية التونسية، تونس 1989.

3) نفس المؤلف: الحركة الإصلاحية في تونس، حوليات الجامعة التونسية، العدد 6، 1969.

4) محمد مواعدة: حركة الترجمة في تونس، تونس 1986.

5) نفس المؤلف: محمد الخضر حسين، تونس 1974.

6) حفناوي عمايرية : الصحافة وتجديد الثقافة، تونس في القرن التاسع عشر، تونس 1994 .
7) نفس المؤلف : فجر التنوير العربي، تونس، د ت .
8) علي العريبي : الحاضرة، تونس 1995 .
9) الجيلاني بن الحاج يحيى : البشير الفورتي، تونس 2005 .
10) ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة، بيروت 1977 .
11) ج. س. فان كريكن، تونس 1988 .
12) أحمد عبد السلام : المؤرخون التونسيون ، بيت الحكمة تونس 1993 .
محمد علي الكبسي : في النهضة والحداثة تونس، 1994-13
14) Jaafar Majed : la presse littéraire en Tunisie de 1904 à 1955, Tunis, 1979.
15) Stuart Schaar : abd- al – aziz- thaalbli : The maghreb review, v.30, n°.1, 2005.



# المكتبة الوطنية وحفظ التّراث
## التّراث الدوريّ أنموذجا

محمـد رؤوف بلحسن

### I – تعريفات :

كان لا بد بادئ ذي بدء ونحن نتطرق إلى هذا الموضوع من محاولة تحديد تعريفات لبعض المفاهيم المرتبطة به على غرار المكتبة الوطنية والتراث وما طبيعة العلاقة بينهما؟

#### ما التراث ؟

يقول «لسان العرب لابن منظور : «والورث والتراث والميراث : ما ورث» أي ما ترثه الأجيال السابقة من كتابات وتعابير ثقافية مختلفة ومعالم أثرية وغيرها. كلّ ما دخل في عداد الماضي وأضحى ذاكرة أصبح وفق هذا المفهوم تراثا.

إنّ تحديد مفهوم ثابت للتراث أمر يكاد يكون مستحيلا نظرا لتعدد الرؤى بشأنه في الزمان والمكان، ولكن ما يمكن قوله اختصارا: إنّ للتراث بعدا تاريخيا معلنا ومن وظائفه الأساسية تحديد هوية المجتمع وتحديد شخصيته بما يمثله من خصوصية تميّز هذا المجتمع عن ذاك.

والتراث صنفان كما يتفق على ذلك الدارسون في هذا المجال. تراث مادي وآخر غير مادي.

التراث المادي يتمثل في التراث العقاري والأثري والأرشيفي والوثائقي، بناءات ومعالم ومواقع ...كتبا ودوريات ومخطوطات، وبناء على هذا التعريف فإنّه يجمع أشياء ملموسة يمكن حفظها وترميمها والتعريف بها.

في حين أنّ التراث اللامادي كما عرفته منظمة اليونسكو حين صادقت سنة 2003 على اتّفاقية حفظه، هو تلك «الممارسات والتمثّلات والتعبيرات والمعارف... التي توفر للمجموعات والأفراد شعورا بالهويّة، والاستمرار وتشكّل الوسائل والأشياء والفضاءات الثقافية المرتبطة بهذه الممارسات جزءا لا يتجزّأ من هذا التراث».

أمّا مجالاته فتحدّدها اليونسكو في التقاليد والتعابير الشفوية وفي الفنون المشهدية والممارسات الاجتماعية على غرار الطقوس والمظاهر الاحتفالية، ومن مجالاته أيّضا المعارف والممارسات المتّصلة بالطبيعة والكون وكذلك الإبداع في الصناعات التقليدية.

#### ما المكتبة الوطنية ؟

إنّ المكتبة الوطنية في مفهومها الواسع هي تلك المؤسسة المكلفة بجمع الإنتاج الثقافي والفكري لمجتمع

ما وحفظه ليتحوّل بمرور الزمن إلى تراث ذلك المجتمع وذاكرته المميّزة. ومهمة المكتبة الوطنية إجمالا كما يوجزها المختصون تتمثل في جمع التراث وحفظه وصيانته والتعريف به، وتاريخها مرتبط أيّما ارتباط بتشريع الإيداع القانوني الذي يرجع إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر (1537) حين أصدر الملك فرنسوا الأول في ذلك الوقت تشريعا سمّاه «مذكرة مونتبليي» يقدم بمقتضاه كلّ طابع أو ناشر لمكتبة الملك في بلو «Blois» نظيرا مجانيا من كلّ كتاب جديد أيا كان مؤلفه ومهما كان موضوعه...

يقول كلود فورنيي (1) «الإيداع القانوني إجراء إداري يتنزّل في صلب أنشطة معظم المكتبات الوطنية ومرتبط بتاريخها...»

## II – ما العلاقة بين المكتبة الوطنية والتراث ؟

إنّها بلا ريب واستنادا إلى وظائف المكتبة الوطنية الأساسية المتمثلة في جمع التراث وحفظه والتعريف به ـ علاقة وطيدة ـ وتكاد تكون المكتبة الوطنية في أي مصر من أمصار الدنيا هي حاضنة التراث ـ خاصة منه المكتوب مخطوطا ومطبوعا وعلى أوعية ألكترونية ـ والمحافظة عليه. تجمعه كما أنف الذكر بواسطة الإيداع القانوني أساسا وتتعهده بالصيانة والترميم وتعرّف به على المستويين الداخلي والخارجي.

والمكتبة الوطنية في تونس لم تشذ عن هذه القاعدة فهي تحتفظ بأرصدة ضخمة مطبوعات ومخطوطات ودوريات يرجع تاريخها إلى بدايات الطباعة في العالم وظهورها في تونس وتوصفها وتسعى إلى إبراز قيمة هذا الرّصيد بشتّى الوسائل.

أمّا الذي يهمنا في هذا المقال فيتمثل بالأساس في محاولة التعريف بالتراث الدوري المطبوع المحفوظ بالمكتبة الوطنية.

ماهي ملامحه العامة ؟ كيف تصونه المكتبة الوطنية وترعاه ؟ وكيف تعرف به على الصعيدين الوطني والدولي ؟.

## III – التراث الدوري في رحاب المكتبة الوطنية

### 1 – ملامحه

إذا سلّمنا كما سبقت الإشارة إليه أنّ التراث هو كلّ ما دخل في عداد التاريخ وتحول إلى ذاكرة نعود إليها للتعرف على ما تركه لنا الأوائل في مجالات الأنشطة الثقافية والفكرية فإنّ ما اعتبرناه تراثا من الرصيد الدّوري التونسي هو ذلك الذي يتوقف في حدود منتصف القرن العشرين إذ مرت عليه أكثر من خميسن سنة، ولمّا كان الأمر كذلك فقد حددنا الفترة الزمنية لهذه الدراسة ما بين صدور أول صحيفة بتونس إلى غاية منتصف القرن الماضي.

يتمثل هذا التراث إذن في مجموعات متنوعة من الصحف والمجلات وكل ما كان له صدور دوري متواتر. وقد أحصى الدكتور محمد الدّوري حمدان (2) هذه الرّصد فذكر أنّها تشتمل على 340 عنوانا باللغة العربية و72 عنوانا في مجال الصحافة العربية كما أحصى في الدليل الصادر 970 عنوانا باللغات اللاتينية الفرنسية أساسا.

وإذا كان يلاحظ سيطرة عدد الصحف باللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية فذلك راجع بطبيعة الحال إلى أنّ البلاد كان يدير شؤونها الفرنسيون آنذاك. أمّا ملامح هذا التراث الصحفي الثري فقد نختصرها بالقول إنّه ينقسم إلى صحافة جهوية يمكن القول إنّها عرفت ازدهارا لم تعرفه في أيامنا الحاضرة إذ كان لكلّ جهة تقريبا صحيفة تتحدث باسمها وتغطي مختلف الأنشطة فيها سواء أكان ذلك بالعربية أو الفرنسية على غرار «صدى الساحل» التي صدرت عام 1921 أو «صدى تونس» الصادرة سنة 1943 أو : l'Avenir de Sousse، l'Avenir du Kef، l'Avenir de Bizerte وغيرها من الصحف الجهوية الكثيرة الأخرى، وتجدر الإشارة إلى أن أول جريدة صدرت باللغة العربية في كلّ هذا

التراث هي «الرائد» التي صدر العدد الأول منها يوم 22 جويلية 1860 وأول جريدة باللغة الأجنبية هي باللغة الإيطالية وعنوانها Il Gorinale de Tunisi di Carthage سنة 1838.

ولعل ما يميز هذا التراث بالإضافة إلى زخم الصحافة الجهوية هو مجموعة التقاويم والرّزنامات والأدلة التي كانت تصدر سنويا وتقدم معلومات كثيرة في شتى المجالات وتوافق بين الشهور الأعاجم والشهور القمرية، منها على سبيل الذكر لا الحصر «النزهة الخيرية» لصاحبها حسن لازغلي وقد صدرت سنة 1874 و«الرّزنامة التونسية» لمحمد بالخوجة، صدرت سنة 1901 و«تقويم الأدب» التي صدرت سنة 1927 و«الدليل التونسي» الذي صدر سنة 1932 وكان يقدم معلومات مختلفة عن الفلاحة والتجارة والصناعة ومختلف المهن بالإضافة إلى المعلومات عن الهاتف. وغير هذه الوثائق كثير في تراثنا الدوري المحفوظ بالمكتبة الوطنية.

وقد لا يتسع هذا المقال للإتيان على زخم هذا التراث المهم ولكن ما يمكن قوله إيجازا أنّه يشمل معينا لا ينضب للباحثين والمستفيدين إذ بالرجوع إليه والتفحص فيه يمكن أن تحصل لهم فكرة ضافية عن أهم مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في الفترات التي صدرت فيها تلك الصحف والمجلات. كأن يعرفوا مثلا حركة الطباعة وأهم ما يميز القطاع الصحفي، كما يمكنهم أن يعرفوا رواد الصحافة وإلى غير ذلك من هذه المعلومات التي لا يمكن أن تتاح لهم في غير هذا التراث الذي ينقل الذاكرة من عصر إلى عصر.

إذن هو تراث دوري، إذا ما نحن أوغلنا فيه استطعنا أن نستخرج منه ذخائر يستحيل العثور عليها في أيّة مظنة أخرى. وتعتبر المكتبة الوطنية إذا ما قارناها بمركز التوثيق القومي أو بالأرشيف الوطني الخزانة الأكبر التي تحتفظ بالتراث الدوري الوطني وتحافظ عليه وتناوله للقراء والمستفيدين، وهي التي تملك مجموعات من أمهات الجرائد والمجلات على غرار «الحاضرة» التي صدر العــــدد الأول منها في 1 أوت 1888 و«الزهرة» «1890» و«النهضة» و«الوزير»«1920» وLa revue Tunisienne 1822 و La Tunisie illustré وغيرها من الصحف والمجلات المهمّة التي تحوي في متونها فرائد المعرفة.

## 2 – كيف يتم جمعه؟

تجمع المكتبة الوطنية التراث الدوري بواسطة قنوات مختلفة كالاشتراكات والتبادل والإهداء وعن طريق الإيداع القانوني أساسا، ولكن منذ صدور القانون الأساسي رقم 1 – 2006 في 9 جانفي 2006 والذي نقح مجلة الصحافة فألغى بذلك هذا الإجراء بالنسبة للدوريات لم يعد بوسع المكتبة الوطنية ذاكرة البلاد الحصول على الصحف والمجلات وحصل اضطراب في تجميعها ممّا اضطرها إلى اللجوء إلى عملية الشراء، وتشتت جهدها بين الناشرين والموزعين وذلك حرصا منها أن لا تحدث ثغرات في المجموعات المحفوظة لديها وعلى الرغم من ذلك فإنّ جهد الجمع متصل في انتظار إيجاد صيغة يمكن معها استثناء المكتبة الوطنية من هذا الإجراء باعتبارها كما سلف أن ذكرنا ذاكرة البلاد وخزانة وثائقها ومستودعها.

## 3 – صيانة التراث الدوري

تتعدد الأساليب وتختلف في صيانة هذا التراث الدوري. ولقد سعت المكتبة الوطنية منذ كان رصيد الدوريات في «جمعية الأوقاف» بنهج جامع الزيتونة بما اتيح لها من إمكانيات ووسائل إلى تعهد هذا التراث إذ كانت تعالج فنيا بما يقع عليها من ترميم وتسفير وتغليف حراري «Thermocollage» وإلى غير ذلك من هذه الأساليب. لكن صيانة هذا التراث الدوري لا تقف عند الترميم والتسفير وإنّما تتدخل وسائل أخرى يمكن استخدامها لإدامة حفظ الدوريات نذكر من هذه الوسائل أساسا التصوير المصغر والرقمنة.

### أ – التصوير المصّغر

هو أسلوب تتبعه مختلف المكتبات لنقل رُصدها إلى أشرطة فيلمية قد يصل عمرها إذا ما تم حفظها في ظروف حسنة تتطابق ومواصفات الحفظ الفنية – إلى أكثر من مائة سنة، والتصوير المصّغر «Micrographie» صنفان: تصوير على أفلام «Microfilm» وتصوير على جذاذات «Microfiche» وكلتا الوسيلتين قادرتان على جمع عدد كبير من محتويات الصحف والمجلات وذلك بعدم مناولتها للباحثين والاستعاضة عنها في هذه الحالة بالميكروفيلم الذي يمكن للقرّاء أن يحصلوا بواسطته على ما يشاؤون من محتويات هذا التراث الدوري.

ولقد تم في هذا المضمار تصوير مجموعة من الصحف والمجلات التونسية على غرار(ذكرا لا حصرا) «البرلمان التونسي» و«لسان العرب» و«افريقيا الفتاة» و«مرشد قدماء المحاربين» وجريدة «Le Tunisien» وغيرها من الدوريات الأخرى. وتجدر الاشارة إلى أن المكتبة الوطنية مقبلة على طموح في هذا المجال خصوصا بعد فتح مقرها الجديد وتركيزه.

### ب – الرقمنة «La numérisation»

إنّ الرقمنة كما هو متفق عليه – أسلوب حديث دخل مجال التوثيق وحفظ الوثائق من بابه الكبير وقد جاء تزامنا مع هذا الإنفجار الذي تشهده وسائل الاتّصال. ونعني بالرقمنة «تحويل واقع تناظري» «Analogique» إلى شكل مرقمن يمكن استنساخه ومعالجته بواسطة الحاسوب (3). ومزاياها أنّها تمكن من استخراج عدد غير محدود من نظائر الوثائق إلى أعلى مستوياته إلخ ...

والمكتبة الوطنية مواكبة لهذا التطور التكنولوجي المهم إذ شرعت منذ حطّت رحالها بالمبنى الجديد في إعداد برنامج رقمنة للتراث الدوري، وتوصّلت إلى حدّ الآن إلى رقمنة مجموعة من الدوريات رقمنة تامة. أي أنّها أتت على جميع محتوياتها فصورت مجموعة من تراث الصحافة الهزلية على غرار «الإمتاع» و«جحا» و«الإنشراح» و«فزدور» و«الزهو» و«المضحك» و«الشباب» وغيرها. كما أنجزت رقمنة مجموعات من الصحافة الجهوية مثل «صوت نفطة الثقافي» و«صدى الريف» و«Banlieue Nord» و«Courrier du sud Tunisien» و«L'écho de Bizerte» و«L'avenir du centre» إلخ ... ومن تراث الصحافة العلمية تمت رقمنة على سبيل الذكر «المعرفة» مجلة الصيدلي التوني «المجلة العربية للعلوم» و «La Tunisie industrielle» و«Technique et Hommes» وما إلى ذلك من هذا الرصيد. أمّا تراث الصحافة الرياضية فقد رقمنت منه المكتبة على سبيل الذكر لا الحصر دائما «أصداء الحلبة» «دنيا الملاعب» «الخطاف الرياضي» «L'Afrique sportive» و«Le Moniteur» إلخ ...

إنّ استخدام التصوير المصّغر وأسلوب الرقمنة للتراث الدوري التونسي لهو في واقع الأمر إنقاذ للمجموعات الأصلية من الاستعمال المتكرر من قبل القراء، هذا الاستعمال الذي قد يتسبب بمرور الزمن في تهرئة الوثيقة وتلاشيها. وفي ذلك أيضا مرونة أكبر للرجوع إلى هذه الوثائق بواسطة المصغرات والرقمنة.



## 4 – التعريف بالتراث الدوري:

إنّ المكتبة الوطنيّة لا تقتصر على جمع التراث وحفظه ولكن من وظائفها أيضا أنّها تسعى للتعريف به على الصعيدين الوطني والدولي. ولأداء هذه المهمة فإنّها تستخدم أساليب مختلفة أولها التعريف به لدى روادها من القراء والمستفيدين وذلك بمناولته لهم مباشرة في قاعات المطالعة ... وبناء على ذلك استقبلت قاعة المطالعة للدوريات في المكتبة الوطنية سنة 2005 حوالي 2514 قارئا بين ذكور وإناث وناولت 6520 مجلدا بين عربي وفرنسي.

أمّا الأساليب الأخرى التي تلجأ إليها المكتبة في التعريف بهذا التراث الدوري فتتمثّل بالخصوص في إعداد البيليوغرافيات الدورية في المكتبة الوطنية يتم أساسا بواسطة الترقيم الدولي الموحد للدوريات«ISSN» إذ أنّ المكتبة الوطنية

تأوي المركز الوطني للرقم الدولي الموحد للدوريات منذ سنة 1976. وهو مركز مرتبط ارتباطا عضويا بالمركز الدولي الذي مقره باريس ومن مهّامه إسناد أرقام لعناوين الدوريات الجارية منها والمتوقفة ويشكل الرقم المسند لكل عنوان بطاقة هوية تمكن الباحثين من الحصول على معلومات ببليوغرافية ضافية عنه، كأن يعرفوا بواسطته مثلا عنوان الدورية ودوريتها ومكان صدورها وتاريخه وموضوعها إلخ...

إنّ تراثنا الدوري المحفوظ بالمكتبة الوطنية يعد ولا شك ثروة مازلنا لم نقف بعد على تفاصيلها. ولعل النقلة النوعية التي تشهدها المكتبة الوطنية بعد استقرارها في مقراتها الجديدة قد تمكن في مستقبل الأيام من التعرّف أكثر على هذا التراث وعلى الوسائل الكفيلة بإحكام حفظه وصيانته والتعريف به.

## الهوامش والاحالات

1) Le dépôt légal: in Documentation et bibliothèque. Avril - Juin 1993.

2) دليل الدوريات الصادرة بالبلاد التونسية من سنة 1838 إلى 1956 - بيت الحكمة 1989.

3) Digitalisation du patrimoine culturel. http /www. Culturelstudies. Nele Bogaert en Wouter Dusart traduit par Lucies Moers.



# توثيق التّراث المكتوب في تونس

نــــورة كـــزو

## المقـــدمـــة

إن ظهور التكنولوجيا الرقمية والحاسوب الآلي والأنترنات، فرض ثقافة موحدة وقوالب حياتية وثقافية جاهزة للاستهلاك. فبدأ اليوم يبرز الأنموذج الموحد للثقافة و للحياة بصفة عامة، مما ترتب عنه طغيان الثقافة الغربية المسيطرة وذوبان الخصوصية الثقافية للمجموعات وللشعوب. وتدعونا ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال اليوم إلى التفكير في كيفية الحفاظ على هويتنا وخصوصيتنا الثقافية والحضارية من الضياع والطمس والتشويه.

بالرغم من تفتح مجتمعنا التونسي على مختلف أوجه العطاء الفكري الإنساني ومن استيعابه للمستجدات العلمية والتكنولوجية، فهو يواجه اليوم - مثله مثل سائر بلدان العالم الثالث-تحديات تكنولوجية كبيرة وزحفا إعلاميا خطيرا من شأنه أن يهدد ذاتيته الثقافية.

وإزاء توحيد أنماط الإنتاج الثقافي على المستوى العالمي وتوزيعه عبر الأقمار الصناعية والشبكات الإعلامية المتطورة، فإن الاستخدام الأفضل للنظم التكنولوجية الحديثة أصبح ضروريا للتعريف بالموروث الثقافي. وفي إطار المساعي والجهود المبذولة للعناية بالتراث وإحيائه وتنميته، يبرز التوثيق كركيزة أساسية للحفاظ على ثمرات الإبداع الإنساني. فهو يمكننا من تنظيم الموروث الثقافي المكتوب والإستفادة منه، وبالتالي تيسير تناقله من جيل إلى جيل عبر الزمان و المكان بالإضافة إلى دفع حركة تفاعله و حواره مع الثقافات الأخرى.

## 1 - تعـــاريف عـامـة

### أ - التوثيق

تتأرجح جل التعريفات إلى الإشارة إلى أن التوثيق فن وعلم:

التوثيق : هو فن تيسير الإفادة من الإنتاج الفكري والمعرفة المسجلة وتنظيمها وتحليلها من خلال إجراء عمليات التجميع والإختزان والفهرسة والتصنيف والتكشيف والاستخلاص والاسترجاع والاستنساخ والبث والنشر (1).

التوثيق : هو علم تجميع مصادر المعلومات المسجلة أو الوثائق واختزانها وتنظيمها لتحقيق أقصى إفادة ممكنة منها (2).

وهناك من يرى أنه فن وعلم في نفس الوقت (3). والتوثيق قديم العهد، ارتبط ظهوره بظهور فكرة حفظ المعلومة، غير أن مصطلح التوثيق La documentation وقع استخدامه خلال مطلع القرن العشرين الميلادي وهو يهدف إلى جمع الوثائق لغرض البحث العلمي والتنظيم والتخطيط وتوفير المعلومات وإتاحتها. ويعتبر التوثيق قاعدة المعارف وركيزة التنظيم وهدف الحفظ و محور البحوث والدراسات العلمية التي تدعو إليها الرغبة

الملحة في الإطلاع على المعرفة التي تحملها الوثائق المكتوبة. غير أن مفهوم هذه الكلمة تعرض لتغيرات جوهرية نتيجة ظهور الحاسوب الآلي والوسائط الجدديدة في التسجيل مثل المواد السمعية البصرية والأقراص الضوئية، وبالتالي أصبحت كلمة وثيقة تشمل كل هذه المواد الحديثة علاوة على المواد المكتوبة.

### ب – التراث

لئن تعددت التعريفات حول مصطلح التراث في العديد من القواميس، فإن هذا المصطلح قد مر من مفهومه الأولي Original : «كل ما يرثه الإنسان من الأب والأم» إلى مفهومه الشامل في ميدان السسيولوجيا الثقافية والذي يعني «كل الممتلكات المادية وغير المادية لمجموعة ما» (4).

وتمثل مجموع المعالم والمواقع الحضارية والدينية التراث الأثري أو المادي للشعوب، في حين تمثل مجموع الممارسات والتمثلات والتعابير والمعارف والأدوات ومختلف أصناف حذق المعرفة التقليدية (savoir faire) التراث اللاّمادي للمجموعات والأفراد. وبالتالي فإن التراث بجزأيه المادي وغير المادي يكوّن التراث الثقافي.

وتجدر الملاحظة أن مفهوم التراث قد تطور وتعددت وظائفه، فأصبح يشمل ميادين مختلفة. وأصبحنا بالتالي نتحدث عن تراث سياحي وتراث عمراني وتراث بيئي وتراث بيولوجي إلى غير ذلك. وقد اهتم العديد من الباحثين في ميادين مختلفة كالتاريخ والسسيولوجيا والأنتروبولوجيا بهذا المصطلح.

ولعل أبرز تعريف قدمه بيار نورا «Pierre Nora» إذ اعتبر أن التراث هو «أحد مصطلحات الوعي التاريخي المعاصر فهو ليس الممتلكات المكونة للوعي الجماعي لمجموعة ما» (5).

### ت – التراث المكتوب

يعتبر التراث المكتوب مصدرا من مصادر معرفة تاريخ الثقافة الحضارة لشعب ما. فهو رمز التراث الثقافي. وبالإضافة إلى ذلك فهو يلعب دورا أساسيا في تنمية الوعي للمجموعات وللشعوب. لقد مكن المكتوب من الإنتقال من الحضارة الشفاهية إلى الحضارة المكتوبة. فأصبحت الوثيقة المكتوبة منتشرة بين أكبر عدد ممكن من الأفراد. وقد مكنت هذه الأخيرة من جمع وحفظ المعارف الإنسانية على دعائم مختلفة (حجارة - جلد - ورق بردي - رق - ورق مطبوع). كما نقلتها من جيل إلى جيل ومن زمن إلى آخر. ومن هنا نشأت أهمية التراث المكتوب بحيث أصبح الجسر الذي يربط بين الماضي والحاضر ويصنع المستقبل.

## 2 – أهمية توثيق التراث المكتوب

### أ – التوثيق ركيزة أساسية في حفظ التراث المكتوب

أمام ظاهرة تفجر المعلومات (أو ثورة المعلومات) وتضاعف الانتاج الفكري وأمام عجز الذاكرة الجماعية عن استيعاب ما ينتجه النشاط الفكري في مختلف المجالات كان لابد من اللجوء إلى أساليب ووسائل لجمع هذا الفيض من المعلومات وتوثيقه وخزنه وحفظه والاستفادة منه عند الحاجة. فظهرت المكتبات ثم مراكز المعلومات ووقع اعتماد تقنيات توثيقية، كانت في البداية بأسلوب بسيط - تقليدي - لم يتجاوز عملية الجمع والتصنيف ولكن ما لبثت هذه التقنيات أن تأثرت بإفرازات هذا العصر المتميز بالتطور العلمي والتكنولوجي المذهل. بحيث أصبح استخدام التكنولوجية الحديثة مثل الحواسيب الإلكترونية ووسائل الاتصال عن بعد، أمرا ضروريا. ونتيجة لذلك، تطورت عملية التوثيق وأصبح يتطلب أكثر دقة بدءا من طلب المعلومة وإعدادها إلى تقديم التحليل والاستنتاج. وهكذا أصبح التوثيق ـ حسب وظيفته الحديثة وتقنياته المتجددة ـ ركيزة أساسية في تحديد مسار التطور العلمي والاجتماي والاقتصادي والثقافي

لما يقدمه من معلومات صحيحة واستنتاجات دقيقة يساعد على فهم الواقع وربط الماضي بالحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

### ب - توثيق التراث المكتوب رهان حضاري

في ظل ثورة الاتصال والمعلومات أصبحت حضارة الصورة والتكنولوجيات الدقيقة مهيمنة. وأصبحت حضارة المكتوب مهددة بالذوبان والتلاشي. ولكن أمام تعدد مصادر المعلومات وتنوعها واختلاف لغاتها وعصورها، فإن الوثائق المكتوبة شكلت على مر السنين، ضمير الشعوب وتاريخها. فهي الذاكرة الواعية والحية والسجل الحافل لتقدم الحضارة وتطورها. وهي المصدر الأساسي لقراءة الماضي وإنجاز الحاضر واستشراف المستقبل. فالتراث المكتوب هو بمثابة الذاكرة الحية للشعوب. والإهتمام بتوثيق هذا التراث يعكس درجات التطور الحضاري للأمم والشعوب.

### 3 - لمحة تاريخية عن توثيق التراث المكتوب في تونس

تشكل المعرفة والثقافة إرثا مشتركا للإنسانية بفضل مصادره المتعددة. وبالرغم من تنوع هذه المصادر وتباين عصورها واختلاف لغاتها، فهي عامل فعال في خدمة الحضارة الإنسانية وعنصرا مهما للسيادة والذاتية الوطنية. وتمثل الوثائق المكتوبة مصدرا مهما للمعلومات المدونة وشهادة على أعمال وإنجازات البلدان وسندا للأنشطة العلمية والأدبية والفنية. فهي الدعامة الأساسية لكل بحث أكاديمي في شتى ضروب المعرفة الإنسانية. ففي ظل غياب الوثائق تصبح كتابة التاريخ تفتقد للكثير من الحقائق.

ويعتبر الحفظ المستمر للوثائق المختلفة شرطا ضروريّا لضمان التسيير السليم للمؤسسات الحكومية المعنية، إذ يمكنها من أن تحتفظ باستمرارية السياسة التي تتبعها ومن الاستفادة من تجربة الماضي وتعينها على أخذ القرارات والتخطيط للفترات المستقبلية. كما تؤدي عملية حفظ الوثائق إلى تكوين تراث وطني يسهل البحث العلمي ويساعد عند الاقتضاء على إثبات حقوق الأشخاص وكذلك المجموعات.

وقد اعتنت البلاد التونسية منذ حقب عديدة بحفظ مخزونها الوثائقي المكتوب الذي شكل بتراكمه مكنزا ثمينا. ويبرز هذا الاهتمام في العناية بالمؤسسات الأرشيفية الوطنية من ناحية وفي إحداث المكتبات من ناحية أخرى.

## I - الأرشيف الوطني

ترتبط كلمة «أرشيف» في ذهن الإنسان العادي في كثير من الأحيان ارتباطا مألوفا «بالوثيقة الميتة». ولذلك فهي تعتبر عديمة أو قليلة القيمة (6). في حين أن الأرشيف يلعب دورا حيويا في المجتمعات المعاصرة. فهو يشكل مصدرا وطنيا لا غنى عنه في البحوث المتعلقة بأعمال الحكومة. ولضمان الفعالية الإدارية، لا بد من إحكام تنظيم و حفظ الوثائق. وتعد تونس من البلدان السبّاقة في ميدان تنظيم الوثائق الإدارية (أو الأرشيف) بالنسبة إلى البلدان العربية (بعد مصر). وقد حصل ذلك قبل انتصاب الحماية الفرنسية بتونس.

### 1 - منذ القرن التاسع عشر (النصف الثاني)

عرفت هذه الفترة باتخاذ تونس للعديد من الاصلاحات الهامة والعميقة التي شملت التنظيم السياسي (عهد الأمان سنة 1857 ودستور 1861) والتنظيم الإداري (ضبط مهام الوزارات وطرق تنظيمها سنة 1860). وفي إطار هذه الإصلاحات تم الاهتمام بالوثائق حيث وقع إحداث هيكل بالوزارة الكبرى «بدار الباي» بالقصبة. وقد اهتم هذا الهيكل بنقل وثائق الدولة من قصر باردو ومن مختلف مصالح الدولة وكبار مسؤوليها. كما قام بالجرد الكامل لها ثم تنظيمها طبقا لطرق فنية مقننة.

## 2 - في عهد الحماية الفرنسية (1881-1956)

خلال هذه الفترة وقع تنظيم وثائق الإدارة التونسية حسب التنظيم الجاري به العمل بمكاتب ضبط الوزارة الفرنسية للشؤون الخارجية وإيداعها بمكاتب الأرشيف التي أنشئت بكل إدارة. ثم وقع نقل هذه الوثائق إلى مؤسسة الأرشيف القومي للحكومة التونسية بغاية الحفظ النهائي، في حين وقع تحويل الوثائق الصادرة عن مصالح الحكومة الفرنسية بتونس إلى فرنسا.

## 3 - في عهد الإستقلال

منذ إستقلال تونس سنة 1956 وتركيز الإدارة التونسية الجديدة وخروج الإطارات العليا الفرنسية، لم يتواصل الاهتمام بتنظيم وحفظ الأرشيف. لكن عندما أصبح من العسير الاستفادة من الوثائق المتراكمة على مر العقود، تم التفكير في ضرورة تنظيم وحفظ الوثائق.

**وضع برنامج للتصرف في الوثائق العمومية :**

لقد تكونت لجنة وطنية خلال سنة 1988 لدراسة الموضوع وتقديم جدول لحفظ الوثائق. وقد احتوى هذا الجدول على ثلاثة محاور (7) :

- إصدار النصوص القانونية والترتيبية.
- التنظيم الإداري للأرشيف.
- بناء مقر عام للأرشيف الوطني.

لقد مكن التشريع التونسي في مجال الأرشيف (8) من سن نظام عام للأرشيف الوطني ومن وضع برنامج للتصرف في الوثائق العمومية. كما حث مختلف الوزارات والهياكل العمومية للاهتمام بوثائقها إلى جانب حثها على إحداث مصالح خاصة بنظام التصرف في الوثائق. بالاضافة إلى تركيز مجلس أعلى للأرشيف. وهو عبارة عن هيكل استشاري برئاسة السيد الوزير الأول ويضم حوالي عشرة وزراء. آراء هذا المجلس هي بمثابة قرارات حكومية.

- ***الخطة الإستعجالية لتطهير الوثائق الإدارية*** تم سنة 1993 اعتماد خطة استعجالية لتطهير وضع الوثائق الإدارية. وقد أقر المجلس الوزاري بتاريخ 26 فيفري 1993 الذي تم فيه اعتماد الخطة الإستعجالية - خطة أخرى متوسطة المدى تتعلق ببرنامج التصرف في الوثائق الإدارية. وقد تم تصور نظام في التصرف في الوثائق الإدارية على أساس الهدف الشامل للتأهيل والتحكم في الجودة داخل المصالح العمومية. هذا النظام بدأ سنة 1996 لينتهي سنة 2001 و2002 بالنسبة لبعض الإدارات.

ولوضع هذه الخطة حيز التنفيذ وقع اتخاذ عدة إجراءات أولية ضرورية كتوفير أطر للإشراف وللمتابعة على مستوى الوزارة الأولى وأطر لانجاز وإعداد برنامج التصرف في الوثائق. كما تم اتخاذ عدة إجراءات أخرى بصفة تدريجية تتعلق خاصة بالتنظيم والموارد البشرية والمحلات والمعدات. وقد احتوى برنامج التصرف في الوثائق على العناصر التالية :

- **إعداد قائمة إسمية للوثائق الجارية Nomenclature** عن طريق الجرد بغاية إنشاء فهرس شامل لكل أنواع الوثائق.

- **إعداد جدول استبقاء الوثائق** : مكن هذا الجدول من حصر الوثائق والتعرف على نوعيتها وتركيبتها مما سهل إعداد جداول مدد استبقائها ونظم تصنيفها. وتمثل جداول مدد استبقاء الوثائق أساس نظام التصرف في الوثائق. فهو يمكّن من تحديد المصير النهائي للوثائق بحيث يتم تحويلها عند انتهاء الأعمال الضرورية بها إلى مصالح التصرف في الوثائق والأرشيف. وعند انتهاء مدة الحفظ الانتقالي تتولى هذه المصالح تحويلها لمؤسسة الأرشيف الوطني وتتمثّل مهمة الأرشيف الوطني في الإشراف الفني على عملية حفظ الوثائق التي أعدت للحفظ الدائم وينظم اطلاع العموم عليها بوصفها جزءا من التراث الوطني ومصدرا للبحث العلمي.

- **تصنيف الوثائق** : يتمثل تصنيف الوثائق في إسناد رموز لكل نوع من الوثائق الجارية التي تم جردها لتحقيق الأهداف التالية :

- التعرف على الوثائق عند استعمالها بسرعة.

- وضع الوثائق في حافظات لصيانتها و حفظها.

- توحيد طرق التصنيف لدى كافة المرافق العمومية.

وتجدر الملاحظة أن النظام الذي توخته تونس للتصرف في الوثائق أخذا بعين الاعتبار خصوصية الإدارة التونسية بالرغم من اعتماده على المقاييس العالمية وعلى أحدث الأساليب التكنولوجية المستعملة في هذا الميدان. كما تم بناء مقر جديد لمؤسسة الأرشيف الوطني (وهي خاضعة لإشراف الوزارة الأولى) منذ سنة 1999. ويحتوي الأرشيف الوطني حاليا على أرصدة تتعلق بتاريخ تونس منذ أواخر القرن السابع عشر إلى الفترة الحالية. وتتركب الأرصدة من أربع مجموعات كبرى :

- الوثائق المتعلقة بالفترة العثمانية.
- الوثائق المتعلقة بفترة الحماية.
- الوثائق المتعلقة بفترة الإستقلال.
- الأرصدة التوثيقية.

## II - أهم المكتبات بالبلاد التونسية

يعتبر الكتاب مصدرا هاما ووعاء بارزا للمعلومات وللمعارف. في البداية مثل الكتاب المخطوط نقطة تحول هامة في الحضارة الكتابية. ثم سجل الكتاب المطبوع على الورق ثورة هامة أحدثها اكتشاف غتمبرفGutenberg في القرن الخامس عشر لتقنيات الطباعة. فكانت الطباعة عاملا رئيسيا في تطور الاحساس بالخصوصية الشخصية التي تعدّ من علامات المجتمع الحديث.

من المؤكد أن الكتاب المطبوع لعب دورا هاما في التعريف بإسهامات الحضارات المختلفة، إذ ثبتت إبداعات الإنسانية في صيغة نصوص مكتوبة شكلت ذاكرة الشعوب. كما مثل الكتاب المطبوع أهم أداة لتقاسم المعارف ووسيلة مثلى للحفاظ على التنوع والإختلاف. ومثلما أنتجت الطباعة كتبا أصغر وأخف حملا من المخطوطات، فقد أحدثت التطورات التكنولوجية الحديثة في ميدان الإعلام والمعلومات ثورة في طباعة الوثائق ونشر المعارف. وقد أدى هذا التطور إلى الانتقال وبسرعة من استخدام المواد الورقية كالكتب والصحف والمجلات والوثائق إلى استخدام المواد اللاّورقية التي تحمل المعلومات المرغوبة على أجهزة الكترونية متعددة الوسائط (الوسائط الممغنطة مثل الأقراص أو المصغرات الفيلمية). وقد شكلت المكتبة أهم فضاء ثقافي معرفي وإعلامي لحفظ وتوثيق ونشر الإنتاج الفكري للشعوب مثل الكتاب (بمختلف أوعيته) أفضل أداة عرفها الإنسان لتقاسم المعارف وأنجع وسيلة للحفاظ على إسهامات الحضارات وصيانة الذاكرة المكتوبة وتنميتها.

### 1 - خلال فترة الولاّة

كانت الكتب في بداية الفتح الإسلامي لإفريقية قليلة وقليلة جدّا ما عدا المصاحف «إذ كان العصر عصر فتح وعصر جمع اللغة وإحصاء كلام العرب من الشعر والنثر والشروع في نقل علوم الأوائل من لغاتها الأصلية إلى العربية» (9). ثم وقع الإهتمام بنسخ وجمع الكتب والتشجيع على ترجمة التراث الأجنبي مما مكن من التحول من المرحلة الشفاهية إلى المرحلة الكتابية.

### 2 - في العهد الأغلبي

كانت توجد في إحدى قاعات القصر الأبيض بالعباسية (تبعد حوالي خمسة كيلومتر ونصف جنوب مدينة القيروان) مكتبة. وقد تم نقل هذه المكتبة من العباسية إلى رقادة التي أنشأها إبراهيم الثاني سنة 264 هجري. كما أنشأ أيضا إبراهيم الثاني برقادة «بيت الحكمة» ووشحها بنفائس الكتب الفنية - الأصلية

والمترجمة – وبآلات الرصد الفلكي وغيرها. وكان يريد أن يباهي برقادة: «سامراء» بالراق و«الفسطاط» بمصر.

وتعتبر بيت الحكمة بالقيروان بمثابة أول جامعة إفريقية للعلم والترجمة. ويذكر لنا حسن حسني عبد الوهاب «أنها كانت تتركب من مجالس (قاعات فسيحة) ومن المقدر أن عددها أربع أو خمس متصل بعضها ببعض، وفي إحداها مكتبة منضدة في خزائن من خشب، كل خزانة منها تحتوي على عدد من الكتب المختارة المنسوخة على الرق أو الكاغط. أما موضوعات المجلدات فهي تتعلق بسائر العلوم الدينية الإسلامية وغير الدينية. كما تشتمل على المصنفات المترجمة من اللغات الأعجمية (10).

كما تم في مرحلة لاحقة إنشاء مكتبة الجامع الأعظم الذي كان قد بناه عقبة ابن نافع. وقد أطلق على هذه المكتبة اسم المكتبة العتيقة. وقد ضمت مخطوطات ثمينة (11).

## 3 – في العهد الحفصي

كانت تونس خلال هذه الفترة مركزا ثقافيا هاما بفضل جامع الزيتونة الذي توارد عليه الدارسون من جل أقطار بلاد المغرب والأندلس. وإن لم يهتم الحفصيون بتأسيس مكتبات بجامع الزيتونة، فقد فكروا في مكتبات خاصة بهم، من ذلك أن أبا زكريا الحفصي أحدث مكتبة بالقصر، احتوت على ثلاثين ألف مجلد. ولم تؤسس المكتبات بالجامع الأعظم إلا في عهد أبي فارس عبد العزيز الذي أخرج خزانة القصر المشتملة على أمهات الكتب في العلوم المختلفة، وبنى لها مقصورة بالجامع الأعظم. ثم أخرج أبو عمرو عثمان كتب قصره النادرة ووضعها بالمقصورة ووقفها على طلبة العلم يستفيدون منها.

ثم اقتفى أثره أبو عبد الله محمد ابن الحسن بن مسعود بن عثمان، فأسس في المكان نفسه المكتبة العبدلية بالرواق الشرقي من جامع الزيتونة – قبالة سوق الفكة – (12). وقد انتقلت مخطوطات هذه المكتبة – فيما بعد – إلى دار الكتب الوطنية. ولنا أن نشير إلى إنشاء الحفصيين العديد من المدارس العلمية والمكتبات نذكر منها مكتبة جامع محرز بن خلف ومكتبة القصبة ومكتبة عبد الله التيجاني (مؤلف الرحلة) والتي احتوت على مخطوطات نادرة (13).

## 4 – في العهد الحسيني

* المكتبة الأحمدية: كان اهتمام أحمد باي بالمعرفة كبيرا حيث أسس دراسة العلم بجامع الزيتونة وخصص عشرين خزانة احتوت كتبا ذات قيمة تاريخية كبيرة وضم إليها مخطوطات خزانة بيت الباشا بباردو إضافة إلى ما اشتراه من كتب الوزير مصطفى خزنة دار وكتب بعض الأعيان والوزراء، وقد احتوت المكتبة الأحمدية قرابة سبعة آلاف عنوان (مخطوطات – مطبوعات).

* المكتبة العبدلية – الصادقية: أسس محمد الصادق باي مكتبة في نفس المكان الذي كانت به المكتبة العبدلية. وسميت هذه المكتبة بالمكتبة الصادقية بمقتضى أمر بتاريخ 19 ماي 1875 وقد اهتم الوزير خير الدين بإثراء رصيد مكتبته الخاصة (قرابة الألف مخطوط).



## 5 – في عهد الحماية

* المكتبة الفرنسية: إثر الإحتلال الفرنسي لتونس(1881)، تكونت «المكتبة الفرنسية لتيسير المعرفة للأجانب وطلاب التعليم العالي من الرعايا التونسيين» وذلك بموافقة علي باشا باي سنة 1885. وكان مقرها بنهج الجزيرة. أما رصيدها فقد اشتمل على كتب فرنسية فقط.

وفي سنة 1891، أصبحت هذه المكتبة تابعة لمصلحة التعليم. وعرفت بمكتبة مبعوث التعليم العمومي بتونس. وتم نقل مقرها إلى نهج روسيا. ثم نقل سنة 1940 إلى 20 سوق العطارين بتونس (في قلب المدينة العتيقة). وقد كان هذا المقر ثكنة عسكرية تركية تم تأسيسها سنة 1813 في عهد حمودة باشا بهبة من أموال الوزير يوسف صاحب الطابع.

* المكتبة الخلدونية: تأسست سنة 1900 أي بعد بضع سنوات من تأسيس الجمعية الخلدونية (1896). وهي في

البداية لم تكن سوى مكتبة مدرسية لما احتوته من كتب مدرسية ثم ساهم نخبة من أعضاء مجلس الجمعية على تنمية رصيدها بإضافة عدد هام من الكتب العربية والفرنسية في اللغة والآداب والفنون. كان مقرها بقاعة من قاعات المدرسة العصفورية (مقر الجمعية منذ سنة 1900) التي وضعتها إدارة التعليم والمعارف على ذمة الجمعية. ثم تم تحويلها سنة 1927 إلى قاعة المحاضرات الكبيرة المجاورة للمدرسة. وقد خصص قسم منها للمؤلفات التونسية المطبوعة والمخطوطة وقسم آخر للدوريات باللغتين العربية والفرنسية. وبعد حل الجمعية الخلدونية سنة 1958 ألحقت مكتبتها بمصلحة المكتبات العمومية التابعة لوزارة الثقافة ونقلت مخطوطاتها النفيسة إلى دار الكتب الوطنية (14). مع العلم أنه تم - في المرحلة الأخيرة - بعث مكتبات عامة في المدارس، غير أن أغلب رصيدها قد أتلف. فيما وقع ضم الباقي إلى رصيد المكتبة الوطنية. كما كانت هناك عديد المكتبات الخاصة التي أنشأها رجال العلم والأدب في مدن البلاد التونسية كتونس العاصمة والقيروان وجربة وصفاقس وسوسة والمنستير.

## 6 - في عهد الاستقلال

تميزت هذه الفترة بإعادة بناء الذات التونسية، حيث كان التعليم أول رهان لتونس المستقلة. فتأسست كتابة الدولة للتربية القومية سنة 1957 التي تولت سنة 1959 إنشاء المكتبات العامة بمختلف ولايات الجمهورية، نذكر منها المكتبة العامة بالقيروان والمكتبة العامة بالمهدية سنة 1959 والمكتبة العامة بنابل أواخر سنة 1961.

عندما تم تأسيس كتابة الدولة للشؤون الثقافية سنة 1962، أصبحت المكتبات العامة راجعة بالنظر إليها. وانتشرت منذ ذلك الحين المكتبات في مختلف ولايات الجمهورية. وتأسست منذ أواخر سنة 1962 إدارة المكتبات العامة بتونس. كان مقرها بنهج يوغسلافيا وهي حاليا بنهج صدربعل. وتم إنشاء قسم للمكتبات بكتابة الدولة في جوان 1963 التي اعتمدت التخطيط لإنشاء المكتبات العامة وإرساء شبكة من المكتبات العمومية. ومنذ تلك الفترة تنامى عدد المكتبات.

كان عدد المكتبات العامة سنة 1962: 9 ليصبح سنة 2005: 366 (قارة ومتجولة) وتطوّر رصيدها من 1849318 سنة 1962 ليصبح 3847737 عنوانا (15).

أما بخصوص «المكتبة الشعبية» أو مكتبة العطارين، فقد أصبحت تسمى منذ سنة 1956 «المكتبة الوطنية» ثم دار الكتب الوطنية. وقد تطور رصيدها من: 16396 عنوان سنة 1910 إلى 200 ألف عنوان خلال سنة 1930 ليصبح سنة 1956 (240 ألف كتاب) منها 33 ألف كتاب عربي والبقية 207 ألف كتاب بلغات أجنبية وخاصة باللغة الفرنسية. وفي سنة 1967 تم بمقتضى أمر رئاسي تجميع المخطوطات الموقوفة على المكتبات والمساجد والمعالم التابعة لها. ويعد الإيداع القانوني أحد العناصر الفاعلة في تنمية رصيد دار الكتب الوطنية والمصدر المهم في جمع الوثائق وفي الحصر البيبليوغرافي للانتاج الفكري الوطني. وقد اختصت به المكتبة الوطنية دون غيرها. وهو عبارة عن تشريع يتم بمقتضاه تسليم الادارة وبدون مقابل وبصفة إجبارية ونهائية عددا معينا من النظائر من كل وثيقة ذات صلة بالانتاج المنجز بالبلاد التونسية سواء أكان هذا الانتاج في شكل مطبوع أو مصور أو مسجل. وقد خصها المشرع التونسي بامتياز «أربعة نظائر» بالمقارنة مع المؤسسات الأخرى (16).

وقد تم بناء مقر جديد لدار الكتب الوطنية سنة 2005 حسب المواصفات العالمية المتطورة. وتحتوي المكتبة الوطنية الجديدة على مخابر عصرية لمعالجة الأرصدة وحفظها وعلى تقنيات حديثة لاستيعاب المعلومة ونشرها ولصيانة المخزون التراثي التونسي المكتوب وتنميته. وهكذا أصبحت للمكتبة الوطنية صبغة علمية وفنية متطورة مما أثرى مهامها ووظائفها. ويعد رصيد دار الكتب الوطنية حاليا 40.000 عنوان مخطوط، 2.000000 كتاب، 15000 دورية، حوالي 5000 خريطة (16).

## الخاتمة

أصبح ظهور وانتشار الوسائط الألكترونية وتقنيات المصغرات الفيلمية أو المغنطسة تهيمن اليوم على النظام الورقي التقليدي كوسيط لخزن واسترجاع المعلومات، بحيث أصبح توثيق التراث المكتوب بصفة ألكترونية يتم من خلال تخزين الوثائق الورقية. وهكذا تسجل الوسائل المعرفية الجديدة أسبقيتها على الكتاب، وتسجل المكتبة الألكترونية (الافتراضية) بواسائطها المتعددة أولويتها على المكتبة التقليدية.

فكيف السبيل للحفاظ على الموروث المكتوب والمتراكم عبر الحقب والسنين في ظل هيمنة الثقافة الأحادية وتنميط ثقافات الشعوب ومحو خصوصياتها؟

بالرغم من تقبلنا للتكنولوجيا المعلوماتية الجديدة باعتبار أنّها خطوة عملاقة في درب المعرفة الانسانية، إلاّ أنّنا نعتقد أنّ الوثائق المكتوبة تبقى أساس المعرفة. فهي الوعاء الحاوي والحافظ للموروث الإنساني. كما يبقى المكتوب الوسيلة الأساسية لتسجيل الخبرات والمعارف الإنسانية في إطاره التاريخي. فالميزة الأساسية للمكتوب بصورة عامة تكمن في القدرة على المحافظة على الانجازات الإنسانية المتعاقبة والاستفادة منها عند الضرورة بحيث يصبح الماضي عماد الحاضر وركيزة المستقبل. وقد تبين أنّ التراث الوثائقي لمختلف الشعوب لا يحظى بظروف حفظ مناسبة وملائمة. ويتطلب حلولا عاجلة على مستوى دولي. فقد أحدثت منظمة اليونسكو سنة 1992 برنامج «ذاكرة العالم» من أجل المحافظة على الكتب والوثائق (بمختلف وسائطها) من الضياع والإتلاف. وهو عبارة عن ذاكرة جماعية لشعوب العالم. ويلعب دورا هاما في الحفاظ على الخصوصيات الثقافية. ويحتل التراث الوثائقي الموجود داخل المكتبات ومؤسّسات الأرشيف مكانة هامة في برنامج التراث الثقافي العالي. وتعد تونس من بين البلدان المشاركة في هذا البرنامج.

نعتقد أن إحداث فضاءات متحفية يمكّن من الحفاظ أيضا على ذاكرة المكتوب باعتبار أنّه وسيلة هامة لإعادة إحياء الماضي والتذكير به وكذلك مزيد التعمق في الحاضر من أجل استشراف المستقبل. لذا فإنّ إحداث متحف للتراث المكتوب بتونس، أصبح أمرا ملحّا. ويكمن الغرض الأساسي لذلك في الحفاظ على ذاكرة المكتوب في تونس من خلال إحياء مسيرته الطويلة عبر مختلف الحقب التاريخية الثرية.



## الهوامش والاحالات

1) محمد حمدي، «توثيق المعلومات الصحفية على الصعيد العربي في ضوء التكنولوجيات الحديثة للاتصال»، ص.102، ضمن كتاب الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس المنظمة، 1991.

2) محمد فتحي عبد الهادي، مقدمة في علم المعلومات، القاهرة، دار غريب للطباعة، (د.ت)، ص. 57-58.

3) ROELLANTS-ABRAHAM (J)، Bibliothécomie، Bruxelles، Presses universitaires de Bruxelles 1980 - ،81،p.2.

4) DAGHFOUS Radhi، « Le patrimoine archéologique et historique tunisien et le développement : définitions، caractéristiques et devenir»، Les cahiers de Tunisie، n° 184 2003 ، p. 11.

5) NORA Pierre، Science et conscience du patrimoine، Paris، Fayard، 1997.

6) علي الفتاحي، «تنظيم الأرشيف واستحضار المعلومات»، مجلة رصيد، تونس، الجمعية التونسية للموثقين، تونس، العدد 5-6 جوان 1968 .

7) FAKHFAKH Moncef، «le développement des Archives en TUnisie»، Correspondances، n° 74، Mars-Mai 2003، p 3-4

8) قانون عدد 95 لسنة 1988 مؤرخ في 2 أوت يتعلق بالأرشيف .

أمر عدد 1881 المؤرخ في 13 ديسمبر 1988 يتعلق بضبط شروط وتراتيب التصرف في الأرشيف الجاري والأرشيف الوسيط وفرز واتلاف الأرشيق والاطلاع على الأرشيف العام .

أمر عدد 1451 لسنة 1993 مؤرخ في 5 جويلية 1993 يتعلق بالمسؤولية في مجال التصرف والحفظ بالنسبة للوثائق الادارية .

أمر عدد 1618 لسنة 1994 مؤرخ في 26 جويلية 1994 يتعلق بضبط تركيبة المجلس الأعلى للأرشيف وطريقة تسييره .

أمر عدد 389 لسنة 1997 مؤرخ في 21 فيفري 1997 يتعلق بتنظيم وتسيير الأرشيف الوطني .

أمر عدد 2548 لسنة 1998 مؤرخ في 28 ديسمبر 1998 يتعلق بتنقيح الأمر عدد 1988 المؤرخ في 13 ديسمبر 1988 المتعلق بضبط شروط وتراتيب التصرف في الأرشيف الوسيط وفرز واتلاف الأرشيف والاطلاع على الأرشيف العام .

منشور عدد 30 بتاريخ 18 جوان 1991 حول تركيز مصالح للأرشيف وتطبيق برنامج التصرف في الوثائق .

منشور عدد 23 بتاريخ 18 أفريل 2001 حول موضوع تحويل الوثائق العمومية وترحيلها أو اتلافها .

9) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بافريقية، تونس، مكتبة المنار، 1964، ص. 326.



10) نفس المصدر، ص. 194 - 195 .

11) الشاذلي الساكر، «الكتاب في تونس من البدايات إلى الاستقلال»، الحياة الثقافية، تونس، عدد 147، سبتمبر 2003، ص. 21 - 22.

12) الطاهر المعموري، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي و التركي، تونس الدار العربية للكتاب، 1980، ص. 52 - 53.

13) CHENNOUFI Moncef، Le problème des origines de l'imprimerie et de la presse arabe en Tunisie dans sa relation avec la renaissance «Nahda» 1887 - 1847، Université de Lille III، Thèse de doctorat d'état، 1974. p368 - 367.

14) حمادي الساحلي، «الجمعية الخلدونية نشأتها وتطورها(1896 - 1958)»، مجلة معالم ومواقع، تونس، الجمعية التونسية للمعالم والمواقع عدد 3 - 4، نوفمبر 1997 - مارس 1998، ص. 14 - 15 .

15) انظر مجلة الصحافة الصادرة في 28 أفريل 1975 والأمر المطبق لها الصادر في 8 جوان 1988 والفصل الثامن المنقح بتاريخ 2 أوت 1988 .

16) وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، خمسة عقود من العمل الثقافي 1956 - 2006، تونس، الوزارة، 2006، ص. 64 - 66.

17) نفس المرجع، ص. 240.

# المكتبات الخاصّة المتاحة للعموم بتونس : حلقة معرفية مفقودة

آمنة المدانـــي

إنّ المتعارف عليه أنّ مسألة الحفاظ على التراث اللامادي قد أوكل إلى بعض المؤسسات العمومية كالأرشيف الوطني والمكتبة الوطنية لتوفير ظروف حفظ ملائمة للوثيقة أيّا كان نوعها، مع إمكانيّة الإتاحة عند الطلب لخدمة أهداف تاريخية وعلمية.

لكنّ ما يخرج على القاعدة هو أن نجد مؤسسات خاصة تبنت مسؤولية المحافظة على التراث المخطوط والمطبوع على حسابها الخاص وتضعه على ذمة البحث العلمي. وهو ما سنحاول طرحه في هذا المقال لأنها مسألة طالما غيبت على الساحة المعرفية والبحوث الجامعية إلاّ ما ندر، كما نجد مبررا للحديث عنها في إطار ما تشهده الحركة الفكرية العالمية من ديناميكية وتجدد باستمرار، تزامنا مع ظهور شبكات حديثة للإتصال وتقنيات البث كالأنترنات وما تبسطه من إيديولوجيا غزو ثقافي للشعوب الأقلّ تقدما والمهيمن عليها معرفيا رغم ما تملكه من رصيد معرفي ضخم يمكن لمس آثاره في المكتبات الخاصة .

ومثلما تعرّف المؤسسات العمومية، يتعرض ابو بكر الهوش في كتابه «حول الكتاب والمكتبات» إلى مفهوم المكتبات الخاصة فيقول:« بأنها مجموعة من الكتب يمتلكها فرد لاستعماله الخاص في مسكنه الخاص، وقد يكون جمعها بالشراء ككتب جديدة اشتراها من محل بيع الكتب أو قد يكون اشتراها ككتب مستعملة، أو ورثها أو إستهداها من غيره أو استعارها ولم يردها» (1).

يقدم لنا هذا التعريف صنفين للمكتبات الخاصة :

فالصنف الأول يتمثل في المكتبات الموروثة والتي تعود إلى عائلات ينتمي أسلافها بصورة أو بأخرى إلى أسر علمية عريقة اشتغلوا بالتدريس أو بالإفتاء أو القضاء أو اعتنى أفرادها بجمع الكتب وكلّ ما ندر منها وقاموا بتوريثها إلى من لحقهم من الأبناء والأحفاد أو وقع بيعها فاقتنيت ممن يهتمّ بالكتاب والمكتبات.

وأمّا الصنف الثاني فهو المكتبات المهنية وهي على ملك باحثين وعلماء وأدباء معاصرين ربما كان اختصاصهم العلمي هو الدافع الأساسي لتكوين رصيدهم الضخم من الكتب الخاصة.

ماجمع بين الصنفين هو صفة الخصوصية التي يكتسيها كلّ منهما مما يخرج المكتبات الخاصة عن نطاق الإفادة العامة، بل هي تتعارض فعلا مع مفهوم الإتاحة لغير المالك.

لهذا سنحاول في هذا المقال طرح مسألة المكتبات الخاصة ليس لغاية إبراز أهميتها المعرفية والحضارية فحسب وإنما سنتعرض إليها كمسألة مسكوت عنها، وربما وقع

تجاهلها لأنّ الحديث عنها يعني الحديث عن أنفسنا من جديد وعن نظرتنا لموروثنا ومدى مصالحتنا معه. ولذلك سأحاول تسليط الضوء وأساهم في التعريف بما تزخر به البلاد التونسية من تراث معرفي وأن أعرف قدر المستطاع برجال خدموا العلم وكرسوا أنفسهم للمحافظة على التراث الوطني ووضعوا أرصدتهم لفائدة البحث العلمي.

كما تكمن أهميّة هذا البحث لا في جانبه النظري فحسب، بما فيه من معطيات تاريخية حول المكتبات الخاصة، وإنما أساسا في جانبه الميداني، حيث قمنا بعمل كشفي ارتأينا من ورائه جمع أكثر ما يمكن من معلومات حول المكتبات الخاصة المتاحة للعموم في تونس بأشكال مختلفة والتي سنفصل القول فيها فيما سيأتي من هذا المقال.

لكن قبل ذلك سنحاول الاستدلال تاريخيا على أهميّة المكتبات الخاصة، ومنها سنبرز دورها كمؤسسات فكرية لاقت العناية والاهتمام لما لها من مكاسب ثقافية وتربويّة.

## 1 - تاريخ المكتبات الخاصة

لقد ارتبط ظهور المكتبات الخاصة منذ أقدم العصور بمدى تقدّم الحضارات وتطور المنظومة الفكرية بها، إذ أنّ الاهتمام بالكتاب والمكتبات أمر ضارب في التاريخ وعلى أساسه يقاس المستوى المعرفي ومدى ارتقاء أصحاب العلم على العامّة من الناس، ودون التعمق في التأريخ فإننا سنقتصر على الإشارة إلى تاريخ المكتبات الخاصة في العهد الإسلامي ثمّ في البلاد التونسية.

### أ - المكتبات الخاصة في العهد الإسلامي

ازدهرت بظهور الإسلام حركة الترجمة والنقل والتأليف، وذاع بين الناس جمع الكتب واقتناؤها والعناية بها خاصة بعد انتشار الورق ورخص ثمنه نتيجة لانخفاض أسعار المواد التي يصنع منها، ورخص أجور النسخ والتجليد.

كما حرص الخلفاء والوزراء والأمراء على اقتناء مجموعات ضخمة من الكتب والمخطوطات من أموالهم الخاصة. وكان يسمح للباحثين والعلماء والأصدقاء بالإطلاع عليها، فقفا أثرهم رجال العلم والأدب الذين لم يكونوا أقل شأنا من الخلفاء والوزراء الذين كوّنوا مكتباتهم سواء بالشراء أو بالاستنساخ (2).

ومن أشهر الأقاليم التي تحتوي على مكتبات خاصة هو إقليم الأندلس الذي كان أهله يسرفون في اقتناء الكتب ويتفننون في تجليدها وزخرفتها إلى أن أصبحت مظهرا من مظاهر الترف والثراء أكثر منها مظهرا من مظاهر العلوم و المعرفة. ولم تكن المكتبات الخاصة في الأندلس حكرا على الرجال، بل امتدت لتشمل النساء اللاتي اهتممن بالعلم والأدب وجمع الكتب، و نذكر منهن بقرطبة، عائشة بنت أحمد بن محمد بن قاسم (3).

كما عرف العالم العربي نهضة فكرية عظيمة نتيجة لما خلفه العرب من تراث فكري امتلأت به مكتبات القيروان والمغرب الأقصى وبغداد ودمشق والقاهرة وحلب وقرطبة وإشبيلية وغرناطة، ولكن لم يسلم هذا التراث من عاديات الدهر فأتلف أو أحرق أو نهب أو ضاع ولم يبق للعرب اليوم منه إلاّ ما قلّ وندر، بعضه في مكتبات العرب وكثير منه في مكتبات الغرب (4).

### ب - التقاليد المكتبية في تونس

لقد اهتمّ العلماء والأدباء في تونس، كغيرهم في البلاد الإسلامية بجمع كل ما هو نفيس من الكتب والنادر من المخطوطات، وكونوا خزائن تحتوي على رصيد ثمين بمكتباتهم الخاصة. ودون الغوص في التاريخ القديم يمكن أن نرجع تاريخ تكوين المكتبات الخاصة في تونس إلى العهد الإسلامي بالقيروان والمهدية، إذ كان للأغالبة والفاطميين اهتمام بالعلم والعلماء والانتاج العلمي فكانت المكتبات تنتعش كلما كانت الحياة الإقتصادية والثقافية منتعشه (5). ومع الحفصيين ( 1207-1574) شهدت التقاليد المكتبية قفزة كميّة، فقد أنشأ مؤسس الدولة الحفصية أبو زكرياء يحيى (1209 - 1249) في قصره بالقصبة دارا للكتب جمع فيها حسب

بعض الروايات 3600 مجلد من أنفس المؤلفات (6). وأمّا في العهد الحسيني (1705) فقد اتجه حسين بن علي (1705-1740) إلى نسخ كتب الفقه، ثمّ تلاه علي باشا (1740-1756) الذي اشترى من الأستانة أكثر ما يمكن من الكتب على أن يختار أبدعها خطا وأحسنها تزويقا وأجملها تذهيبا، جعلها بمسجد الباشا بباردو، كما أسس مكتبات أخرى بدور الطلبة.

أمّا أحمد باي(1837-1855) فكان على وعي بأهميّة المكتبات في تقدم الشعوب ورقيها، فأسس المكتبة الأحمديّة بجامع الزيتونة (1840) ونقل مكتبة الأسرة الحسينية من جامع بيت الباشا إلى جامع الزيتونة واشترى كتبا كانت على ملك الوزير حسين خوجة وابراهيم الرياحي وكذلك مكتبات الخواص(7) .

من خلال هذه اللمحة التاريخية نلاحظ أنّ موضوع المكتبات الخاصة في تونس ليس حديث العهد، ومن هنا تأتي أهميته الأولى باعتباره تراثا مكتوبا أو مطبوعا، حافظ البعض من مالكيه على ماهو نادر منه بل ووضعه لفائدة طالب المعرفة.

## 2 - المكتبات الخاصة المتاحة للعموم بتونس

ضلت مسألة المكتبات الخاصة بتونس تقليدا متبعا لدى بعض العائلات ذات النفوذ المالي أو السياسي أو العلمي فعملت على تجميع المطبوعات والمخطوطات من جميع أنحاء العالم، كما اهتموا بالنسخ والتنسيق والزخرفة والتزويق والتذهيب، إذ كان لأصحاب هذه المهنة بصورة عامة مكانة اجتماعية مرموقة، كما اهتمت كذلك العامة والعلماء والأدباء والأعيان بشراء ونسخ الكتب. وحتى يضمن هؤلاء عدم سرقة أو ضياع أو إتلاف رصيدهم، اعتمدوا على تحبيس الأرصدة ليعود ريعها على المدارس والجوامع. ومع توسع دائرة المعرفة من النخبة إلى العامة وتطور المستوى التعليمي، آثر أصحاب هذه المؤسسات الخاصة أن تكون لها فائدة لخدمة العلم.

### أ - الأهميّة المعرفية للمكتبات الخاصة المتاحة للعموم

إنّ ما يدفعنا للحديث عن أهمية هذه المؤسسات الخاصة، هو هذه المفارقة التي تصدم أذهاننا كلما تأملنا في أنفسنا و في طبيعة علاقتنا بالدول المتقدمة، والمتمثلة في أنّ الشعوب الأقلّ تقدما هي التي تملك رصيدا تراثيا هاما ولكن في نفس الوقت هي من تعاني التراجع المعرفي والثقافي. فمن كان يملك المعرفة قديما هو من يفتقر لها اليوم. إذ يزخر التراب التونسي، بمكتبات ذاع سيطها وفضلها العلمي عبر عديد البلدان، لما قدمته من خدمات لفائدة طلبة العلم، وما ندر وجوده وعلت قيمته، وكان لهذه المكتبات دورها في تكوين أصحابها وورثتها، وربما من احتاج إليها. ومع التقاء حاجة أصحاب هذه المكتبات مع حاجة الباحثين، فإنها ساهمت بقسط وافر في إثراء الزاد المعرفي للقراء والمستفيدين الأجانب، مثلما وفرت ولا تزال توفر رصيدا هاما من المعلومات لأصحابها المالكين. وتعتبر مبادرات بعض الباحثين والمثقفين في إتاحة مكتباتهم للقراء هي ثمرة عمل متواصل وإرادة ثابتة للمساهمة في حركة التجديد الفكري والعلمي في البلاد.

فهذه المكتبات تحتوي على كنوز عربية إسلامية مكتوبة في كلّ المواضيع، فهي من ناحية شهادة إثبات على مرونة الفكر العربي وعلى جدارته في إتقان العلوم وكذلك وسيلة للتجذر في التراث، للتجديد المعرفي وتقديم المساهمة العلمية والثقافية حتى يتفادى الفكر العربي سياسة التغريب التي يمارسها نظام العولمة.

ورغم ثراء ما تحتويه هذه المكتبات من وثائق وإسهامها في تنشيط حركة البحث العلمي وتوفير المعلومة، إلاّ أنها مازالت مجهولة نتيجة انعدام العناية التامة بها كمراكز علم مازلنا ننهل منها إلى اليوم من ناحية، وكوسائط ساهمت في المحافظة على التراث الوطني المخطوط منه والمطبوع من عبث الزمان والذي لم يصلنا منه إلاّ القليل، وقد آل أغلبها إلى المؤسسات التوثيقية بالإرث أو بالشراء أو الإهداء. وها نحن نجهل الكثير عنها باعتبارها منبعا معرفيا، قدم خدمات دون أن نشعر بأهميته ودون أن يأخذ مكانه بالوسط الثقافي والعلمي.

وعترافا بفضل هؤلاء لا في توفير المادة العلمية المطلوبة فقط بفتح أبواب منازلهم لكلّ طالب علم أو توفير ممتلكاتهم هبة أو شراء من قبل المؤسسات الموجودة أساسا على ذمة الباحث والقارئ وتشجيعا منهم لكلّ إنتاج فكري، وإنما في دورها في مواجهة تحديات العولمة التي تعمل على نشر الثقافة الواحدة والتي من شأنها أن تطمس تراثنا العربي الإسلامي، فمن الضروري التعريف بهذه المؤسسات التي مازالت نكرة وتواجه عديد العوائق منها التقنية ومنها المادية، إضافة إلى عدم الاعتراف بدورها داخل الحلقة المعرفية، خاصة وأنها تحتاج الى الدعم.

لذا سنحاول الاطلاع على وضعية هذه المكتبات من حيث الرصيد والمبنى والتجهيزات والعمليات التوثيقية، بعبارة أخرى سنحاول معرفة هل أنّ هذه المكتبات تعمل وفق الطرق والإجراءات الفنية المتداولة في المكتبات الأخرى أم لا ؟

كما سنحاول إثبات أنّ هذه المكتبات الخاصة مازالت في خدمة العموم من الباحثين، ساعين في ذلك إلى تنسيب ما ذهب إليه بوبكر الهوش في تعريفه للمكتبات الخاصة.

### ب - نماذج لبعض المكتبات الخاصة المتاحة للعموم بتونس

إنّ مجرد الحديث عن المكتبات الخاصة بتونس، يجعلنا نلمس واقعا مربكا ومحيرا وبلغة أخرى يجعلنا نتساءل عن مصير هذه الثروات الوطنيّة التي مازال منها ماهو محفوظ بمقر إقامة أصحابها، ومنها ما فرّط فيه بالإهداء أو الشراء من قبل مؤسسات البحث العلمي كالمكتبة الوطنية.

ونظرا لقلة المصادر المتمحورة حول موضوع المكتبات الخاصة في تونس والتي تكاد تكون منعدمة ما عدا بعض الإشارات العابرة عنها، رأيت من الأفضل تقنيا الاعتماد على الملاحظة على عين المكان والمقابلة والحوار والرجوع إلى بعض الفهارس الخاصة بالأرصدة التي تمّ إيداعها بالمكتبة الوطنية أو غيرها سواء عن طريق الإهداء أو الشراء.

## المكتبات الخاصة المتاحة للقراء بمقرّ إقامة أصحابها

### * مكتبة الباروني بجربة :

صاحب المكتبة هو الشيخ سعيد بن عيسى الباروني، يعود أصله إلى قرية جرجين بجبل نفوسة في ليبيا، تعلم القرآن والفقه واللغة والأصول والعقيدة ثم سافر إلى مصر لمواصلة دراسته في الجامع الأزهر. كان كثيرا ما يحضر دروس الفقه الأباظي ودروس العقائد والأصول والسيرة على شيوخ المدرسة الأباظية. قضى بمصر مدة عشرين سنة يدرس بالأزهر وبمدرسة الأباظية ولما أنهى دراسته فكّر في العودة لزيارة أهله ثمّ قام برحلة إلى جربة أين تلقته المجامع العلمية بالترحاب وتولى مهنة التدريس بالمدرسة المسورية بالجامع الكبير، فاستقرّ بها إلى أن وافته المنية.

أسس مكتبته سنة 1805 بما جلبه معه من مصر من مخطوطات اشترى البعض منها ونسخ البعض الآخر بوكالة الجاموس بالقاهرة، كما جلب كتبه من جبل نفوسة وحافظ عليها ونماها بشراء مجموعة كتب الشيخ موسى بن علي الباروني النفوسي، فحافظ على هذا التراث من بعده إبنه الشيخ علي ثمّ حفيده الشيخ يوسف بن علي بن سعيد الباروني، ثمّ آلت هذه المخطوطات إلى الشيخ محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الباروني وبعد وفاته تولى ابنه يوسف بن محمد الباروني الاعتناء بها وإثراءها بكتب جديدة وقديمة في شتى الفنون الإسلامية والتاريخية والعلمية والدينية وعلم النفس. ويعدّ رصيدها اليوم 573 مخطوطا مجلدا قد يحتوي الواحد منها على عدّة رسائل، أغلبها في الفقه ونوادر من الفقه الأباظي، التاريخ، اللغة، الفلك، الحساب، الفلسفة، الطب وأغراض أخرى و1500 كتاب مطبوع.

وتحوز المكتبة فضاء من بيت العائلة ومع تكاثر الوثائق سعى الشيخ يوسف بن محمد الباروني إلى بناء مقر خاص ومستقل للمخطوطات خارج دور سكناه، ويعتمد الاعتناء بها على الموارد المالية الخاصة بالعائلة وقد لوحظ تآكل أوراق بعض المخطوطات بفعل الرطوبة والتسوس إضافة

إلى أنّ المكتبة البارونية لم تخضع إلى أيّة عملية توثيقية، غير أنه في سنة 1992 أعدّ للمكتبة فهرس بالتعاون مع جمعية صيانة جزيرة جربة والمكتبة الوطنية (8).

### * مكتبة آل ابن عاشور بالمرسى :

يعود تاريخ المكتبة إلى عهد البايات الحسينيين، وهي إرث عائلي يعود أساسا إلى الفقيه محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد ابن عاشور (؟- 1849). ازدهر رصيدها مع الشيخ محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عاشور (1815 - 1868)، وزاد ثراؤها مع الإمام محمد الطاهر بن محمد الطاهر ابن محمد الشاذلي ابن عاشور (1877-1973)، كما اعتنى بها إبنه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور(1970-1909)، وقد تواصل الاهتمام بها إلى حدّ اليوم.

وتتكون المكتبة المحفوظة بإحدى غرف المنزل العائلي من رصيد ضخم من المخطوطات والمطبوعات المحفوظة بخزائن خشبية مصنفة حسب المواضيع : المذاهب، المصاحف القديمة، التفاسير، الأدب والشعر والقواميس والمعاجم، التاريخ والتراجم كما توجد خزانة للمشتركات، وتعتمد مصاريفها على الموارد الخاصة بالعائلة و قد تمت فهرسة رصيدها بالتعاون مع المكتبة الوطنية (9) التي تقوم بدور الوسيط لمن أراد الإستفادة من رصيد المكتبة العاشورية .

### * مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات :

وهي مؤسسة خاصة للبحث العلمي والمعلومات للدكتور عبد الجليل التميمي، أسس مكتبته الخاصة والمتخصصة بالمؤسسة سنة 1989 بزغوان وذلك مبادرة منه لخدمة البحث العلمي ولأنه يرى «إنه من الواجب ومن غير المعقول أن يكون لديه رصيد هام وفريد وأن لاينتفع به طالب العلم نتيجة الاحتكار العلمي».

يتكون الرصيد المفهرس والخاضع للتقنيات الحديثة من أكثر من 20.000 عنوان ويغطي التاريخ العثماني والموريسكي والأرشيف والتوثيق والمعلومات. هذا إضافة إلى حوالي 220 أطروحة غير منشورة سواء في الجامعات التونسية أو العربية والأجنبية، إضافة إلى المراجع والمعاجم والموسوعات، ومازال رصيد المكتبة يتزايد اعتمادا على الاقتناء والاهداء بمعدل 400 عنوان جديد سنويّا.

الجديد في هذه المؤسسة أنّ لها منتوجا وثائقيا هامّا ومنشورات، بالإضافة الى أنشطتها في القيام بمؤتمرات عالمية (10).

### * المكتبة اللزامية ببنزرت :

تعود المكتبة إلى الحاج حمده اللزام (1913 - 1982) الذي ورثها عن أبيه عبد الرحمان اللزام الشريف من أعيان بنزرت.

كانت تعتمد نظام الإعارة الخارجية لمدة لا تتجاوز العشرة أيام، ويضمّ رصيدها الذي شمل عديد المواضيع 1013 كتابا مطبوعا باللغتين العربية والفرنسية و50 مخطوطا وبعض الدوريات. ما يميّز هذا الرصيد أنه يعود إلى القرنين 17 و18 لذلك فقد تم حفظه في بنك خوفا عليه من السرقة خاصة وأن التلف والضياع قد امتدّ لبعض المخطوطات بعد. ولقد لوحظت الحالة السيئة التي آلت إليها الكتب نتيجة قلة الاعتناء بها (11).

### * مكتبة آل النيفر بتونس :

صاحبها محمد الشاذلي ابن الشيخ محمد الصادق ابن الشيخ محمد الطاهر النيفر. تلقى تعليمه في البيت والكتاتيب وفي المدارس القرآنية ثمّ واصل تعليمه الثانوي والعالي بالزيتونة، شارك في العديد من المؤسسات وتقلد العديد من الأوسمة وكان له دور في الحركة الوطنية.

اعتنت العائلة بجمع الكتب وتكوين مجموعات من المخطوطات والمطبوعات، ثمّ ورثها ابنه الأكبر محمد

الطاهر الذي جمع لها النفيس من كتب الفقه المالكي كما اعتنى بالمطبوعات، ثمّ حفيده الشيخ محمد الصادق الذي ضمّ إليها ما اقتناه من تونس أو خلال سفره إلى المغرب، من مطبوعات ومخطوطات، يتمّ تزويد الرصيد عن طريق الإهداء من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومن بعض المؤلفين والباحثين وتلاميذ الشيخ ومن بيت الحكمة.

للمكتبة التي أطلق عليها إسم «المكتبة الإسلاميّة»أو «مكتبة الشيخ الإمام محمد الصادق النيفر» (12) قانونها الأساسي الذي يضبط تكوينها بصفتها جمعيّة خاضعة للقانون عدد 154 لسنة 1959 المؤرخ في 7 نوفمبر 1959 والمنقح بالقانون الأساسي عدد 90 لسنة 1988 المؤرخ في 2 أوت 1988، تركيب الجمعية، الإدارة، الجلسات العامة، تعديل القانون الأساسي وحلّ الجمعية. ويقع مقرها داخل البيت العائلي، بها قاعة مطالعة وقاعات أخرى تضمّ خزائن ورفوفا لحفظ الرصيد الذي يعد أكثر من 11000 كتاب مطبوع أغلبها في الفقه الإسلامي و1000 مخطوط ، أغلب رصيدها مفهرس وذلك بالتعاون مع المكتبة الوطنية. وقد سعى صاحبها في السنوات الأخيرة إلى إخضاعها للتقنيات الحديثة (13).

## المكتبات الخاصة التي فرّط فيها لفائدة المؤسسات العمومية

لايمكن ونحن نسرد مزايا أصحاب الفضل في فتح أبواب منازلهم لفائدة البحث العلمي أن نتجاهل أولئك الذين ساهموا في تعزيز الأرصدة الوطنية بإهداء مجموعاتهم لفائدة مؤسسات البحث كالمكتبة الوطنية أو لفائدة المكتبات الجامعية. وربما لا يقلّ هذا العمل شرفا على سابقيهم لأنه سوف توضع هذه الثروات بصورة مباشرة لفائدة طلبة المعرفة، إضافة إلى أنها ستحظى بالعناية في ظروف حفظ ربما تكون أفضل بكثير مما لو كانت لدى أصحابها وخوفا من أن تتلف يوما من قبل الورثة الذين قد لا يقدّرون حجم القيمة العلمية والتاريخية للوثيقة. ومن البعض الذين توصل إليهم البحث هم ماورد ذكرهم بالجدول (14) :



جدول للمكتبات الخاصة التي تمّ إهداؤها للمؤسسات

المصدر : البحث الميداني

| إسم المكتبة | المؤسسة التي أهديت الرصيد |
|---|---|
| * مكتبة إبراهيم عبد الباقي | كلية الحقوق والعلوم السياسية بتونس |
| * مكتبة أبو القاسم محمد كرو | كلية الآداب بمنوبة |
| * مكتبة أحمد بن ميلاد | المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون : بيت الحكمة قرطاج |
| * مكتبة سليم عمار | المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون : بيت الحكمة قرطاج |
| * مكتبة الطاهر الخميري | المكتبة الوطنية |
| * مكتبة العابد المزالي | دار المعلمين العليا |
| * مكتبة عبد الباقي الهرماسي | المكتبة الوطنية |
| * مكتبة عبد العزيز بن زايد | المكتبة الوطنية |
| * مكتبة عثمان الكعاك | المكتبة الوطنية |
| * مكتبة العروسي المطوي | مكتبة المطوية : بقابس |
| * مكتبة آل عظوم | متحف رقادة : بالقيروان |
| * مكتبة محمد عكاشة | المكتبة الوطنية |
| * مكتبة محمد عمار الورتتاني | المكتبة الوطنية |

ولم تتردد بعض المؤسسات في إنقاذ الأرصدة من التلف والضياع، فسعت إلى تبنيها بالشراء والعناية بها وإعداد فهارس لها، وقد قامت المكتبة الوطنية بمهمتها الأولى في حفظ التراث الوطني فتكفلت بشرائها وحفظها ضمن أرصدتها، مما عزز من ناحية المجموعات المتواجدة بها ومن ناحية أخرى فقد أنقذت تلك الثروة مما يمكن أن يحدث لها من تلف وضياع أو سرقة.

لكن وجدت بعض الإشارات إلى وجود بعض المكتبات الخاصة داخل مناطق من الجمهورية والتي انتفت حولها المعلومات وربما ظلت مجهولة تماما نظرا لبعدها عن العاصمة، رغم مساهمتها في المساعدات العلمية لكلّ باحث عن المعرفة، كمكتبة بخاري بن الهادي الوسلاتي وحسين بن حمودة المركيكو الأندلسي وعلي بن احمد الجزيري الحموروني ومحمد الأخضر القرواشي ومحمد جاهين والواقعة بمنطقة تستور بولاية باجة (15).

### ت - الصعوبات التي تواجه المكتبات الخاصة

يعود تاريخ المكتبات بصورة إجمالية إلى القرن التاسع عشر، ورغم المجهودات المبذولة في تطبيق التقنيات التوثيقية لمعالجة الوثائق، إلاّ أنها تخضع لترتيب خاص لصاحبها، كما يتمّ الاعتناء بها بمقرات غير صالحة للحفظ خاصة وأنّ عمر الوثيقة قديم وقد لاتتحمل العائلة نفقات العناية بها من تعقيم ومداواة على حسابها الخاص، وربما تجهل حتى ضرورة التهوئة والتنظيف، مما يسرّع في تدهور الحالة المادية للوثيقة. ونعي جيدا أنّ ضياعها أو إتلافها هو ضياع لثروتنا ولتراثنا وتاريخنا وهويتنا، خاصة أنّ اغلب هذه المكتبات كمكتبة الحاج اللزام لم تعد الآن مفتوحة للقراء ويمثل هذا خسارة فكريّة هامة أن توضع تلك الثروات في خزائن لا نعلم عن طرق حفظها شيئا ولا عما ستؤول إليه، فلا هي تحفظ ولا هي يستفاد منها نتيجة نقص وعي البعض أو قصور مادي وربما كثرة التزامات البعض الآخر بأشغاله وواجباته. كما أنّ هذه المكتبات مازالت شبه نكرة وتواجه عديد العوائق أهمها عدم اكتراث السلطات بأهميتها داخل حلقة المعرفة، خاصة وأنّ المؤسسات العلمية الخاصة لا تزال حديثة العهد وتحتاج إلى الدعم.

في هذا الإطار يتنزل واجب مختصّي المكتبات والمثقف التونسي ورؤوس الأموال العاملة لصالح الفكر والثقافة في تونس، بأن تساهم لحماية هذا التراث وأن تساعد على أن تجد تلك مؤسسات الخاصة موقعها ضمن الشبكة الوطنية للمعلومات تلبية لحاجة المستفيدين، إذ يرى بعض أصحاب هذه المؤسسات انّ مستقبل البحث العلمي في الوطن العربي وفي تونس يتوقف على مؤسسات البحث الخاصة، لأنها عنصر مكمل للقطاع العام.

ولهذه الأسباب نلمس ضرورة تنمية وتطوير مراكز التوثيق والمكتبات بأنواعها لغاية الحصول على المعلومة، وهو الهدف الذي تبناه هؤلاء الأفراد والعائلات العالمة التي ساهمت بدور ريادي في تنظيم المعلومات وبثها. فتساهم بذلك ولو بشكل خفي في النظام الوطني للمعلومات. ولذا فإنه من الضروري أن توضع لها فهارس تعرف بما تحتويه والتأكيد على أهمية هذا التراث وتعيين موثقين في المكتبات الخاصة للسهر على تنظيمها وفق قواعد علمية حديثة، على أن تتولى الدولة بمساعدة رؤوس الأموال جميع حقوقهم.

خلاصة القول، يكشف لنا الواقع واعتمادا على بحثنا الميداني، أنّ هذه المكتبات متاحة للعموم ولم تبق في نطاقها الشخصي لدى من يملكها وذلك نتيجة لوعي هؤلاء بأن هدف كلّ نهضة علميّة هو تقدم المجتمع. وأن لا تقدم للمجتمع إلاّ بنشر المعرفة والعلم، لأنّ المعلومة هي سبيل الحضور على الساحة العالمية، خاصة وأنّ العالم العربي يواجه اليوم تحديات العولمة وما تحمله من خطر نشر الثقافة الواحدة التي من شأنها أن تطمس التراث العربي الإسلامي الثري. إذ تندرج المكتبات الخاصة ضمن النظام الليبيرالي الذي انتهجته تونس وأغلب دول العالم في إطار العولمة التي تعمّ جميع

الميادين وتشمل المؤسسات العلمية الخاصة من جامعات ومؤسسات ثقافية. وتعتبر هذه المبادرة مظهرا من مظاهر إحياء التراث والتعريف به، ليتفادى العالم العربي أزمة الذوبان في ثقافة الغرب.

ولكن رغم أهمية هذه المبادرات في تكوين مكتبات خاصة متاحة للباحثين وطلبة المعرفة، قصد تجديد الثقافة العربية الإسلامية على أسس تستند إلى المعلومة، إلاّ أنها مازالت مهمشة وتفتقر إلى التنظيم والتدعيم المادي والمعنوي. ولعلّ هذه المكتبات الخاصة إذا ما تمّ الاعتناء بها فإنّ المردود سيتضاعف لأنه قائم على انتقاء المعلومة ومحاولة كسب المستفيد، وبذلك تتطور البحوث والخدمات في هذه المراكز المتاحة للقراء والتي تعتبر سواء بالنسبة للتونسيين أو للأجانب نافذة جديدة للتعريف بالثقافة الوطنية والإسهامات العلمية العربية.

لهذه الاعتبارات يعتبر موضوع المكتبات الخاصة المتاحة في تونس حلقة من حلقات المعرفة لما تحتويه من نفائس وأمهات الكتب وأندرها. وحتى لا يحكم علينا كمكتبيين عرب بضعف موقعنا العلمي والمعرفي، لابدّ أن نرسم سياسة واضحة لهذه المكتبات الخاصة التي تعتبر منبعا علميّا ثريّا وهامّا، لأنه رغم أنّ تكوينها لم يكن بالأساس لفائدة العموم، إلاّ أنّ تقاسم المصلحة في إستعمال وثائق المكتبة الخاصة مع صاحبها جعلها متاحة للباحث الذي لا يجد أحيانا ما يريده في المؤسسات العمومية، فيلجأ إلى المكتبات الخاصة.

وهكذا نكون قد وقفنا موقفا جادا من تراثنا ووصلنا الماضي بالحاضر، وقدمنا محاولة للإجابة عن مصير المكتبات التي مازالت متاحة للباحثين داخل مقرّ إقامة أصحابها، فلا تتعرض للإهداء أو الشراء أو الإغلاق فتتلف وتهمل كبعض المكتبات الخاصة الأخرى.

## الهوامش و الإحالات

1) حول المكتبة والكتاب : مقالات ودراسات / أبو بكر الهوش، مبروكة عمر المحيريق. ص55
2) المكتبات في الإسلام : نشأتها وتطورها ومصائرها / محمد ماهر حمادة . ص223
3) نفس المرجع . - ص226
4) تاريخ الكتاب الاسلامي / محمود عباس حمودة
5) الكتاب والمكتبات منذ ظهور الطباعة إلى نهاية عهد خير الدين / هادية مقدم._ص6
6) خلاصة تاريخ تونس / حسن حسني عبد الوهاب. _ ص129
7) الكتاب والمكتبات منذ ظهور الطباعة إلى نهاية عهد خير الدين / هادية مقدم._ صص6-12
8) عن صاحب المكتبة السيد سعيد الباروني
9) المعاينة وحوار مع صاحب المكتبة السيد محمد العزيز ابن عاشور
10) المعاينة وحوار مع صاحب المكتبة السيد عبد الجليل التميمي
11 - المكتبات الخاصة في تونس : تقديم لمثال نموذجي مكتبة الشيخ النيفر / فضيلة الفرشيشي . ص63
12 - الفصل 2 من القانون الأساسي لمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر
13 - نفس المرجع . - صص110-112
14 - لقاءات حوارية مع أصحاب المكتبات المهدية واطّلاع على الفهارس المتواجدة بالمؤسسات المحتوية على الأرصدة.
15 - فهرس مخطوطات تستور / أحمد الحمروني.

ببليوغرافيا :

* كتب عربية

- تاريخ الكتاب الإسلامي / محمود عباس حمودة . القاهرة : مكتبة غريب [د.ت]. 257 ص ؛ 28 سم.

-حول المكتبة والكتاب : مقالات ودراسات / ابو بكر الهوش، مبروكة عمر محيريق . طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1986 . - 130 ص ؛ 24 سم.

-خلاصة تاريخ تونس / حسن حسني عبد الوهاب. ــ تونس : الدار التونسية للنشر، 1983

-لمحـة مـن تاريخ الكتب والمكتبات / عبد الستار الحلوجي. القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيـع، 1982 91 ص؛ 24 سم.

-المكتبات في الإسلام : نشأتها وتطورها ومصائرها / محمد ماهر حمادة . - ط3. - بيروت : مؤسسة الرسالة، 1981 . - 332 ص ؛ 24 سم.

* رسالة ختم الدروس الجامعية

-الكتاب والمكتبات منذ ظهور الطباعة إلى نهاية عهد خير الدين / هادية مقدم، إشراف عبد الجليل التميمي. - تونس : كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، 1988. - 93 ص ؛ 30سم.

-المكتبات الخاصة في تونس : تقديم لمثال نموذجي(مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر) / فضيلة الفرشيشي، إشراف الطاهر عبيد . - تونس : معهد الصحافة وعلوم الأخبار، 1992. - 120ص ؛ 30 سم.

* الفهارس

- ببليوغرافيا : عثمان الكعاك / دار الكتب الوطنية تونس : دار الكتب الوطنية، [د.ت] 40 ص ؛ 30 سم.

- فهرس مخطوطات تستور / أحمد الحمروني . تونس : دار الكتب الوطنية، [د.ت]. 30 ص ؛ 30 سم.

- فهرس مخطوطات محمد عكاشة / دار الكتب الوطنية تونس : دار الكتب الوطنية، [د.ت] 20 ص ؛ 30 سم.

- فهرس مكتبة ابراهيم عبد الباقي / مكتبة كلية الحقوق والعلوم السياسية تونس : كلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة تونس III ، 1991. - 269 ص ؛ 30 سم



- فهرس مكتبة العابد المزالي / دار المعلمين العليا .تونس : دار المعلمين العليا، [د.ت] . 50 ص ؛ 30 سم.

-فهرس مكتبة عبد الباقي الهرماسي / دار الكتب الوطنية تونس : الخلدونية، 1998 . 132 ص ؛ 30 سم

-فهرس المكتبة اللزامية / معاوية التميمي. - تونس : مطبعة النهظة، [1930] . - 372 ص ؛ 27 سم.

-قائمة لمطبوعات ومخطوطات رصيد مكتبة أحمد بن ميلاد بالمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) تونس

-قائمة لمطبوعات ومخطوطات رصيد مكتبة سليم عمار بالمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة) تونس

- قائمة لمكتبة عبد العزيز بن زايد بالمكتبة الوطنية

- قائمة لمكتبة عمار الورتتاني بالمكتبة الوطنية.

# المخطوطات التونسية إبداع وحضارة

حسين المزوغي

تعتبر مجموعات المخطوطات المحفوظة بالمكتبة الوطنية من حيث قيمتها وأعدادها، أهمّ رصيد على المساحة الوطنية والمغاربية ومن أثرى الأرصدة وأغناها في العالمين العربي والإسلامي. فيمَ تتمثل القيمة العلمية والتاريخية لتراثنا الوطني المخطوط؟ وماهي آفاق استغلاله والاستفادة منه؟

## لمحة عن حركة جمع المخطوطات

من المعلوم أن الثروة الوطنية من المخطوطات كانت قديما مشتتة في الزوايا والأضرحة والمساجد... الخ. ثم وقع تجميعها بالمكتبة الوطنية بمقتضى التشريعات الجديدة على غرار الأمر عدد 296 لسنة 1967. وهكذا تجمعت (1) أرصدة مخطوطات مكتبة جامع الزيتونة المعمور (الأحمدية والعبدلية... الخ) ومخطوطات مكتبة الخلدونية ومكتبة الشيخ علي النوري... الخ. وقد تعززت هذه الأرصدة من المخطوطات بجهود ثلة من أعلامنا ومثقفينا اللامعين الذين حرصوا على إهداء أرصدة مكتباتهم للمكتبة الوطنية ليستفيد منها القراء والباحثون وينتفعوا بها. ونشيد في هذا المقام، على سبيل الذكر لا الحصر، بجملة من المآثر الجليلة نورد منها مثالين كنموذجين بارزين في تاريخ المكتبة الوطنية، يرجع المثال الأول إلى فترة قديمة نسبيا لما قام المرحوم حسن حسني عبد الوهاب بإهداء مخطوطاته للمكتبة الوطنية فتولت فهرستها وإصدارها في كتاب خاص إبرازا لها، كما أطلقت إدارة المكتبة اسمه على قاعة الباحثين تخليدا لحركته النبيلة. أما المثال الثاني فهو في طور الانجاز ويتعلق بمبادرة الأستاذ الفاضل والناشر المعروف السيد الحبيب اللمسي، الرامية إلى إهداء مكتبته القيمة للمكتبة الوطنية إيمانا منه بدور هذه المؤسسة في صيانة التراث وحرصا على خدمة القارئ التونسي والعربي. وقد تمت الإجراءات اللازمة للغرض وأعدت إدارة المكتبة الوطنية جناحا خاصا لها ويتمثل في محلات قسم المخطوطات بالعطارين سابقا، يعني المحلات التي كانت تحفظ مكتبات الأحمدية والعبدلية والخلدونية وحسن حسني عبد الوهاب وغيرها، وذلك حرصا من سلطة الإشراف على تحقيق التواصل زمانا ومكانا في هذا المضمار.

وللإشارة فإن هذه المكتبة (مكتبة اللمسي) على غاية من الثراء والتنوع فهي تحوي ما يناهز 600 مخطوط فضلا على مجموعات هائلة (50.000 عنوان) من المطبوعات والدوريات المسفرة والمجلدة تجليدا فنيا ممتازا. وما يزال العمل متواصلا على أكثر من صعيد لجمع المزيد من هذه الوثائق الثمينة بواسطة الشراء وبقناة الإهداء ومن خلال تبادل المصورات الفيلمية وغيرها من أجل إثراء ثروتنا الوطنية المخطوطة ودعم مجموعاتها كمّا وكيفا على حد سواء.

## عناية فائقة وإنجازات رائدة

لقد حقق قطاع التراث بوجه عام والمخطوطات بوجه خاص نقلة نوعية مع الاستقلال و مع بناء الدولة الوطنية الحديثة. وقد تطور هذا القطاع من مجرد الوعي عند رواد الإصلاح في القرن التاسع عشر إلى ظهور سياسة متكاملة وشاملة مافتئت تنمو وتتدعم بالقرارات والإنجازات والمكاسب منذ التحول المبارك الذي أعاد للهوية اعتبارها وجعل «الثقافة رافدا للتنمية وسندا للتغيير». والجدير بالملاحظة في هذا السياق هو أنه صدرت في عام 1988 جملة من القرارات الرئاسية (2) تخصّ النهوض بالقطاع الثقافي، نجد من بينها قرارين ينصّان على إنجاز القسط الثاني من المكتبة الوطنية وتجهيزها بمخبر عصري لصيانة المخطوطات. وقد أعدت الدراسات اللازمة للغرض ورصدت الإعتمادات الضرورية وانطلقت الأشغال وتم تشييد بناية عصرية مجهزة بأحدث الوسائل التكنولوجية لحفظ الوثائق ومعالجتها ونقل رصيد المخطوطات من المبنى القديم بسوق العطارين، إلى محلاته المتطورة بالبناية الجديدة (شارع 9 أفريل بالعاصمة). وفي يوم مشهود قام سيادة الرئيس زين العابدين بن علي بتدشين هذا المشروع الثقافي الرائد بتاريخ 1 ديسمبر 2005. واثر النقلة شرعت، على الفور، إدارة المكتبة الوطنية في تخزين فهارس المخطوطات في قاعدة بيانات موضوعة على ذمة القراء والباحثين حتى يتسنى لهم استعمال المخطوطات والاستفادة منها بكل دقة وضبط وبأقصى ما يمكن من سرعة ويسر وسهولة، خاصة وأنها تعتبر مادة هامة للبحث والدراسة نظرا إلى قيمتها الفنية والعلمية.

## قيمة تراثنا المخطوط

لقد توصلت المكتبة الوطنية بفضل المجهودات والاجراءات المشار إليها آنفا إلى جمع رصيد من المخطوطات يناهز عدده أربعين ألف عنوان والجهود مبذولة يوميا للبحث عن هذا النوع من الوثائق وشراء المزيد منها، بحكم ارتباطها الوثيق بتاريخنا الحضاري والثقافي وباعتبار مالها من قيمة علمية وفنية على غاية من الأهمية.

بخصوص القيمة الفنية فالكثير من مخطوطاتنا يمثل تحفا فنية لا تقدر بمال. وذلك لما تضمنته من تزاويق وتذاهيب وزخارف ونمنمات، وكذلك لما يمثله الخط العربي في حد ذاته بمختلف مدارسه وأشكاله المشرقية والمغاربية والأندلسية من فن رائع في إخراج النصوص ورسم المعاني. كما يشهد بذلك أحد الباحثين الخبراء لما يقول: «ومع الخط أصبحت الخطاطة صناعة الحذاق وفنا قائما بالوراقين ويرتكز على حسن براية الأقلام ومعرفة تركيب الألوان واتحادها وخصائص كل لون من الثبوت والانفساخ وصنعة المداد المركب وتمييع الذهب للكتابة».

وقد وصلتنا وثيقة مهمة تذكر «وصفات شتى من الحبر» تنسب كل واحدة منها إلى واحدة من وجوه الثقافة العربية الإسلامية كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي وابن مقلة ومحمد بن زكرياء الرازي وعلي بن هلال الكاتب ومسلم بن حجاج وابن ماكولا وأبي بكر الصولي وعبد الله بن المعتز ووصفات أخرى لاحبار مخصصة للوكلاء وللشروطيين وللوراقين وطرق إعداد الحبر الصيني بمركباته المختلفة. وهذه المواد العلمية تفسر ما استند إليه ذلك التراث الكبير المخطوط من حسن الإخراج والتجليد والتذهيب والتنميق الذي بقيت تقاليده إلى أواخر القرن الماضي (القرن 19) بالرغم من بدء حركة الطباعة التي لم تحقق للقارئ العربي ما عهده من جمال الخط وبراعة التسفير وتألق الألوان (3) إلى جانب فن صناعة الرقوق والورق الحريري وغير ذلك من الجلود واللفائف وأوعية الكتابة وأدواتها وطرائق الزخرفة الفنية التي أبدع فيها العرب مشرقا ومغربا. ولا تفوتنا الإشارة في هذا السياق إلى ما

يزخر به تراثنا المخطوط من عناصر فنية نادرة على غرار الرق الأزرق الذي تنفرد بلادنا بامتلاكه ولا يوجد له نظير في العالم بأسره (وهو محفوظ حاليا بمتحف رقادة بالقيروان)، إلى جانب مجموعات أخرى من الجلود والرقوق ومصاحف القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف وغيرها من المخطوطات والنسخ الخزائنية البديعة الأشكال والألوان والمحلاة بالزخارف والنمنمات.

أما فيما يتعلق بمحتوى هذا التراث الزاخر وقيمته العلمية فهو أيضا يمثل ثروة من المعلومات ومعينا من المواد المعرفية التي ما يزال البحث منشغلا بمضامينها وسيظل يستكشف أغوارها إلى أمد بعيد بحكم أن عناصر هذا التراث نتاج حضارة، أيام القيروان وفي عهد الحفصيين وفي فترات أخرى، أشعت واستقطبت وأسهمت في الإبداع الكوني وأثرت فيه أخذا وعطاء.

وعندما نرجع إلى المجلات والأغراض التي عنيت بها مخطوطاتنا نجدها متنوعة المشارب ومختلفة المنازع وتغطي جميع فروع المعرفة ويمكن حصرها في جملة من المحاور والأقسام خاصة منها العلوم الدينية والعلوم الإنسانية والعلوم اللغوية والعلوم الصحيحة، مع الإشارة إلى أن هذه الشمولية والتنوع والإلمام الواسع والتفتح على الآخر في الإبداع والتأليف يقابله انخرام في توزيع النسب والمجموعات وعدم الخضوع إلى المنطق أو احترام التوازن والتكافؤ. ونسجل، من ثم، تفاضلا في توزيع النسب، فيأتي الغرض الديني مستأثرا بنصيب الأسد ثم تليه العلوم الإنسانية واللغوية ثم العلوم الصحيحة. والجدير بالملاحظة هو أن القسم الأول حافل بالشروح والمتون والحواشي ومصنفات الفقه وغني بمضامينه الفنية النادرة خاصة في مستوى المصاحف وكتب الصحاح، بينما يمتاز القسم الأخير بمضامينه العلمية والدقيقة ومادته المعرفية الزاخرة وأبعاده الحضارية والإنسانية وخصوصياته المميزة وسبقه العلمي لزمانه ولتراث الآخرين. ونلمع هنا، على سبيل الذكر لا الحصر، إلى أعمال ابن الجزار وآثار القلصادي ومصنفات ابن خلدون ومجهودات الخميري المغازلي الذي حاز قصب السبق بمؤلفه في الطب «تحفة القادم» الذي يصفه الدكتور الباحث المرحوم أحمد بن ميلاد بقوله: «هو كتاب فريد متقدم عن زمانه انفرد في علم واحد هو حفظ الصحة» (4) (أو ما يسمى اليوم بعلم الوقاية من الأمراض والسلامة الجسدية) عن طريق إتباع أنظمة معينة ودقيقة من الغذاء والحرص على النظافة الشخصية وسلامة البيئة باستمرار وتعاطي الحركة والرياضة بانتظام. وهكذا كان الكتاب (المخطوط) في بلادنا لازمة حضارية أسهم بما يمثله في مجال العقيدة والفقه واللغة والأدب والمنطق وعلوم العصر من طب وهندسة وهيئة في صياغة المجتمع الإفريقي وتأسيس تربيته ودعم لغته وتوسيع آفاقه وتعميق انسانيته. وفيما عدا العقيدة وما يتّصل بها والمذهب الذي كان سنيا مالكيا عند أكثر الناس فإن بقية فروع المعرفة تنتفي معها فوارق المذهب والدين فقد كان ابن الجزار شيعيًا على الأرجح وهذا لم يحد من التفاف الناس عليه وكان إسحاق بن سليمان الطبيب يهوديا ولكنه كان عربي اللسان وبقيت كتبه معتمدة في عصره وبعد عصره. وأخبار علاقة الأفارقة بالكتاب درسا وتمحيصا وعناية منتشرة في أخبار العلماء وسيرهم» (5).

وتجدر الملاحظة من جهة أخرى، أن هذا الرصيد الهائل من المخطوطات رغم كثرة عدده (ما يناهز 40.000 عنوان) وثراء موارده وتنوعها (دين، طب، تاريخ، بيطرة، هندسة، فلك، صيدلة، فلاحة، كيمياء، موسيقى، أدب، لغة، رحلات، جغرافيا، بيزرة، ...الخ) لم يقع استغلاله بما يرقى بالإنتاج الفكري وتحقيق التراكم المنشود على صعيد التأليف والإبداع. ذلك أنه لم يقع تحقيق ونشر إلا القليل من المخطوطات (ما يناهز أربعة آلاف مخطوط). أما البقية فإنها ما تزال تنتظر من ينفض عنها غبار النسيان

ويخرج للناس ما فيها من كنوز وذخائر تعود بفوائد كبيرة على تنمية تراثنا الفكري وإشعاع ثقافتنا. ويبدو، من بعض المؤشرات، أن زهد الباحثين والمحققين في الإقبال على دراسة المخطوطات يرجع إلى جملة من العوامل المختلفة، نومض منها إلى ما تتطلبه دراسة المخطوطات وتحقيقها من جهد كبير وكفاءة عالية وسعة إطلاع وطول نفس وصبر ومقارنة لمختلف نسخ العنوان الواحد (التي قد تكون موجودة في أكثر من بلد)، ولا ننسى في هذا السياق بعض الصعوبات الأخرى كقلة المعلومات ورداءة الخط وترهل المخطوط وكلفة الطبع والنشر... إلى غير ذلك من المعوقات التي يعسر معها إنجاز التحقيق العلمي الضروري. والأكيد هو أن مسألة تحقيق المخطوطات تتطلب تفرغا وقدرة مالية وعناء كبيرا وهو ما لا يتوفر عند الكثير من الباحثين نظرا إلى كثرة مشاغلهم وقلة إمكانياتهم. لذلك يستحسن أن يتولى عدد من مراكز البحث بالتعاون مع بعض المؤسسات الاقتصادية والثقافية الاضطلاع بمهمة ما ينبغي تحقيقه وفق برنامج شامل يضبط الأولويات الضرورية في هذا المجال.

## الهوامش والمصادر



1) راجع كتاب «من نفائس دار الكتب الوطنية: المخطوط» كتب نصوصه إبراهيم شبوح، تونس، وزارة الشؤون الثقافية، 1989، مقدمة الكتاب.
2) راجع جريدة «الحرية»، 27 نوفمبر 1988، ص 4.
3) راجع كتاب من نفائس المخطوطات... المذكور بالهامش عدد (1).
4) راجع كتاب «تاريخ الطب العربي التونسي» للمرحوم الدكتور أحمد بن ميلاد، تونس، 1980، ص 116 والصفحات الموالية.
5) راجع كتاب من نفائس المخطوطات... المذكور بالهامش عدد (1)

# اللّوحة ترسم شخصيّة رسّامها وتبشّر بـآفاق سيرته




## (تأمّلات في تجربة رشيد الفخفاخ التّشكيليّة)

خليل قويعة

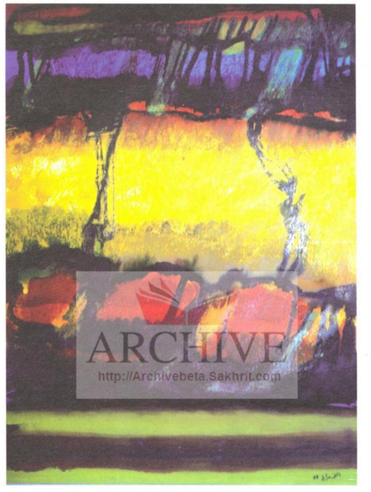
كيف نقـدّم شخصية رشيد الفخفاخ وقد تعدّدت خبراتها وألقابها ؟ شخصية مترامية الأطراف، ثرية بمسيرتها، دسمة بمرجعياتها الثقافية الشرقية والغربية وطموحاتها المتوهّجة دوما، زلوقة تأبى التمأسس داخل أقنوم ايديولوجي أو معرفي أو جمالي بعينه... شخصية جادة، هي قدوة في التفاني والحزم، راهنت على البحث عن معادلة ممكنة بين البعد النظري في مرجعية الذات العارفة، وبين البعد العملي في شواغل الذات الإبداعية... شخصية تواقة آمنت بأن العمل هو مصير كينونة الذات، وعقلانية ولكنها مرنة.

هل أبدأ برشيد الفخفاخ الأستاذ وهـو الذي حصل على الأستاذية في الفنون التشكيلية، اختصاص نحت من المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير بتونس بجائزة رئيس الجمهورية سنة 1973، وهو أستاذ مساعد بالمعهد العالي للفنون الجميلة بتونس منذ سنة 1979 ؟ هل أبدأ به باحثا عالما منذ 1976 بالمركز الوطني للبحوث العلمية بباريس CNRS قسم الجماليات التجريبية لأنتهي به مديرا بالمعهد العالي للفنون والحرف بصفاقس منذ 2005؟ هل أبدأ برشيد الفخفاخ الدكتور (دكتورا في الجماليات وعلوم الفن جامعة باريس 1 السربون) ثمّ أمرّ إليه فنانا تشكيليا وهو الذي بدأ يعرض أعماله منذ 1976 من خلال معرض شخصي في فن النحت على الخشب بكليبرون، ألمانيا؟ ولكن كيف لي أن أتدبّر أمر هذا الرجل الرواقي Galeriste وهو الذي بعث صحبة زميله نور الدين الهاني رواق شيم للفنون بالمنزه السادس سنة 1988؟ ثم ماذا عن شخصية الفخفاخ المبرمج البيداغوجي الذي ساهم في هندسة برامج التدريس ووضعها واقتراحها في مجال إصلاح التعليم بالمعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية والتعمير بتونس في بداية الثمانينات؟ ثم لماذا لا نبدأ بتقديم الرجل من حيث هو مثقف عضوي يؤمن بالمشاركة وقد شارك في عديد المعارض والندوات والمهرجانات بتونس منذ 1983 وبالخارج فرنسا، إيطاليا، ألمانيا،





« الأحمر يغني الأخضر » : أكريليك على قماش 1999 - 270 صم/120 صم




تقنية ممزوجة على ورق 2 «افتتان» : 1988 - 26 صم / 36 صم

اسبانيا، مصر، لبنان، الصين، الهند، الإمارات العربية المتحدة، الأردن، الولايات المتحدة الأمريكية، اليابان...)

باحث وعالم خبير في نظرية اللون، مدير معهد عال للفنون، فنّان، رواقي، مبرمج بيداغوجي، أستاذ، مثقف مشارك يؤمن بالتواصل الجدلي بين الفنان والمجتمع... ولكن لماذا ننكر في هذه الشخصية جانب الرياضي الماهر، وهو الذي يحذق إحدى رياضات فنون القتال ومولع بالرياضات الشرقية...؟

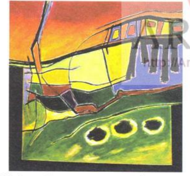
الحقيقة أن المواهب متعددة والرجل واحد. ولنتطرق إلى الرجل من حيث هو فنان تشكيلي، إذ المقام ملائم لذلك في مجلس كهذا من مجالس الفنون بالمركز الثقافي لمدينة تونس. ولكن عن أي فنان نتحدث؟ هل نتحدث عن رشيد الفخفاخ النحات، فأول أعماله التي عرضها كانت في فن النحت على الخشب؟ وقد أطلعني سنة 1997 على مجموعة من تخطيطاته لمشاريع نحتية. كما قام بتأطير طلبة في اختصاص النحت بالمعهد العالي للفنون الجميلة بتونس أواخر التسعينات من خلال ورشة النحت على رخام تالة وبالاعتماد على تقنية التشذيب Dégrossissement وهي أقدم تقنية نحتية.

هل نتحدث عن الرجل كفنان فوتوغرافي خبير بالعدسة ولغتها الضوئية وملم بتقنياتها الإبداعية؟ وهو الذي نال جائزة التصوير الفوتوغرافي الفني في أيام الفنون التشكيلية بالمنتزهات سنة 2000 بمنتزه النحلي. وتقوم أعماله في هذا المجال على تعبيرية الموضوع الفوتوغرافي وشحناته الدلالية والرمزية التي يهندسها فضائيا ويرصد مكوناتها المشهدية داخل إطار مدروس(Prise de vue). وقد تحكم الصورة إلى سيميولوجية ساخرة تجمع بين المتناقضات وتثير الحيرة والتساؤل. هذا فضلا عن أن الفخفاخ من المتخصصين التونسيين القلائل في مجال تصوير الأعمال الفنية.

وبين هذا وذاك، هل يهمنا أن نتحدث عن الفخفاخ بوصفه فنانا تنصيبيا (Installationniste) وهو الذي قدم تنصيبة الأربعون طاطا (Les 40 TaTa) برواق شيم مع نور الدين الهاني سنة 1994 ومن ثمة يؤكد الرجل انخراطه في ثقافة الفن المعاصر بامتياز؟ وربما من الحري بنا أيضا أن نتطرق



تقنية ممزوجة على ورق 2 «أثر أثر أثر» : 1988 - 50 صم / 65 صم



« تنويعات 2» : أكريليك على قماش 1993 - 100 صم / 100 صم



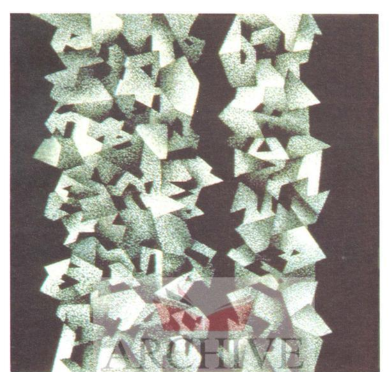
«تنويعات 1» : تقنية ممزوجة على ورق 1995 - 50 صم / 65 صم




ترابط د : قلم رصاص على ورق2 / 1984 - 64 صم / 64 صم

إلى الرجل من حيث هو فنان متحمس للخروج بالفنون التشكيلية إلى الشارع والمحيط المديني المعيش حتى يكون الفنان متمسكا بموقعه في صياغة جمالية المدينة ومعنيّا بها، وحتى لا يكون الفنان كائنا معرضيا ومتحفيا فحسب. وقد ساهم الفخفاخ في إنجاز بعض الجداريات من بينها الخزفية الجدارية التي أنجزها صحبة الهاني بمدينة لمطة (20 × 3 م) تحت عنوان تنويعات المربع وهي استلهام من تراث الفسيفساء ومن بحث المفردة التشكيلية بل هي امتداد شرعي لمسيرته التشكيلية التي كانت لثقافة المربع فيها نصيب لامع.

المربع، النسيج المربعاتي، المربعات السحرية، تنويعات المربع؟... لعل الأمر يجرنا شيئا فشيئا لملامسة شخصية الرسام وشخصية الملوّن لدى رشيد الفخفاخ، وهي الشخصية الأكثر حضورا وتواترا في مشاركاته الفنية التونسية والعربية والدولية وفي معارضه الشخصية (إذ شارك في زهاء خمس وعشرين تظاهرة فنية بالداخل والخارج في مجال



ترابط 3 . حبر صيني على ورق 1984 . 30 صم / 30 صم



الرسم منذ 1983 من بينها المعرض السنوي للفن التشكيلي بصفاقس منذ 1986 وقد حصل فيه على الجائزة الأولى لسنة 1997 . . . وآخرها مشاركته في المعرض العالمي لسنة 2005 باليابان . كما قدّم في فن الرسم 4 معارض شخصية أولها معرض «أثر، أثر، أثر» برواق شيم سنة 1989 ثم برواق القصبة بصفاقس سنة 1990 وآخرها في نوفمبر 2006 بهذا الرواق نفسه .

ولكن عن أي رسام نتحدث؟ فشخصية الرسام نفسها لدى الرجل هي نفسها زلوقة وملتبسة وتحتاج إلى مواكبة دقيقة لزمنيتها الإنشائية عسى أن نظفر بالخيط المفقود الذي بين مشاركاته في المربعات السحرية (المعرض السنوي بصفاقس سنة 1986 على سبيل المثال) وأعماله في اللاشكلي L'informel ذات اللمسات الرصينة والسريعة في ذات الوقت (معرض عشر سنوات من الرسم التونسي الحديث على سبيل المثال 1997 بتونس وفرنسا وإيطاليا) أو، بين هذا وذاك، أعماله التي توحي أو تبشّر بوجود تكوينات شكلية غنائية وتفترض وجود بنية هندسية تحتكم لها (المعرض الشخصي « أثر، أثر، أثر» ). ولا ننسى في هذه التجربة الأعمال المستلهمة من رسوم الأطفال والفن الخام 1992 . وبين هذا وذاك، هل نتحدث عن رشيد الفخفاخ رساما بالدهن الزيتي أم بالأكريليك أم بالبستيل أم بالأحبار الملونة أم بهذه التقنيات ممزوجة؟

إن المتتبع لهذه المسيرة يكتشف وجود محطات رئيسية بها يمكن أن تكون بمثابة مفاتيح للقراءة. والمعرض البحث الذي قدمه الفخفاخ صحبة بيدة والهاني سنة 1987 هو محطة بارزة. وقد يدور في خلدنا أن خطاب المفردة شغل شكلي وغرافيكي يتعلق بمعالجة الفضاء وتحليله أو تركيبه ورصد إيقاع نسيجه اعتمادا على الايقاع والحركة والتأليف وهي مقوّمات الإنشاء الجمالي في التراث العربي الإسلامي وفن الأربيسك تحديدا ومقومات الفن البصري والفن الحركي الحديث. . . وقد قال سمير التريكي في مقاله « التطور الراهن لإشكالية التراث والإبداع التشكيلي في تونس «ضمن كتاب التراث والإبداع (Création et patrimoine) (1): «إن اكتشاف الفخفاخ يقوم على تعويض العدد بعلامة غرافيكية أو تشكيلية مثل نقطة، سطر، لون، شكل هندسي، وهو ما يمكّـن من خلق لعبة الترابطات المفتوحة (Combinatoires) إلى ما لا نهاية له».

لكن مثل هذا الطرح المفردي ـ الحسابي سيؤدي إلى نوع من الانغلاق الإنتاجي. فلعبة الترابطات هاهنا، ليست على نحو ما هي موجودة عليه في مجالات معرفية أخرى مثل علم المنطق حيث أكد الألماني لايبنتز(Leibniz) في القرن السابع عشر في رسالة حول فن الربط (De Arte Combinatoria) :

أن لعبة الترابطات تؤدي إلى فتح تعدّدية القضايا اللغوية على آفاق رحبة، انفتاح مكوّنات الخطاب



ترابط « ج صعيد طيب 2 » : صور فوتورقمية على ورق 2005 - 100 صم / 100 صم

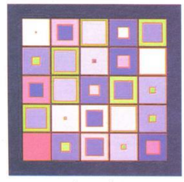


تقنية ممزوجة على ورق 2 « أثر أثر أثر » : 1988 - 50 صم / 65 صم

على بعضها. إذ بالمقابل، « يصبح الإبداع التشكيلي، لعبة مبرمجة بصفة مطلقة، حيث يكون كل شيء متوقع، (Prévisible)، أي بدون مفاجأة بل وخاصة بدون حدث جديد. ويمكن للفخفاخ أن يقضي كامل حياته في رسم آلاف وآلاف اللوحات بهذه الطريقة» (2). والقول لسمير التريكي.

على أن الخطاب المفردي عند الفخفاخ ليس خطاب الشكل والعلامة الغرافيكية فحسب بل الأحرى خطاب

ترابط « X » : أكريليك على قماش 1988 – 85 صم / 85 صم

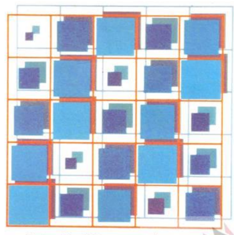


ترابط « ب 7 »
أكريليك على قماش 2001 – 100 صم / 100 صم

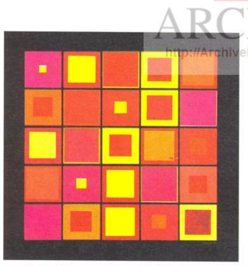
اللون، وهو القائل في نصّه «في المربع السحري، وسحر المربع» ضمن كتاب المفردة في الفنون التشكيلية (3) 1988: إن الرسم التجريدي الحقيقي قادر على التعبير الجمالي رياضيا، بحكم اكتسابه لوسيلة تعبير دقيقة، دقة الرياضيات وهذه الوسيلة هي اللون الذي يقع إعداده بصفة مطلقة».

ونحن هنا بصدد رشيد الفخفاخ الملوّن (Le coloriste) وعالم نظرية اللون، وهو من يجعل اللون في قلب العبارة التجريدية ويتعاطى معه

رياضيا من داخل علم صحيح للمقادير، شأنه في ذلك شأن العقلانيين. ألم يقل لايبنتز نفسه أحد أتباع الديكارتية وأحد رواد الحداثة العقلانية، في تعريفه للموسيقى أنها بمثابة رياضيات صائتة (mathématique sonore)؟ لكن الفن أكثر من علم، وقد يؤدي بالفنان إلى اكتشاف آفاق غير متوقعة هي بمثابة فتوح متجددة تؤسس مسيرته. ولعل من قوة الفن أنه يجبر الفنان على تبني مفاهيم جديدة ومن ثمة، على التفاوض مع منطلقاته الأولى. وهي نقطة تُحسب عادة لصالح الفنان من جهة أنه كائن يتكوّن ويتطوّر في الزمن التاريخي الحي والزمن الإبداعي المفعم بالاكتشافات... فكيف كان شأن اللون لدى الفخفاخ؟ هل أدّى به إلى حيث لم يكن يحسب؟ هل دفعت الشحنات العاطفية بالفنان إلى تطعيم عقلانيته الحسابية باتجاه شعرية ممكنة؟ وهل أدّى اللون بأشكال الفخفاخ إلى إذكاء معنى الحياة بها إذا ما تمثلنا قولة الناقد الفرنسي ديدرو: «إن الرسم هو ما يمنح الشكل للكائنات، بينما يمنحها اللون الحياة» (4) ؟


ترابط «ج 3» : أكريليك على ورق 1984 - 64 صم / 64 صم

إن تعامل الفخفاخ مع اللون قد مرّ هو الآخر بأكثر من مرحلة. فمن التجريد الهندسي الذي يقوم على ما يسمّيه الفنان بالمربعات السحرية إلى التجريد الغنائي الذي يعتمد على حركية اللمسة. كما يمكن رصد تجربة الفنان من حيث أنها عبور متدرّج من الشكلي والمفردي والخطي إلى اللاشكلي L'informel، الذي يعتمد أساسا على التدخلات اللونية، عندما تصبح اللوحة جملة من التوازنات الضوئية.


ترابط «ب 3» : أكريليك على قماش 1985 - 85 صم / 85 صم

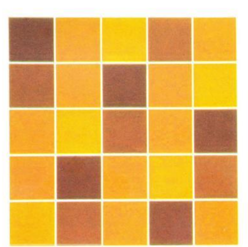
وبناءً على هذا الافتراض القرائي، هل يمكن رصد مسيرة الرجل على أنها نقلة من عقلانية الخطوط

وهندستها إلى شاعرية اللون وغنائية الحركية والنغمية إذا ما استندنا إلى المدوّنة النقدية البودليرية :

«كل الفنانين الملوّنين هم شعراء ملحميون، بينما كل الرسامين الذين يقتصرون على الخطوط هم فلاسفة عقلانيون يجرّدون الجواهر من موادها»(5)؟ أم أن العقل الهندسي والحسابي قد استمرّ على مدى خط التجربة وتواصل حضوره بين قياسات الخطوط والمربعات من جهة وبين قياسات النسب اللونية والضوئية ومعادلاتها الحسابية الدقيقة، من جهة أخرى؟ . . .

في المعرض الأخير الذي انتظم للفنان بقاعة القصبة في بداية نوفمبر 2006، كما في مشاركته الأخيرة في معرض الأحجام الصغيرة بالرواق البلدي بصفاقس، في أواخر نوفمبر 2006، نلاحظ حضورا للتجريد الغنائي واللاشكلي، وهو امتداد متجدد لمنعرج ابداعي ازدهر في تجربة الفنان في بداية التسعينات. لا تنطوي الأعمال على نية بنائية. . . ثـمّـة تحرّر من كل مرجعية هندسية أو خطية. . . ليست هناك « أشكال» بل بالأحرى هناك كتل لونية هيولية هائمة. . . كأننا بإزاء فضاء سماوي لا متناه ليست به خطوط ومركبات هندسية واضحة، بل كتل من الألوان والأضواء والأشعّـة التي تبدو متناثرة هنا وهناك. فكيف للألوان أن تكتفي بذاتها لتكون موضوعا للوحة ومحورا للفعل التشكيلي؟

على أنه بقدر ما تنزاح لوحة رشيد الفخفاخ وتفلت عن مرجعيـتها الخطية والهندسية لتتخذ طبيعة لونية خالصة، بقدر ما تصبح إمكانية تذوقها في متناول كافة زوار المعرض. . . وكما قال الفيلسوف والناقد الفرنسي ديدرو (Denis Diderot) .« لا شيء، في لوحة ما، يلفت انتباه الناس مثل اللون الأصيل، إنه



ترابط « أ 1» : أكريليك على ورق 1984 - 64 صم / 64 صم

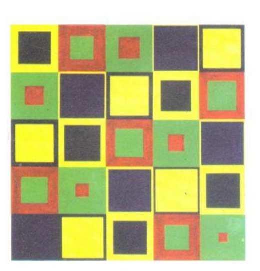


ترابط « أ 3» أكريليك على خشب : 1986 صم100/ صم100

يخاطب جميع الناس مهما تكن شرائحهم ودرجاتهم التعليمية (6)».

وهكذا، كأن اللون ساعد على تنشيط التواصل بين الفنان وجمهوره من الزوار، وسنرى كيف أنه ساعد على فتح مجالات خصبة للتواصل بين الفنان وذاته، وبينه وبين فعل الرسم من جهة أخرى (L'acte de peindre).

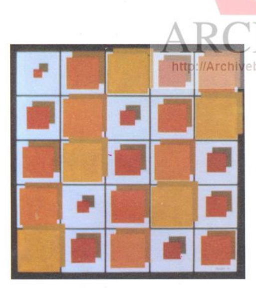
على أن علاقة الألوان ببعضها تؤكد الكثير من الحركية. كأن انفعالات جسد الفنان تنطبع على مدى سعة فضاء اللوحة، من خلال حركية اللمسات وسرعة الأداء. ألم يقل الناقد الفرنسي بيار رستاني (Pierre Restany) في كتابه الغنائية والتجريد : «إن إشراقات Révélations اللوحة عندما تقترب من الحركية الفيزيائية تمثل إحدى اكتشافات التجريد الغنائي، في أعمق خصائصه»؟ (7) أجل، هناك لعب على حركية اللون في انتقالاته المفاجئة، وقد بدا ذلك في الظهور في الأعمال التي أنجزها الفخفاخ بالتقنيات المختلفة وخاصة بالباستيل سنة 1989 وبداية التسعينات. (...).



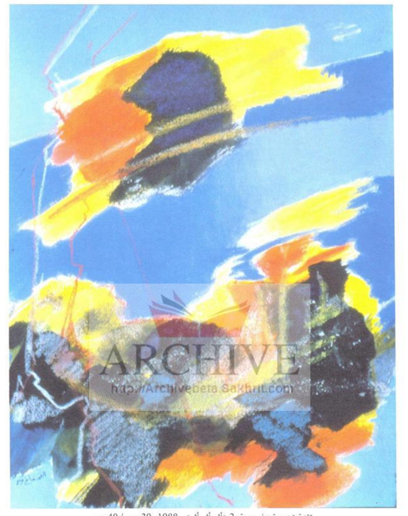
ترابط «ب4» أكريليك على ورق 1984 64 صم / 64 صم



كأن اللمسات تصبح بقعا متناثرة والبقع لطخات لونية تتناسل من بعضها كتناسل المفردات من بعضها داخل خطاب تشكيلي يقوم على التوليد أو المايوتيك (Maïeutique)، وفي كتابه من المجرّد إلى الممكن(8) يقول الفنان والمنظر جورج ماتيو (Georges Mathieu) وهو أحد رواد الفن الحركي الحديث «إن من مميزات التبقيعية (Tachisme) أنها تعني، على الأقل، نوعا من فن الرسم المباشر... ويقع اللجوء إلى البقعة نظرا لحاجتنا إلى نوع من المساحة اللونية، في موضع ما من اللوحة. والسبيل المباشر إلى ذلك هو أن نضع الفرشاة على القماشة



ترابط «ج 4» أكريليك على ورق : 1984 64 صم/64 صم



تقنية ممزوجة على ورق 2 «أثر أثر أثر» 1988 30 صم / 40 صم

بنوع من العنف . . . دون أن يقع بصفة مسبقة، تحديد الفضاء المراد تلوينه». إننا بصدد جمالية الارتجالية الفنية (Improvisation) والسرعة في الأداء (إذا ما وظفنا لغة الناقد الفرنسي بلاز دوستال Blaise Dustel) (9). أو كما ينعتها المنظر الفرنسي مارسيل بريـــون (Marcel Brion) بجماليــة الصرخــة والحركية أو كما ينعتها المنظر الفرنسي مارسال بريون (Marcel Brion) بجمالية الصخرة والحركية (10).

بل إن جرأة هذه التداعيات الحركية أدت إلى تجميع حساسيات لونية متنافرة ما بين الكتلة والأخرى، داخل اللوحة، أو ما بين اللوحة والأخرى داخل المعرض. ومن ذلك هذه الثنائيات المتقابلة مثل الأخضر والبنفسجي، والبرتقالي والأزرق... كأننا بإزاء جمالية تفتعل الاختلال والنشاز بنوع من الجسارة. ولكن ألا يبدو الاختلال «منظما» والنشاز «جميلا» داخل اللوحة؟ بل إن العمل الفني، يحتكم هاهنا إلى العديد من المقومات والمؤثرات التشكيلية. إذ نلاحظ اعتمادا على تقنية التشاف، مما يدعم نضارة الألوان وتعبيريتها. إن «إشراقات اللون» تتفاعل مع حركية الألوان الشمعية التي تذوب في الفضاء الفني. وبين هذا وذاك، ثمّة صراع مع المادة اللونية وما تبدو عملية ثخونتها وصلابتها، من أجل إخضاعها إلى شفافية الذات وروحانيتها. وكان يمكن تحقيق نتائج أبعد من ذلك لو وقع الاعتماد على الدهن الزيتي عوضا عن الأكريليك.

ثمّة إذن، تدخل إرادي أساسه البحث الدقيق عن التوازنات اللونية والفضائية. إذ على إثر التفاعل اللانفعالي - الوجداني مع اللون، يتدخل العقل لترويض المساحات والكتل والتنسيق بينها. هناك معالجة لونية تعتمد الحسابات الدقيقة لضبط الفصائل اللونية الأكثر ملاءمة وتأمين توازناتها. وهي معالجة تبدأ على المطفة، عند إحضار حاجيات الفنان من الألوان، ثم تتواصل على اللوحة. فهل تصبح اللوحة بحثا عن التوازن اللوني المحبوك وتنسيقا نغميا بين ألوان تبدو متنافرة، ما بين ساخن وبارد أو ما بين أحمر وأزرق؟

ولكن الفنان لا يمكن أن يبتكر من الألوان ما هو خارج عن مجال الطبيعة. إنه يرتب هذه العناصر

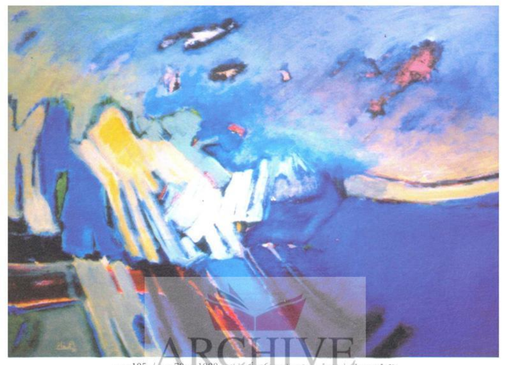
تقنية ممزوجة على ورق : تنويعات «10» 1997 - 24 صم / 32 صم



تقنية ممزوجة على ورق : تنويعات «11» 1997 - 24 صم/ 32 صم



تقنية على قماش : «صراع» أكريليك 1995- 80 صم/ 100صم



تقنية ممزوجة على ورق : تنويعات «6» أكريليك 1988 - 70 صم / 105 صم



اللونية داخل فعل إبداعي ما. على هذا الأساس، قد يجوز لنا أن نقيم موازنة بين أعمال رشيد الفخفاخ المغرقة في التجريد واللاشكلي وبين شاعرية الألوان على نحو ما يتغنـى بها الشاعـر الفرنسـي شارل بـودلير (Charles Baudelaire) الذي يـقـول في كـتابات في الفـن(11) (Ecrits sur l'Art) : «إن الأخضر هو عمق الطبيعة، لأن اللون الأخضر يتزاوج بسهولة مع كل الألوان الأخرى... إن اللون الأحمر يتغنى بمجد الأخضر وغبطته، أما الأسود فيضع حدا للنزاع الذي بين الأزرق والأحمر... وسريعا ما تزيح هذه الظلال الزرقاء الشاسعة كتلة هذه اللوينات البرتقالية التي تشبه صدى الضوء الخفيف الآتي من بعيد... إن هذا التسلسل النغمي أو هذه الموسيقى، حيث يطل التـنـوّع أبدا من عمق اللانهائية، أو هذا النشيد المعقد المنساب، هو ما نسمّـيه بالألوان. كل الفنانين الملوّنين، يواصل شارل بودلار، هم بمثابة شعراء ملحيّين بينما كل الرسامين الذين يقتصرون على الخطوط هم فلاسفة عقلانيون يجرّدون الجواهر من موادّها».

وهكذا، بمجرّد أن يخرج الفنان من المخبر إلى المرسم وبمجرّد أن تخرج الألوان من التجربة المخبرية إلى التجربة الجمالية الإبداعية، ومن المطفة (Palette) إلى اللوحة... تصبح كل الافتراضات العقلانية لاغية

وتصبح أبسط المعادلات الحسابية خاطئة.

إنّ من قوة العمل الفنيّ الحقيقي أنه يقاوم دوما قدرة النقاد على استهلاكه... بل ومن خصوصية الفن وعظمته أن العمل الفني قادر على قول ما لم يقله الفنان ويفصح عما سكت عنه...

ولكن الكلمات تنسرب رويدا رويدا...

تخترق الزمن المستحيل

وتنبت بين الصخور زهور الأغنيات

والأمنيات

تحت غيم الخريف

وتنشب في الذاكرة اللون الأحمر

ثم تورق في عتمة اللوحة أشلاء الكلمات

ويشرق ضياء الفن كألوان قوس قزح...

ويحاصرنا وهج القصيدة في عمق اللوحة

إنها ملحمة الألوان في أعمق شاعريتها وغنائيتها الحية وهي تغادر عقلانية العقل لتقتحم شعرية الشعر.

وذلك أفق آخر في شخصية الفخفاخ، أفق سكتت عنه سيرته الذاتية فيما أفصحت عنه اللوحة... ولن أفصّل.



## المراجع والمصادر



(*) ألقيت هذه المداخلة في مجلس تكريمي من مجالس الفنون خصص للفنان رشيد الفخفاخ، المركز الثقافي لمدينة تونس، 15 ديسمبر 2006

1) Création et Patrimoine, Edilis et Beit El Hikma, 1992, p. 82.

2) Ibid, p. 83.

3) المفردة في الفنون التشكيلية، مركز الفن الحي لمدينة تونس، البلفيدير 1988.

4) Diderot (Denis), Traité du Beau et Autres Essais. Marabout Université,. (Belgique) 1973. chap. II, p. 69 : «C'est le dessin qui donne forme aux êtres, c'est la couleur qui leur donne vie».

5) Baudelaire (Charles), Ecrits sur l'Art, T. 1. Le Livre de Poche. Paris, 1971.

6) Op. cit.

7) Pierre Restany : Lyrisme et Abstraction. Editions Apolinaire, Milan, 1960.

8) Georges Mathieu : De l'Abstrait au Possible. Cercle d'Art Contemporain, Zürich, 1959, p. 34.

9) Dustel (Blaise), «Elément Vitesse», Le Matin d'ENVERS, 1961

10) Brion (Marcel), Age-Nouveau, Mars 1955, p. 80.

11) Baudelaire (Charles), Op. cit., p. 149.

# تجليات الذّات الحكائيّة وسيرذاتية الضّمير السردي

د. محمد صابر عبيد

يدخل كتاب القاص والروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي الموسوم بـ «أيّة حياة هي؟ سيرة البدايات» (1) في نطاق فن السيرة الذاتية، وسبق له أن أصدر كتابا شبيها بعنوان «من ذاكرة تلك الأيام» (2) يدخل في باب السيرة الذاتية الثقافية ويقترب على نحو ما من فن المذكرات، وقد انتقيت فيه الأحداث انتقاء محسوبا وجرى تقديم الشخصيات الثقافية والأدبية على نحو مقصود يستجيب لرؤية الربيعي وموقفه من الأشياء ووجهة نظره بها.

ولعل «أغلب السيرالذاتية تكون ملهمة باندفاع إبداعي واسع الخيال بما يدفع الكاتب إلى عدم الاحتفاظ من أحداث وتجارب حياته إلاّ على تلك التي يمكنها أن تدخل ضمن بناء نموذج معيّن» (3).

الكتاب السيرذاتي الجديد «أيّة حياة هي؟ - سيرة البدايات -» يخلص لفن السيرة الذاتية إخلاصا تاما، إذ يسلّم للذاكرة النشطة الخلاّقة مقاليد السرد السيرذاتي ويعطيها كامل الحرية في رواية الأحداث، على نحو تتجلى فيه الذات الحكائية تجليا لتجعل من الضمير السارد ضميرا سيرذاتيا صافيا ومتطابقا تماما مع ما يسرده من أحداث. ولا شك في أن على الأديب أن «ينشئ سيرته الذاتية كما ينشئ العصفور عشّه، أو القندس خصّه، أو قل ربما تنشئ العنكبوت عَشها» (4) بكل ما يتطلبه ذلك من حرص ودقة وإيمان وإخلاص للذات والكتابة معا.

## فاعلية العتبات

تحظى العتبات في فن السيرة خاصة بقيمة تشكيلية وسردية عالية، لما لها من أهميّة كبيرة في رسم صورة السيرة الذاتية وتوجيه محتوياتها وتحديد منطلقاتها وتكريس دلالة الميثاق فيها، على النحو الذي يجعلها أكثر حيوية ودفقا وحرارة وإثارة وانتماء إلى اللحظات الثرية والخصبة في حياة صاحب السيرة وتجربته الإبداعية ذات الفرادة والتميز، وبما يجعل منها نصا جالبا للمتعة والفائدة في منطقة التلقي حيث ينفتح المتلقي/القارئ على سرد لتجربة حية يمكن أن يختبر ذاته وتجربته بها، ويفيد من معطياتها ورؤاها وتفاصيلها على صعيد الغنى القرائي الثقافي الذي يمكن أن يسلمه مفاتيح جديدة، تسهم في حلّ مشكلات أدبية وفكّ شفرات نصيّة في النصوص الأدبية لصاحب السيرة الذاتية. وبوسعنا أن نعاين عتبتين مركزيتين فاعلتين في «أيّة حياة هي؟».

العتبة الأولى: عتبة العنوان، التي اختارت لصياغتها نمطا شعريا من أنماط التأليف الجملي بأسلوب استفهامي

يتقصد الإثارة والتحريض على التأمل وتحفيز نظر المتلقي وذهنه لانتظار خطاب الذاكرة القادم، ولا يستهدف الحصول على إجابة ما.

فـ «أية حياة هي ؟» سؤال يستدرج المتلقي نحو منطقة تعد بالإثارة والتعدد والتنوع والمفاجآت، وتغريه بالاستسلام للسرد والوقوع في حبائله وشباكه، وهي تختزن ـ عبر صيغة الاستفهام الدالة ـ أحداثا ساخنة واعترافات مؤجلة.

إنّ الجزء الأول من عتبة العنوان «أية حياة هي؟» ينطوي على قدر عال من الإغواء لا سبيل إلى مقاومته، بما تعكسه من احتمالات تذهب إلى قطب السلب مثلما تذهب إلى قطب الايجاب، وتنزع إلى فتح هذه الاحتمالات إلى أقصاها.

ويحيل الجزء الثاني من العنوان «ـ سيرة البدايات ـ» على الفن السيرذاتي المرتبط بمرحلة زمنية معيّنة هي «البدايات» في منطقة العنوان حصرا تحتمل أكثر من قراءة وتقترح شبكة احتمالات لتحديدها الزمني في مسار التجربة والوعي والانجاز الابداعي والتكوّن الثقافي، لكن الكاتب ما يلبث أن يحدد ذلك فيما بعد بـ «الزمن» تحديدا.

أمّا العتبة المركزية الثانية: فهي عتبة التقديم، الموسومة بـ «هذا الكتاب...»، وتنهض على وصف رؤية العمل وتحليل صورته العامة، وتبدأ بعرض الفكرة وتحديد مفهوم «البدايات» وسبب الاختيار:

**قبل سنوات فكرت بكتابة جوانب من مذكراتي الشخصية، منذ الطفولة وحتّى التحاقي بمعهد الفنون الجميلة ببغداد عام 1957، وبذا أغطي حوالي 15 سنة أو أكثر «لا أستطيع ضبط الأرقام بالتحديد» أهميتها في كونها سنوات التكوين ثم إنّها مليئة بالأحداث سواء ما يتعلق بي شخصيا أو بمدينتي «الناصرية» والعراق كله** (5).

فالتفكير بالكتابة أولا سابق على وقتها «قبل سنوات فكرت بكتابة...»، والمحتوى السيرذاتي يتحدد بـ «جوانب من مذكراتي الشخصية»، ويتحدد مفهوم «البدايات» زمنيا بـ «منذ الطفولة وحتى التحاقي بمعهد الفنون الجميلة ببغداد عام 1957»، على النحو الذي يغطي زمنا يقدر بـ « حوالي 15 سنة أو أكثر» تقريبا، كان مبرر اختيارها مرهونا بأهميتها وقيمتها التاريخية، إذ كانت «مليئة بالأحداث» على الصعيد الشخصي «شخصيّا»، والبيئي «بمدينة الناصرية»، والقطري«العراق كله»، وبذلك تتعزز معظم المبررات الصالحة الداعمة لصحة هذا المشروع الكتابي وضرورته.

لكن هذه العتبة تختتم بإضاءات احترازية تبقى جزءا مهما من المسكوت عنه قابعا في الظل، لا تسمح به الأعراف والموضوعات الاجتماعية، وهو ما يخفف قليلا من وعد الإثارة والكامن في استفهامية عتبة العنوان «أيّة حياة هي؟»، في سعي من الكاتب لخلق موازنة تتيح له أن يكون صادقا بلا مشاكل وصريحا بلا تجريح:

**ومن جديد، أراني أعيد ما سبق أن كتبته في مقدمة كتابي الأول بأنني لم أكتب كل ما وددت كتابته، وما دمنا منخرطين في سياق اجتماعي هو اختيارنا الذي لم يجبرنا عليه أحد، مع أن حظ السارد وفرصته في تحرير ما عاشه ورآه من خلال نصوصه أكبر من المساحة المتاحة لمبدعين في مجالات أخرى.**

**لقد أردت في هذه الصفحات أن أكون صادقا وصريحا قدر الإمكان ليشكل كتابي احتفاء بالحياة التي نعيشها مرّة واحدة** (6).

تتجلى هذه الاحترازات في قوله «لم أكتب كل ما وددت كتابته» ليظل هذا الجزء المهم والمثير مما لم يستطع الكاتب تدوينه في طية الذاكرة/المسكوت عنه، بالرغم من فرصته الاستثنائية «في تحرير ما عاشه ورآه» التي تصطدم بما أطلق عليه السياق الاجتماعي، وقد سعى على الرغم من ذلك ـ حسب قوله ـ إلى «أن أكون صادقا وصريحا قدر الإمكان».

لكن المساحة مع هذا التحديد كانت مرنة وحيوية وفاضت بقدر معقول من الصدق والصراحة، مع

الرغبة ـ القراءة ـ في إضافة صفة «الجرأة» إلى الصدق والصراحة، لتتسع دائرة الرغبة في تحرير أجزاء أخرى من المسكوت عنه ومواجهة السياق الاجتماعي الذي بات اقتحام قداسته ضروريا وممكنا.

## فضاء الحكي : من إدارة الأحداث إلى رسم العناصر

يخضع فضاء الحكي في «أية حياة هي؟» لإدارة دقيقة ومحسوبة لحركة الأحداث ـ انتقاء وتوجيها ـ، عبر مصالحة بين رؤيا الراهن الناظر ومكنز الذاكرة المنظور، على النحو الذي يجعل الأحداث تسري في المجال الحيوي السردي بكل نشاط ودينامية ومرونة، تحت فيض من الأضواء وصفاء مذهل في تصوير الكاميرا، وقد آزرها وفعّل عملها مصور رسام يزاوج بين رشاقة الحركة السينمائية في الحدث السردي السيرذاتي وتجسيد العنصر السردي ووضوحه داخل المشهد.

أكثر عناصر التشكيل السردي السيرذاتي خضوعا لتجليات فضاء الحكي من إدارة الأحداث إلى رسم العناصر هي «الشخصيات»، إذ حفلت بالتعدد والتنوع والتداخل على نحو أفقي وعمودي، وقد نشرت ظلالها على بقية العناصر وعمّقت حضورها السردي في شاشة السيرة الذاتية، وهي تنفتح في عرضها على كشف سردي يكتظّ بالحكي استنادا إلى آليات قص برع فيها الربيعي، ولنعاين هذا المقطع على سبيل المثال:

**مرة سألت والدتي، لماذا لا تغادر جارتنا أم هاني بيتها؟ ولماذا تغطي وجهها ببرقع شفاف حتى وهي في منزلها؟ فكان جوابها : إنّها «محصنة». وكانت أم هاني زوجة لبدوي أقام في المدينة حيث عمل في الشرطة الخيالة، وما زالت أذكر اسمه الغريب «ضيغم» وهو اسم جاهلي... كان طويلا نحيفا لكنه قوي البنية، ،كنا نراه في بعض الأحيان وهو يمتطي جواده مع رفاق آخرين له ليمضوا نحو القرى والمدن الصغيرة التي لم تكن مرتبطة بالمدينة بأية وسيلة مواصلات، وكان هؤلاء الشرطة الخيالة هم من يطبقون قانون الحكومة على العشائر والقرى التي تكثر فيها الحوادث وجرائم القتل والثأر لأتفه الأسباب. أمّا المحصنة الثانية في زقاقنا فتسمى «أم خزنة» ـ والخزنة هي الخزينة ـ وقد سميت بهذا الاسم كما سميّ زوجها «أبو خزنة» رغم أنهما لم يرزقا بأولاد.**

**ولكن ما سمعته أن السبب هو في امتلاكها لذهب كثير (7).**

وكان لرسم «المكان» السردي السيرذاتي وهندسته حضور طاغ في تشكيل فضاء الحكي، وقد تمفصل بين مدينتي «الناصرية» و«بغداد»، إلا أن الوصف الديكوري لبنية المكان كانت تعمل بطاقة تشكيلية وسينمائية وديكورية تبرز وحدات المكان وتؤنسنه وتبعث الروح فيه، وبوسعنا تفحّص هذا المقطع الذي يجعل المتلقي لا يشعر بالإحساس الكامل بألفة المكان أو عدائيته فحسب، بل يعيشه ويتنفس هواءه:

**دخلنا مبنى «الكاظميّن» وفيه ضريحان لاثنين من الأئمة الإثني عشر، وحول الضريح مساحة فارغة ومن ثم مجموعة من البيوت ‹الغرف› الصغيرة التي هي أشبه بالمكتبات لبعض رجال الدين، وقد امتلأت الساحة بالنساء والأطفال الذين جلسوا على بسط وحصران فرشوها على الأرض بعد أن فرغوا من أداء الزيارة والصلاة. واستخرجوا ما حملوه معهم من أطعمة وبدأوا الأكل. كان الاكتظاظ كبيرا، ومع هذا ارتأينا أن ندخل، ولم يكن مسموحا الدخول بحذاء بل عليك أن تخلعه وتسلمه لرجل لديه مجموعة رفوف خشبية مرقمة يستلم منك الحذاء ويعطيك الرقم، ويسمى «الكشوان»...**

**لم أكن أتوقع أن يكون المكان بمثل هذه الفخامة، أبواب من الذهب والأخشاب الثمينة مصنوعة بحرفية عالية لا مثيل لها، وكذلك الخطوط التي بلغ فيها الخطاطون ذرى من الإبداع النادر، وكلّها لآيات قرآنية وأحاديث نبوية، أمّا السقوف فمزيّنة بالفسيفساء والأحجار الكريمة التي لا تقدر بثمن وكذلك الثريات الكريستالية ذات الأشكال العجيبة... (8)**

أما رسم «الزمن» فهو الآخر تعدد وتنوع بتعدد وتنوع تقنيات الزمن في السرد وخضع لآليات الراوي السيرذاتي في الاسترجاع و الاستباق والتخليص والحذف، كلّ ما يتصل باللعبة الزمنية التي تحيل فضاء الحكي على فضاء مشبع بالطراوة والمشهدية والمتعة وإغواء القارئ وشدّ للتواصل والمتابعة.

ومما حقل به رسم الزمن أحيانا الاستغراق التفصيلي في أحداث وجدها الراوي جوهرية ومركزية في تكريس وضع سيرذاتي معين، إذ نجد زمنا محددا بيوم واحد مثلا يستغرق عددا كبيرا من الصفحات وكأنّه يسترجع ساعات اليوم كاملة ساعة إثر ساعة (9).

ويخضع رسم «الأحداث» للآليات ذاتها وهي تسهم إسهاما أساسيا في شحن فضاء الحكي السيرذاتي بطاقة حيوية لا تغيب فيها حساسية القاص والروائي والشاعر أحيانا، فضلا عن الرسام، إذ كانت الأحداث تخضع لفعل تصويري غاية في الدقة والإحاطة والنمو الحدثي، على الرغم من أن الفضاء الأجناسي للسيرة الذاتية يبقى حاضرا ومتمسكا بخصائصه النوعية، لكنه لا يأل جهدا في الإفادة من أيّة إمكانية فنية تساعد في تطور الأنموذج الحدثي وتفعّل من سرديته ودراميته، وظلت هذه السمة مهيمنة على كل فصول السيرة الذاتية من أولها إلى آخرها.

## القصديّة السيرذاتية : من الذاكرة إلى الفكر

يتكشف «الميثاق» عادة عن قصدية سيرذاتية تلزم المتلقي باستقبال الكتابة ضمن إطار هذا الجنس الأدبي، وتنحو هذه القصدية منحى واضحا في تفعيل سردية الكتابة السيرذاتية باتجاه الإجابة على أسئلة الذات السيرذاتية الساردة في دائرة آليات وقواعد وقوانين الفن السيرذاتي، وتنشئ نوعا من العلاقة الوثيقة بين انتقاء الأحداث من الذاكرة عبر إخضاعها لوعي الحال الراهنة في الكتابة، ودعمها بقوة فكر تجعل من رواية الأحداث المستدعاة من مكنز الذاكرة وسيلة أسلوبية لاستحداث عفوية مقصودة، تسعى من جهة إلى عرض الحادثة السيرذاتية في شاشة الكتابة بأقصى ما يمكن نقله من حيوية وحرارة وطرافة، وضبطها من جهة أخرى بقصيدة تقانية تحافظ على هندسة التشكيل داخل الفضاء النوعي لفن السيرة الذاتية.

اشتغلت السيرة الذاتية «أية حياة هي؟» على هذا المفصل السيرذاتي عبر أكثر من تقانة وآلية ومساق أسلوبي ودلالي ورؤيوي.

كانت الأنا السيرذاتية الساردة في معظم أجزاء السيرة محكومــة في بنــاء أنموذجها ونموه وتطــوره والكشف عن خصائصه ودواخلها وصفاته بــ«الآخر»، إذ كان «الآخر» أشبه بــ«مرآة» مصاحبة تعكس صورة الأنا وتشتغل بوصفها منبها لا يكتفي بالعرض بل يتجاوز ذلك إلى التوجيه والمساءلة أحيانا:

**كان الزحام يصطدم برأسي كالحجارة، وكنت مندهشا من الحركة، ومن الشجارات والزعيق... وتتلاحق أسئلتي على منقذ الذي كان منقذا فعلا، حتّى وصلنا إلى الجسر العتيق ـ هكذا يسميه الناس ـ ربما لأنّه أقدم جسر يربط جانبي الكرخ والرصافة، وربما له اسم رسمي لا يستعمله الناس بدأنا بعبوره فهو متين وثابت، وليس مثل جسر مدينتي عائما على طوّافات غالبا ما تجرفها تيارات النهر بعيدا فنجد المدينة بلا جسر. وبدأت أتنفس شيئا من الهواء النقي وتطلعت إلى ضفاف النهر يمينا وشمالا فوجدتها مكتظة بالمباني التي وصل البعض منها إلى حافة النهر. وبعد أن عبرناه أشار منقذ إلى سوق تقع على اليسار مباشرة، وكانت مسقوفة بسقوف شبيهة بسقوف الأسواق العربية بما فيها أسواق تونس العتيقة ودمشق والقاهرة ومراكش وفاس «وهذا ما سأكتشفه بعد ذلك بسنوات». ثم أشار منقذ إلى اسم فندقي وقد ظهرت لافتة تشير إلى أنه في داخل الزقاق وقال:**

**- لقد وصلت، سأمر بك لنتجول معا، وعندما أقبل في الحقوق وتقبل أنت في معهد الفنون الجميلة، لابد وأن**

**نكون صديقين. ثم صافحني ومضى بكل طيبة وأريحية أبناء البصرة التي سأعرفها لاحقا (10).**

ولا شك في أن سمة الجرأة والجسارة التي حفلت بها السيرة كانت من الملامح الأساسية التي امتازت بها، إذ حاول الراوي ـ بالرغم من تحفظاته التي أوردها في «عتبة التقديم» ـ التحرش بالكثير من الممنوعات والمحرمات، وأظهر جوانب مهمة من العالم الباطني السريّ لمدينة «الناصرية/بغداد»، وكشف النقاب عن شخصية العراقي الاجتماعية والنفسية والحضارية في هذه المرحلة الزمنية الخاصة في تاريخ العراق الحديث، وأحسب أن هذا الأنموذج الشخصاني الذي رسمه الراوي يمكن أن ينطبق على الإنسان العراقي في كل مدن العراق تقريبا، مع اختلافات نسبية ـ ليست عميقة ـ بين عراقيّي الشمال والوسط والجنوب عموما.

ولعل الغزارة التي اتسم بها حضور الموروث الشعبي كان من أبرز الظواهر اللافتة في سيرة «أية حياة هي؟»، لفرط اتساعها وتنوعها وتفصيلها وارتباطها الصميمي والعضوي بشخصية الإنسان العراقي، وهو ما اهتم به الربيعي كثيرا في مدونته القصصية والروائية، إذ لا تكاد تخلو صفحة واحدة من صفحات السيرة/الشهادة من إشارة أو موضوع أو حالة تتعلق بالموروث الشعبي الشديد الكثافة والقوي الحضور بكل خصبه وغناه وثرائه، حتّى يمكننا القول إنّ سيرة «أية حياة هي؟» هي سيرة الموروث الشعبي لمجتمع الخمسينيات والستينيات العراقي، حيث قدمت خارطة ناطقة ومصورة وملونة لهذا المفصل الحيوي في حياة الإنسان التي لا يمكن إطلاقا فهم السيرة وتلقيها من دون الغوص فيه وإبراز حضوره الإنساني والحيوي اللافت:

**ذكرت بأن جدّتي بسمة ما أن تصل حتّى تبدأ في البيت حيوية كبيرة، وتبدأ النساء من قريباتنا بالتردد على البيت للسلام عليها، وكان قوري «براد» الشاي الكبير المصنوع من الخزف على النار دائما، ما إن يفرغ حتى يمتلىء وأحب هنا أن أذكّر بأنّ هذا النوع من الأواني الخزفية معرّض للكسر والتشقق، وكان هناك رجال يدورون في أزقة المدينة ومهنتهم إعادة ترميم هذه الأواني بواسطة أسلاك حديدية تجعل مقاومتها كبيرة حتّى عندما تسقط على الأرض.**

**وكانت المادة المصنوعة منها الأواني الخزفية تسمّى «فرفوري» وتجاورها الأواني النحاسية الثمينة التي لم يدرك الناس قيمتها إلاّ بعد سنوات حيث تحولت إلى تحف نادرة. لقد بدأ الناس ببيعها والتخلص منها ما إن ظهر الألمنيوم ومن ثم البلاستيك، لأن الأواني النحاسية «في العراق يسمونها صفر» تحتاج إلى صيانة مستمرّة لتنظيفها من بقايا النار والصدأ، وكانت هناك سوق كاملة تسمى الصفارين أو الصفافير في كل مدينة، وسوق الصفافير في بغداد تعد من المعالم السياحية للمدينة القديمة التي تجذب إليها السياح، وفي أواخر السبعينيات من القرن الماضي أعيد بناؤها وفق الطراز المعماري التي كانت عليه، وعادت الحياة لمهنة كادت تنقرض. كنت أتابع جدّتيّ بفضول غريب وهما تطببان بعضهما حيث تشكو كل واحدة للأخرى ماذا يوجعها وبماذا تحس. وكانت جدتي حسنة تشكو من آلام في كتفيها، فأرى جدتي بسمة وهي تقوم بتشريط مكان الألم بموس الحلاقة وبخفة ومهارة، وكان الدم يتدفق فتمسحه بقطعة قماش نظيفة. كان هذا العمل يدعى «الحجامة». وهناك مثل شائع يقال لمن يباشر عملا لا يعرفه يقول: «يتعلم الحجامة بروس اليتامى» (11).**



وتكشف روحية الكتابة في هذا الإطار عن عقل اجتماعي وفكري وإنساني منفتح على لغة المحبة والتسامح والتعايش، التي كانت تتمتع بها الشخصية العراقية عبر أنموذج الذات السيرذاتية الساردة والناقلة بأمانة ووعي للأحداث، والمصورة بدقة لواقع الحياة العراقية إبان تلك الفترة التي شملتها السيرة.

## تقانات السرد السيرذاتي:

تتداخل تقانات السرد السيرذاتي تداخلا كبيرا مع أنماط السرود الأدبية المختلفة الأخرى ولاسيما الرواية،

وذلك لأنّ فن السيرة الذاتية يمثل فرعا رئيسا ومهما في شجرة السرد القصصي، وتبقى مادتها مرجعا وممولا أساسا ومركزيا لبقية أنواع السرود.

لذا فإنّ البحث في تقنيات هذا السرد يفيد كثيرا من المنجز النقدي النظري الخاص بتقانات السرد الروائي والقصصي، إذ ينهض على إدراك أفضية هذه التقانات وصيغها ومجالات عملها في عموم النظريّة السردية الخاصة بسياق انتقاء الأحداث، وأسلوبية عرضها، وطرق بنينتها.

ولعلّ من أبرز ما يمكن فهمه في هذا الصدد هو معرفة أنّ «التتابع الطبيعي في عرض الأحداث حالة افتراضية أكثر مما هي واقعيّة لأنّ تلك المتواليات قد تبتعد كثيرا أو قليلا عن المجرى الخطي للسرد» (12)، مما يدفع إلى معاينة الزمن السردي في السيرة الذاتية بعيدا عن منطق التتالي الواقعي للأحداث، مع عدم تجاوزه كليّا، لأن فن السيرة الذاتية يخضع على نحو ما لنوع من التكافؤ بين المرجع الواقعي والبنية المتخيلة (13)، والانفتاح على شبكة تقانات تتقدمها تقانات الاسترجاع والاستباق اللتين وضعهما - جيرار جينيت - على يمين ويسار درجة صفر السرد الزمنية، تلك الدرجة التي تقع بين الاسترجاع العائد إلى الوراء والاستباق الذاهب إلى أمام (14).

ولا شك في أن حساسية اللعب/التلاعب بالزمن السردي في هذا المضمار من شأنه أن «يخدم الأغراض الجمالية والفنية» (15) السرد السيرذاتي.

فضلا على هاتين التقانتين فثمة تقانات أخرى كالوصف بأنواعه، والحذف بأنواعه، والخلاصة بأنواعها، والحوار بأنواعه، تعمل جميعا على نقل السرد السير ذاتي من حرفيته وخطيته في تقديم وقائع الحياة المنتخبة وعرضها، إلى تفعيل ذلك باتجاه خلق أنموذج أسلوبـــي لنوع ســردي يبتغي إنشاء جماليات خاصة به تعزز مكانته النوعية - الأجناسية من جهة، وتؤثر في توجيه التاريخ الأدبي ودفعه إلى مسارات جديدة دائمة النمو والتطور.

وإذا ما عاينا سيرة «أيّة حياة هي؟» الذاتية استنادا إلى هذه المعطيات والمقومات التقانية في تجليات السرد السيرذاتي وتمظهراته، لوجدناها حافلة بكل هذه التقانات من دون افتعال وتجنّ على انسيابية السرد السيرذاتي ومرونته ورشاقته، إذ جاءت في معظم أشكالها استجابة لدواع فنية تتلاءم مع طبيعة الحادثة السيرذاتي المقدمة وأهميّتها وحضورها وقيمتها في مسارات الفضاء السردي، خضوعها لأسلوبية البناء الفني وضروراته السردية، والطريقة الكتابية التي اعتمدها الكاتب خارج ميدان السرد في علاقته بالراوي الذاتي المتسلم مقاليد السرد، وحلوله في الشخصية الناطقة المسهمة في خلق الأحداث وتسييرها وتنظيم حركة السرد داخل فضاء الحكاية السيرذاتية.

واتّسم الاستخدام التقاني في «أيّة حياة هي؟» بانتقاء شديد الخصوصية للحظات والحالات الإنسانية التي تتمتع بدفء حيوي استثنائي، كان ثمرة وعي سردي وإنساني للكاتب عزز القيمة الفريدة لهذا النوع من السرد القصصي:

**كان فصل الشتاء يخيفنا داخل بيوتنا ولم نكن نخرج منها إلاّ عندما تتسرب الشمس إلى الزقاق، إذ لا أجمل من الشمس مصدرا للدفء وأذكر أن معلّم الرياضة «ذياب» كان يخرجنا في الشتاء القارص لساحة المدرسة وهو يقول الشمس تأتيكم بفيتامين (c) وكل نصف ساعة تتشمسون فيها كأنّكم أكلتم برتقالتين. لذا عندما نخرج من الصف نظل نصرخ: إلى البرتقال. ولم يكن زقاقنا مبلطا لذا نتعذب كثيرا عند نزول المطر، وكانت بعض البيوت المسقفة بالجذوع والحصران تخرّ على أصحابها... وكم من بيت تهاوت جدرانه أو سقط سقفه على أصحابه. لكننا نمكث جالسين على دكات الأبواب طويلا بل سرعان ما يقترب الأولاد من الأولاد والبنات من البنات. كانت ألعابنا بسيطة جدا، وغالبا ما نتخلى عنها لنجتمع ونستردّ ما سمعناه من حكايات حول أحداث الزقاق التي لا تخفى، فالجدران التي تفصل البيت عن الآخر كانت واطئة وبإمكان أي امرأة أن تنادي جارتها باسم ابنها أو ابنتها الكبيرة «الكثيرون يفضلون مناداتهم بأسماء أبنائهم**

الذكور حتّى ولو كانوا صغارا». وتبدءان حديثا قد يستمر فترة طويلة وأحيانا تتسلق كل منهما طاولة أو ظهر المهراس الكبير الذي يسمونه «الجاون»، وكانت النسوة يستعملنه بطريقة غاية في الجمال، إذ يتحزمن بعباءاتهن ويمسكن بيد المهراس وينزلنها في قاعه بإيقاع جميل، ومن كلماتهنّ التي يتغنين بها عند أدائهن لهذا العمل صيغت أغان اعتمدت ما يتفوهن به مطلعا، ومازلت أذكر تلك الأصوات وبعضها غاية في العذوبة، وهي تقول ما بين رفع يديها بيد المهراس، وإنزالها في قاعه: «هاي وهاي وهيه» وللمغني الشهير سعدون جابر أغنية مستوحاة من هذا المقطع وتقول كلماتها: «هاي وهاي وهوه شوفوا بحالي إشسّوه» (16).

وسخّر الراوي عدسة كاميرا مشحوذة بدقّة وأناة وحرفنة لتفتح عينا واسعة وملونة على الأحداث تصورها بكل دقة وشمولية وإحاطة، وتجعل من الراوي شاهدا ومشاركا وفاعلا على نحو مركب لكنّه سلس ورشيق وغير معقد، تنساب الأحداث السيرذاتية بين يديه بكل بساطة وعفوية وتدفق.

## أسلوبية التعبير: اللغة والكتابة:

نهج الكاتب في أسلوبيته التعبيرية نهجا خاصا سعى من خلاله إحداث موازنة بين حاجات الفن السيرذاتي إلى لغة تعبير يتوافر فيها عنصر الحجاجي الإقناعي تلاؤما مع المرجعية الواقعية للأحداث، وهو ما ولّد نمطا متداخلا من الكتابة ذهب إلى المزج بين خطابين أحدهما يتحرك في دائرة التعبير المنطقي الواقعي، والآخر في دائرة المتخيّل الذي يجعل الكتابة كتابة أدبية.

ولعل اتسام لغة سيرة «أية حياة هي؟» الذاتية بالبساطة التعبيرية بكلّ ما تتمتع به من انسياح وتدفق ورغبة في الإضافة، أنجز على نحو ما خطابا سيرذاتيا يقوم على لغة خاصة تستجيب لكل المتطلبات التي تقتضيها حساسية الكتابة السيرذاتية وتفرضها على هذا النوع السردي:

وعبرت ساحة الميدان، ثم تذكرت أحمد الباقري وصوته الرخيم، وهو يضع يده على كتفي ويردد بناء على إلحاح مني أغنية عبد الحليم حافظ «على قد الشوق»، ونحن نتمشى على شاطىء الفرات كل مساء لنستعرض بعض فتيات مدينتنا اللواتي تسمح لهن أسرهن بالتمشي مع صديقاتهن على شاطئ النهر لشم الهواء البليل، وكم كان البعض منهن ماكرات مع الشبان إذ إنهن يتعمدن فتح عباءاتهن السوداء التي يتلفعن بها، بحركة تبدو وكأنّها حصلت بشكل عفوي، فنكتشف ما تخبىء هذه العباءات من كنوز الجسد وثماره البهية، وكنا نسمعهن الكلام ولكن بكل التهذيب، وكان غزلنا الأبيض يطربهن فيتمادين، ولذا نلاحقهن... حتّى بيوتهن، فتكون حركة «تصبح على خير» فتحة من العباءة أوسع من تلك التي تحصل على الشاطئ مع استدارة كاملة نحونا قبل أن تفتح باب البيت. كانت واحدة تفعل بنا هذا «أحمد الباقري وأنا» لذا كنت أتساءل: من المقصود فينا؟ فيقول أحمد: طبعا تقصدنا معا، جسد جميل مأسور، وفتاة ترتدي أجمل الفساتين وبأحدث الموضات، ولا تجد من تريها له «هذه الفتاة سأكتب عنها في روايتي «خطوط الطول... خطوط العرض»» إذ تسنى لي فيما بعد أن أعرفها عن قرب وأن أسمع بنهايتها المأساوية محترقة» (17).

تتكشف أسلوبية التعبير هنا عن فضاء استنطاقي للحالة عبر الاجتهاد في انتزاعها من مساحات الذاكرة وزرعها في مشهد الكتابة بكل حيويتها وبهائها وانفتاحها، للوصول إلى خطاب سيرذاتي نوعي يأخذ من آليات الكتابة التاريخية منطقها وإحاطتها ودقتها وفضاءها لكنّه ينأى بعيدا عن الامتثال الكامل لقواعدها التعبيرية إلا أنّه ينسحب خارج سلطتها في إمكانية تحويلها إلى سرد صاف.

وبذلك تنجح سيرة «أية حياة هي؟» الذاتية في الانتماء الصميمي إلى نوعها السردي، محققة في أسلوبيتها التعبيرية أهم جماليات هذا النوع وخصائصه وميزاته الفنية الكتابية.

## الهوامش والاحالات

(1) أية حياة هي -سيرة البدايات- عبد الرحمن مجيد الربيعي، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2004.

(2) من ذاكرة تلك الأيام - جوانب من سيرة أدبية - عبد الرحمن مجيد الربيعي، منشورات دار المعارف، سوسة (تونس)، 2000.

(3) السيرة الذاتية - الميثاق والتاريخ الأدبي - فيليب لوجون، ترجمة وتقديم عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط 1، 1994 : 93.

(4) السيرة الذاتية، جورج ماي، تعريب محمد القاضي وعبد الله صوله، الموسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، 1992: 165.

(5) أية حياة هي : 5.

(6) م.ن : 9.

(7) م.ن : 107 - 108.

(8) م.ن : 368 - 371

(9) ينظر الفصل (17) من السيرة «أية حياة هي؟»، من : 299 - 399 ، إذ ينشر على مساحة 100 صفحة تقريبا أحداث أيامه الأولى في بغداد.

(10) م.ن : 311 - 312

(11) م.ن : 146 - 147

(12) بنية الشكل الروائي - الفضاء، الزمن، الشخصية - حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت -الدار البيضاء، ط 1، 1990 : 109.

(13) قراءة في أية حياة هي، صلاح الدين بو جاه، مجلة (الحياة الثقافية)، العدد 171، السنة 31، تونس، 2006 : 128.

(14) ينظر خطاب الحكاية - بحث في المنهج -جيرار جينيت، ترجمة مجموعة من النقاد، المشروع القومي للترجمة، ط 2 القاهرة، 1997 : 47.

(15) سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات، خليل شكري هياس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001 :232.

(16) أية حياة هي : 70 - 71.

(17) م.ن : 410 - 411.

# مرايا النّرجس
# في القصة التونسية القصيرة (*)

محمـــود طرشونـة

تتعدّد المرايا والصورة واحدة، وتتقابل أوتتقاطع في المكان فلا يغيّر تقابُلها ولا تقاطعها ما ينعكس عليها من الصور، لكن المرآة الواحدة إذا انكسرت أوتهشمت فإن الصورة، تتعدّد وتتنوّع حجما وشكلا فلا تبوح بحقيقتها إلاّ إذا لُمَّ الشتات وحلّ التركيب محلّ التفكيك. فيوم انهمرت دموع نرسيس على صفحة الماء تعدّدت المرايا لكنها لم تعكس غير صورته. وتلك هي مأساته. لم يكن نرسيس واعيا بهويّة صاحب الصورة المنعكسة على صفحة الماء، كان يظنها لغيره، للحورية إيكو. وكانت صورته في منتهى الجمال فعشقها مبتهجا بأنّه أخيرا اكتشف الحبّ بعد أن كان يرفضه ويصدّ عشاقه الكثيرين ويخنق كلّ عاطفة مقصدها الغير إلى أن وقع في حب ما توهمه غيرا. لذلك نرى أن نرسيس لم يُفهم على حقيقته، فاتّهم بالأنانية والكبرياء والصّلف وبعشق الذات والنفور من الآخر، وبجمود العاطفة وعدم القدرة على الحبّ. والواقع أنه عكس ذلك تماما لا يحب إلّا غيره والدليل على ذلك أنه يوم اكتشف أن الصورة المنعكسة على صفحة الماء لم تكن غير صورته، وعى أنه كان واهما وأنّ انفتاحه على الغير كان باطلا فأخذ يضرب صدره بكفيّه المرمريتين تفجّعا إلى أن سقط في الماء ميّتا. فغابت الصورة وصاحب الصورة، ولم يبق غير الماء مرآة تعكس العدم. وكان لابدّ من القضاء على العدم فنبتت مكان سقوط نرسيس تلك الزهرة المنتصبة في شموخ وكبرياء، بيضاء رائعة الجمال متعدّدة في وحدتها، زهرة النرجس التي شحنت فيها بعد رموزا لا حصر لها، تختلف باختلاف المواقف والقراءات فلا يغير الاختلاف من طبيعتها ولا من صورتها لأنها باقية بقاء الماء وبقاء الكون وبقاء المرايا والأساطير.

كان لابدّ من هذا التوضيح لما راج عن أنانية نرسيس وعشقه الذات باطلا لنفهم صورة الرجل على حقيقتها في القصة التونسية المعاصرة انطلاقا من مجموعتين قصصيتين صدرتا في نفس الفترة (2003) الأولى لامرأة (فوزية العلوي) بعنوان «طائر الخزف» والثانية لرجل (محمود بلعيد) بعنوان «شكرا أيّها اللّص الكريم». وليست غايتنا من تنويع الجنس معرفة موقف كلّ من الكاتبة والكاتب من الرجل وصورته، فهذا أمر لا تبوح به النصوص واستنتاجه يكون من قبيل الإسقاط، بل نسب الصور والمواقف إلى الشخصيات المتحركة داخل النصوص وإلى الساردين والساردات لحكايات الرجال والنساء بضمير الغائب أحيانا وبضمير المتكلّم غالبا،

(*) نص مداخلة في ندوة «صورة الرجل في القصة القصيرة بتونس» نظمها نادي أدباء خمير بطبرقة يوم 6 جويلية 2006.

والمتكلم ضمير دالّ يخول للسارد الغوص في ذاته دون تعميمها على سائر الذوات.

وفي ضوء هذا التوضيح المنهجي يمكن أن ننظر في رؤية الرجل للرجل، ورؤية الرجل لذاته، ونظرة المرأة للرجل، ورؤية المرأة للمرأة، ورؤية المرأة لذاتها، قال الله تعالى: **«وفي أنفسكم أفلا تُبصرون»** والآية مقطوعة من سياقها تحثّ على سبر الذات ومعرفة النفس لكم مقصدها يدل على هذا لا محالة لكن يتجاوزه إلى معرفة الخالق. فقد ربطت الآية الحادية والعشرون من سورة «الذاريات» بين معرفة الكون ومعرفة النفس من جهة، ومعرفة منشئ الكون ومنشئ النفس من جهة أخرى: **«وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟»**

## 1 ـ صورة الرجل في مرآة الرجل.

جاءت جلّ قصص محمود بلعيد بضمير المتكلم. فالسارد فيها جزء من الحكاية، لا تظهر الشخصيات من زاوية رؤيته فحسب بل هويساهم في الأحداث ويعيش الأوضاع ويتخذ مواقف منها، يرويها في لهجة هزلية لكنها غير ساخرة. فقصّة «شكرا أيها اللص الكريم» التي تحمل كامل المجموعة عنوانها مبنية على مفارقة غير عجيبة لأنّ مفاتيحها معلقة في أحداثها وخاصة في نهايتها. فعنوان كهذا يثير استغراب القارئ وفضوله إذ كيف يعقل أن يشكر اللصّ على ما اقترفته يداه بل كيف يُعقل أن يبالغ السارد في تقريضه وتمجيده ويدعوه إلى تناول الغداء في بيته رغم أنه تسلّل إلى مسكنه ليلا عبر السطوح وسرق جهازين إلكترونيين وتسبّب له في مشاكل مع بعض أفراد أسرته فصار يبحث عنهما في الأسواق والمحلات التجاريّة ؟

لقد ظهر اللص في مرآة السارد في صورة مشرقة جدّا. فهو لصّ متميّز صاحب ذوق رفيع، شهم، يجد بكل مهارة وذكاء، صاحب خبرة، يمر كأنه ملاك، حذر ظريف صاحب دم خفيف يقوم بعمله على أحسن مايرام، أحيانا يخاطبه السارد في لهجة غنائية: «يا فارس السطوح [. . .] أنت حقا شهم مقدام وصاحب أنفة وأنف طويل، ونظرة وطول وعرض، وشعر أسود منتفش غزير، هائج فوق الرأس منحدر على الجبين» (1). والواقع أن السارد لم ير اللص ولو مرة واحدة في حياته لكنّ أعماله أوحت إليه بهذه الصورة فأضاف هذا التوضيح: «**هكذا أتصورّك ولا أتصوّر غير هذا التصوّر، في مقتبل العمر، بين العشرين والثلاثين، بل بين العشرين والخامسة والعشرين**» يلبس «بلوزان من الجلد الأسود وسروال دجين وسبادري أبيض، في صحة جيدة، خفيف الحركة» ثم يؤكد: «**وهذا ما يخبرني به قلبي وينبئني به شيطاني، لص طيب وصاحب قلب كبير**» (2).

وللّص بالطبع صورة أخرى بشعة في عيون ضحاياه والسارد أحدهم لكنها ظهرت في حالة غضب إذ سرعان ما زالت ولم تبق غير الصورة الإيجابية. وفي النهاية يفكّ لغز هذه المفارقة: إن تقريض السارد اللص مأتاه اعتراف بجميله. فقد كانت سرقة جهاز الليزر مصدر سعادة كبيرة شعر بها السارد يوم عثر في بعض الأسواق لما كان يبحث عما سرق من بيته، على لوحة زيتية جميلة جدا اشتراها بثمن بخس عاد بها إلى منزله مبتهجا يقول: «كنت اغلق مكتبي وأختلي باللوحة. . . وتمضي ساعات وأنا من أسعد خلق الله في هذه الدنيا» (3). وبذلك كانت النهاية بحق لحظة مكاشفة فسرت كل ماسبق سرده في ما يقارب الأربعين صفحة. فكانت تلك الصفحات الأربعون بأكملها تمهيدا لهذه المفاجأة التي ختمت بها القصة فزالت المفارقة وحُلّ اللغز وفُهم موقف السارد الايجابي ممن ألحق الضرر به وبابنته.

وتعاطف الراوي مع بعض شخصياته غير خاف حتى في القصص التى لا يشارك في أحداثها مثل قصة «العصفور»، فالحياد متعذر خاصة إذا كانت الشخصيات في مثل شخصية العصفور، مرحا محبا للحياة والرقص والغناء رغم التقدم في السن. فهذا شيخ ولوع بالنساء يفرط في معاشرتهن ويتمتع برواية مغامرته معهن لشبان في أحد المقاهي معجبين بمرحه وبحبه للحياة بل يتلقون منه دروسا في نعم الدنيا المسمى «الشيخ نعيم». وما لقب

بالعصفور إلا لأنه يماثله غناء وطربا. وإن مكانه الطبيعي ليس في هذا المقهى الذي يؤمّه شبان في سن أحفاده بل في مقهى آخر يؤمه المتقاعدون والشيوخ أمثاله. لكنه يتبرأ منهم بقوة: «**أبعدني الله عن الشيوخ، وأنا بريئ منهم ومن ذنوبهم. وذنوبهم لا تحصى. ولوأجلس دقيقة واحدة بينهم أنقلب شيخا مثلهم**»(4). وجاء هذا الموقف صارما بعد مقارنة طريفة بينه وبينهم: «أنا يا شباب في واد وهم في برْكة. أنا أحب الغناء الطرب، وهم يحبون الجمود والحكايات التي آكل عليها الدهر وشرب. وأنا مازلت آكل واشرب وأتمتع بالحياة، ولي معها حسابات [. . .] وهم مسامير صدئة، كلهم مسامير صدئة دون استثناء» (5). وهذا ما جعل أحد الحاضرين الشبان يكمل النعت: «أنت نار متقدة». وشيخ كهذا مولع بمعاشرة النساء لا يمكن له إلا تقريضهن والرفع من شأنهن لأن في دفاعه عن النساء دفاعا عن نفسه، وفي التغني بمحاسنهن تغنّ بمحاسنه. لذلك يعتبرهن «حوريات أصواتهن دعاء، وابتسامتهن وضحكهن تسبيح وترتيل» وسرهن ودلالهن حكمة الله في خلقه» ثم يضيف ممجدا ومعجبا: «ما أرحم قلوب النساء وما أوسع صدورهن يتحملن قسوة الرجال وشدتهم وبطشهم» [...] يحزنّ ويبكين أياما وليالي ويتغير لونهن ويصرن في لون الليمون بعدما كن في لون الورد، كما يذوين ويذبلن ثم لهن قدرة فائقة: فبعد الحزن الشديد [...] تنقشع الأحزان وينقلبن مزدهيات، مشرقات، كأنهن شموس أوكأنهن أقمار، بعد نزول الأمطار...» (6) لذلك عندما يرى إحداهن مارة أمام المقهى تكثر حركته وتتغير ملامحه ويضطرب وتتعدد زفراته ولا يملك إلا أن يقول: «الله يصبرني، أخاف ألا لا أستطيع الصبر لأنني عندما أشاهد الجمال والكمال، والحسن والدلال، يطير عقلي ويضطرب فؤادي وأفقد إرادتي وصوابي...» (7) هذا وجه الشيخ نعيم المحبوب، يحظى بإعجاب الراوي كما يحظى بود الشبان في المقهى لا يكتفي بالقول بل ينهض أحيانا من مقعده ويرقص طربا وينشئ مقاما مرحا. وهذه بالطبع مفارقة بنيت عليها هذه القصة أيضا.

فكان لابد من تفسير في خاتمتها، من لحظة مكاشفة تعيد الأمور إلى نصابها الطبيعي. وبعد خمس وأربعين صفحة من المرح والطرب والمجاهرة بالمغامرات الغرامية الحقيقية تأتي الأسطر الأخيرة لإحداث التوازن: «**ومرت الأيام ظل فيها العصفور خاليا [. . .] وصباح يوم من الأيام انتشر خبر بين الرواد همسا: «العصفور مات، فارق الحياة بين ذراعي فتاة من الفتيات الجميلات اللاتي يمررن أمام المقهى كل صباح**»(8). وهذا موت طبيعي لا محالة وموت جميل بين أحضان الجمال، لكنه خيانة للصورة المشرقة التي تبقى وحدها للعصفور بعد نهاية كامل القصة. فهل يكون الفناء ثمنا للتصابي؟

هذه نظرة السارد - وليس الكاتب - إلى بعض الشخصيات الرجالية وهي كما نلاحظ نظرة إيجابية جدا، مسامحة متعاطفة، يمكن تعميمها على قصص أخرى له مثل قصة «الوجه الآخر للمدينة» حيث يظهر عبد الحميد جار السارد «ظريفا لطيفا، سريع الحركات، طروبا لعوبا» جميلا (9) أوقصة «شيخان» حيث يظهر الشيخ الحبيب محبا للكمال قائلا عن نفسه: «كل شئ نحبه على أحسن ما يكون» (10).

أما نظرة السارد إلى نفسه فهي لا تختلف عن نظرته إلى بعض شخصياته. فهي أيضا نظرة ممجدة تناولت طريقته في السرد كما تناولت صورته المادية وطبائعه، فهو يخاطب اللص الكريم ويؤكد له أنه سيروي له القصة كما وقعت بكلّ صدق وبراحة بال...» (11) وبشيء من النظام ثم يضيف: «وسأعمل جهدي لتسلم من الخلط والخبط، ولتكون واضحة تمام الوضوح، خالية من الضبابية والغموض، رغم أنك صاحبها وناسج خيوطها ومصمّم هندستها وبنائها (12). وهذا في الواقع خيار فنّي ليس غريبا عن خيارات الكاتب في جميع قصصه. فهويعتبر نفسه من ورثة البشير خريّف وعلي الدوعاجي، وهوفعلا يجمع بين واقعية الأوّل وهزل الثاني. وكأنّه يتبرّأ ممّا يعتبره «خلطا وخبطا وضبابية وغموضا» (13). لكنه لا ينكر الاستطراد بل يقرّه ويعتذر لانتهاجه ويعتبره عيبا: «معذرة إن أحرجتك

بتساؤلاتي وعودتي ورجوعي إلى ما لا تودّ من الحديث والهمس والتلميحات وضرب الأمثلة وتعويض كلام بكلام أو أقوال بفعال، فذلك عيب وياله من عيب من بين جملة عيوبي وكم هي عديدة!» (14). والراجح أنّ هذا الاعتراف بكثرة العيوب ليس إلا من باب المجاملة والتواضع الزائف لأنه بعد ذلك مباشرة يثبت تمسكه بالمنطق، وما ذلك الاستطراد إلا من باب الاستثناء الذي يؤكد القاعدة: «**في تركيبة تفكيري شيء من المنطق مع بعض الشطحات أعمل دائما جهدي لكبحها**» (15). ثم يلحّ على شدة عزمه وإصراره ومثابرته على السعي إلى أن يحقّق أهدافه: «**من ناحيتي لا أعرف اليأس ولا القنوط وقد أقررت العزم على البحث بكلّ السائل والطرق**» (16).

وهناك صورة أخرى لسارد القصة «الوجه الآخر للمدينة» جاءت بضمير المتكلّم في شكل بوح يؤكّد تعلقه بالحرية في سلوكه وحياته اليومية والتعامل مع وجهه في المرآة: «أسير على الأقدام، لا تجارة تشدّني، ولا إدارة أركض إليها لأدخل بابها دون تأخير، حرًّا أتمتع بنفسي [...] أعزب، أعزل كغراب، أحبّ حياة الوحدة والانفراد، أرتدي السواد، وصاحب لحية هائجة [...] قليل الكلام، كثير الصمت» (17). ولا تعرف على أي معنى يدل قوله: «عندما أقف أمام المرآة أنطلق ضاحكا...» هل يكون سبب الضحك منظر لحيته الهائجة أم الرضا والإعجاب بالنفس وبالحرية التي كانت له بصفته وحيد أبويه. ولعلّ نظرته إلى المرأة ترجّح كفّة نرسيس المعجب بصورته في مرآة الماء، النافر من جميع عاشقاته: «**أكره النساء أكره بنات حواء. كلما وقعت عيني على إحداهنّ، وليتها لم تقع، أستعيذ من الشيطان...**» (18). وإذا تذكّرنا الشيخ نعيم الملقب بالعصفور وموقفه من الحوريات وجمالهنّ وعرفنا حبّه للحياة ولنفسه فهمنا أن السارد حسن يكره النساء بقدر كرهه لنفسه. وما إهماله لملامح وجهه إلا دليل على مازوشية نعتبر نرسيس والشيخ نعيم سليمين منها. وما أضافه السارد بعد موقفه من المرأة أكبر دليل على ذلك،

يقول: «**إنّي عديم الذكاء، بطيء الفهم، ثقيل الدم، كسول إلى حدّ بعيد، طويل العنق، كثيف اللحية كما قلت، طويل القامة، محدودب الظهر، بل أتكلّف الاحتداب، ناهزت الأربعين بلحيتي الهائجة رغم أنّني لم أبلغ الثلاثين من عمري**» (19). ومن حقّ المتقبل أن يعتقد بعد النظر في هذه الصورة أن قول الراوي بكره النساء مجرّد ادّعاء لتبرير نفور النساء منه وهوعلى هذه الشاكلة. وما بَوْحُه بهذه العيوب إلاّ لتأكيد ما يراه في سلوكه من حريّة وتلقائية.

وتبقى مع ذلك صورة الرجال سواء كانت في مرآة رجل آخر أوفي قوله وسلوكه **إيجابية فيها الكثير من تضخيم الذات وحبّ التفوق.** فهل تبقى كذلك على لسان ساردة وقلم كاتبة؟

## 2 ـ صورة الرجل في مرآة المرأة.

امتنع نرسيس من الاستجابة لعاشقاته فتحول حبّهنّ إلى كره وسألن الآلهة أن تبلوه بحبّ مستحيل. فاستجابت لهن وسلّطت عليه الحورية إيكوصدى بلا جسم ووهما قاتلا إذ لم تكن الصورة المنعكسة على صفحة الماء غير صورته. ومهما كان جمال هذه الصورة فإنّها لن تبدوَ نعيون العاشقات اليائسات إلاّ بشعة.

في مجموعة فوزية العلوي «طائر الخزف» جلّ القصص جاءت بضمير المتكلم على لسان امرأة، أولّها «التوأم» المبنية على شكوى امرأة حامل من تكليفها نقل وثيقة خطّيّة من قرية إلى أخرى تثبت ملكية زوجها وأهله لقطع من الأرض. ولما كان الحمل في آخره والطريق وعرة والعربة غير مريحة والحوذي غليظ الطباع فقد خشيت على نفسها من قطّاع الطرق وعلى طفلها أن تأكل مشيمته الضباعُ وكثرت هواجسها وأصابها التعب والوهن. هند ذلك تذكرت زوجها جابر الذي كلّفها بنقل الوثيقة ورأته قاسيا عليها «تساءلت ألم يجدوا غيري يحمل الوثيقة إلى الناحية الأخرى؟ وكيف لم يشفق جابر عليّ إذ أشار عليه كبيرهم بالفكرة؟ ألم

يفكر في وعورة الطريق وما يكمن أن يصيبني من وهن؟...؟» (20). هي لم تشك في إخلاص زوجها لكنها تعاتبه في سرّها وتعتبر أنه حشرها في بليّة وأنه كان بإمكانه أن يجنّبها كل تلك المتاعب، فهذا أول رجل «يظهر» في كامل المجموعة القصصية فيعلن ذكره عن صورة للرجل لا تبشر بخير، صورة رجل قاس، لا يرحم ولا يفكر في متاعب زوجته ولا يهمّه إلاّ إثبات ملكيته وملكية قومه لعقارات متنازع عليها مع قوم آخري.

ولا تقل صورة الحوذي قسوة وغلظة، كان مجهول الهوية، ملثّما، غير لطيف مع تلك المرأة الحامل في أيام الحمل الأخيرة «لا صبّح ولا نظر إليّ» (21) «وجهه كقفاه»، أشعل ظهر الجواد فأخذ يقطع تضاريس الأرض العصية، «لم يكن في حضوره أوصوته ما يبعث على الإطمأنان، كان يقوم بمهمّته كأنّه يؤدي سخرة إلزامية» (22).

وبما أن المرأة هي الساردة والشخصية الرئيسية في الوقت نفسه فينبغي أن يبحث عن مرآة نرسيس في بيتها. فوجدناها نحاسية الإطار، مزخرفة بالنخيل، تحملق فيها المرأة الحامل فترى في البداية وجها شاحبا وعينين غائرتين. ولما كانت المرآة لا تعكس غير نصفها الأعلى فقد رأت أن تتعرّى أمامها، غير عابئة بعريها بل ترى فيه حريّتها ومتعتها وفرجتها. فعلا كان النظر في المرآة فرجة نرجسية جميلة تتمتع بها المرأة على انفراد، يزيدها عنصر الماء سحرا وأدوات الزينة عذوبة، تمرّر يدها على صدرها فيتحول النهدان إلى ينابيع صافية وغزيرة: **«وقفت متمتعة بحريتي وقد تكدّس ثوبي عند قدميّ، واستبطت الماء وقد برد على جسمي فأنعشني وتنفست براحة، ثم اقتربت من المرآة التي لا تعكس أكثر من نصفي الأعلى، وتأمّلت وجهي الذي بدا أكثر عافية ورواء، ورأيت الكحل وقد لطخ محجري لفرط ما دفق الماء على وجهي، ولمحت قرن الغزال الفضي يرقص على خبب قلبي، ومسحت على صدري فإذا نهدي ينابع مترعة، غمر اللبن كفي ثم رأيته ينقّط الأرض عند قدميّ فأسرعت ألبس أثوابي وأستتر»** (23). انتهت الفرجة حوت رسما ورقصا ومواجد شتّى. وكأنّها كانت فرجة حراما انتهت إليها النرجسة فجأة فأسرعت إلى وضع حدّ لها بالاستتار وكأنّ الاحتجاب هوالأصل وإنّ العري محظور يتمتع به خلسة ويعتبر إثما حتى إن كان على انفراد. فقد كانت المرأة مستترة في عزلتها وعريها أمام مرآتها فازدادت تستّرا بلبس الثوب. وتبقى هذه لوحة جميلة جمال «مغتسلة» أبي نواس.

زوج قاس وحوذي غليظ في قصة «التوأم»، ورجل متكبّر يتنكر لأهله وعشيرته في قصّة «الديك» وإخوة أنانيون يظلمون أختهم الوحيدة ويستأثرون بأكبر قسط من التركة في قصّة «الميراث» وتتواتر هكذا صورة الرجل على لسان الساردات بشعة حسّا ومعنى إلى أن ندرك صورة الباحث الجاف اللاّهي عن الحياة والمشغول عن كافة أسرته بإدمان القراءة والكتابة والاهتمام بدقائق المعارف دون غاية يريد إدراكها ودون وعي بسيره في طريق مسدودة أو على الأقلّ عقيمة عديمة الجدوى. فحصاد العمر لم يكن وافرا في نظر الساردة في قصّة «القطة»، تخاطبه بضمير المخاطب ولعلّه إلى المتكلّم أقرب فكأن الباحث يخاطب نفسه ويحاسبها: «ها قد بلغت سنّ الأربعين ولا نبوءة، وبلغت خط الانحناء ولا حكمة. ها تمشي فكأنما يجذبك الخلف، وتقف فتدحى الأرض تحت قدميك، وقد تودّ أن يلعلع صوتك فتأكله حنجرتك» (24). ويظهر هذا الباحث في صورة مزرية أهمّ عناصرها الغفلة والغباء والوهم. أحلامه مبثوثة في آلاف الصفحات لكن رائحة الهزيمة تملأ الغرفة، ولم تجد قراءة أطنان الأوراق لمعرفة سرّ الحياة البسيطة وسحرها، فهذه قطّة تتمتع بحريتها وبصغارها: «أما أنت فبائس وحزين، تنظّر لقصيدة النثر وتفني أيامك وأنت تتفحّص الفهارس تبحث عن تاريخ وفاة رجل باد قبل ألف عام، وتجهد نفسك في إيجاد الفرق بين نسخة القيروان ونسخة اسطنبول من كتاب الشك للعلامة مشكوك وتبحث في أصل كلمة ماء وأنت يابس الحلق وقلبك يقطينة مهجورة في حقل أهدر اللّه ماءه» (25). وتواصل الساردة السّخرية من غفلة هذا الباحث

وأمثاله عن الحياة وعدم تفطنه إلى جمال نوار اللوز من حوله ولا إلى خضرة عيني زوجته ولذة الكرز الضاحك على منصّة البقال ونموّ ابنته لارا. كلّ همّه كتاب فريد وطبعة نادرة ونسخة مختلفة لكتاب قديم. ولا تقلّ حالته الصحيّة تعاسة. فيوم اضطرّ إلى الصعود إلى السطح بحثا عن كرة ابنته صدم النور عينيه وارتبكت ركبتاه وأحس بآلام في الظهر، أراد مشاركة ابنته اللعب «فجرى في الحديقة، تعثر، سقط، عاود الوقوف، اشتد لهاثه، تعرّق جسمه، وقف يرتاح، ولارا خرجت إلى الزقاق» (26). أما صورته في المرآة فحدث ولا حرج: «تناديك المرآة الساخرة على الجدار. أيّ وجه وأيّ عين منحرفة؟ ها قد طلع الشيب في حاجبيك» (27). كلّ هذا في سنّ الأربعين. فكيف سيكون بعد أربعين سنة أخرى إن كتب له البقاء على قيد الحياة؟ لا شكّ أن الكتابة ضخمت صورة الباحث لإبراز عيوبه فتجمعت فيها نقائص العديد من النماذج تمهيدا للحلّ الذي تبنّاه هذه الأربعيني، حلّ جذري يتمثّل في التخلّص من أطنان الصحف والمجلات والكتب والإقبال على الحياة العادية والاهتمام بالشؤون الصغيرة مثل توفير ظروف رعاية القطّة لصغارها وغير ذلك.

هل نحتاج بعد هذا إلى استنتاج والصور بمثل هذا الوضوح؟ لقد فاجأتنا هذه النتيجة: في كتاب محمود بلعيد اللص كريم ذكي، وشهم وسيم، والشيخ نعيم ظريف مرح، مولع بنعم الدنيا، وعبد الحميد ظريف جميل، طروب لعوب، والسارد رجل منطقي يحبّ الوضوح، فكهٌ تلقائي وصاحب عزيمة لكنه يكره النساء.

وفي كتاب المرأة الكاتبة فوزية العلوي جابر قاس مع زوجته الحامل، والحوذي غليظ غير مهذّب وإخوة الساردة أنانيون جشعون والرجل العائد إلى قريته متكبّر متنكّر لجذوره والباحث غافل بائس ذوأمراض متعدّدة، بينما الساردة مثقفة وكاتبة رقيقة.

مرايا نرسيس تعكس صورته الجميلة وتؤكد نفوره من العاشقات ومرايا زهرة النرجس التي نبتت في الموقع الذي اختفى فيه تعكس صورته البشعة في عيون عاشقاته اليائسات إلاّ واحدة تتحول فيها النرجسة إلى نرسيس فتعشق جمال صورتها كتلك المغتسلة في قصة «التوأم» إن صورة الرجل جميلة في مرآة الرجل، بشعة في مرآة المرأة. وصورة المرأة بشعة في مرآة الرجل، جميلة في مرآة المرأة وفي هذا المستوى تطرح قضيّة

## 3 ـ الكتابة والنرجسية.

اهتمت جوليا كريستفا بأسطورة نرسيس ومختلف تأويلاتها منذ ظهورها في كتاب أوفيد (Ovide) «التحوّلات» إلى العصر الحاضر، وذلك في كتابها «حكايات حب» (28) واستعرضت قراءات أفلوطين (Plotin) ودانتي (Dante) وفريد (Freud) وبول فالري (Paul Valéry) وغيرهم. فمنهم من يعتبره آثما أنانيا ومنهم من يتعاطف معه ويدافع عنه.

جعل أوفيد على لسان نرسيس تفجّعا ناتجا عن وعيه بأن الصورة المنعكسة على صفحة الماء لم تكن لغيره كما كان يتوهّم فأنشد: «ما العمل؟ [...] إنّ ما أشتهيه كامن فيّ».

وهذا بالطبع يذكّر ببعض النزعات الصوفية التي تجعل المريد يبحث عن ذات الحقّ وهي فيه، وهي هو. وبلغـت مأساتـه ذروتهـا لـما أدرك أنه كان يعانق وهما، وعجز عن فصل جسده عن كيانه فأخذ يضربه إلى أن مات وغاص في الماء. لكنّه بعث من جديد في شكل زهرة النرجس إلى الحياة.

وقد ركّزت الأفلاطونية الجديدة ممثّلة في أفلوطين على جهل الذات في قصة نرسيس. فعيبه يتمثل في جهله أن الصورة المنعكسة في الماء ليست إلا صورته وأنه مصدرها الوحيد. وبالتالي فإنّه يجهل ذاته لأن الذي يعشق صورة منعكسة ولا يعرف أنها صورته فإنّه في الحقيقة لا يعرف نفسه (29). وربما كان سبب الجهل ضبابية الصورة وتعدّدها بتعدّد مرايا الماء وتعدّد الصورة في الكاليديسكوب (Kaleidoscope).

وقد يكون الدين المسيحي برّأه من الأنانية، والمجتمع الإقطاعي أعجب بعشقه الجمال والمتعة للسبب نفسه (30). لكنّ القرون الوسطى لم ترحمه واعتبرته رمز الأنانية والكبرياء واعتبرت المنبع الذي رأى فيه صورته مكانا للزيف والفناء، ورأت أنّ حبّ الذات يكون دوما على حساب حب القيم الحقيقية أي الإلاهية (31). كذلك فعل دانتي في الكوميديا الإلاهية إذ اعتبر نرسيس ضحية رؤيته الخاطئة (32).

أما في العصر الحديث فان فرويد ألح على العلاقة بين عشق الذات والموت. فنرسيس العاشق في نظره يخفي نرسيس الانتحاري لأن الأنا إذا لم تجد من تسقط عليه طاقتها فإنها تجعل الذات غاية لتفجرها وعدوانها فتقتلها، وذلك ما فعل نرسيس يوم اكتشف أنه لا وجود للغير في منبع المياه ومراياه (33). لكن باشلار (Bachelard) يرى غير ذلك تماما ويعتبر أن الماء مرآة مفتوحة على أعماق الأنا وأن انعكاس الأنا فيها يدل على نزعة مثالية لأن الصورة المنعكسة في المرآة داخل غرفة مغلقة صورة ثابتة بينما هي في الماء حيّة ومتعددة. وهذا ما جعل قاسكي (Gasquet) يرى انطلاقا من أبيات لبول فالري (Paul Valéry) نرجسية كونية. فالسماء والغابة تتشاركان نرسيس عشق صورتهما المنعكسة على صفحة الماء، وبذلك لم يبق وحيدا، فالكون بأكمله ينعكس معه فيحتضنه وينتعش بروحه. إن العالم بأكمله نرسيس شاسع يتأمل ذاته (34).

وبول فالري بالذات هوالذي برأ نرسيس من كل ما قذف به من آثام واعتبر عشقه أصل الفردانية المعاصرة في قصيدته «نرسيس يتكلم» ورأى الكتابة الواعية بذاتها والتي تقوم على العلامة والرمز تنتمي إلى وجه نرسيس الموزع على مختلف مرايا الماء عطرا رقيقا ذا قلب لذيذ. فالكتابة المجدة لألق العلامات على المياه المتحركة تتحدى الواحد والفضاء المغلق، انها صيحة حرية ضرورية زائلة لا محالة لكنها حاضرة. وبذلك فإن فالري أعاد الاعتبار إلى نرسيس وبعثه في صورة شاعر (35). وهكذا فإن النرجسية متخفية بكثافة في ثنايا المعنى التخييلي(36). ومهما كانت طبيعة الفن، حقيقيا كان أم مصنعا فإنه يتضمن لحظة نرجسية هي نصيبه الضروري من المجاز يتحدى به عالم القيم المكرسة ويستهين بها ويغرينا بما فيه من سهولة ومتعة فيصبح محبوبا (37).

وما نستنتجه بخصوص العلاقة بين النرجسية والكتابة الأدبية أن الكتابة تقوم على علامات لغوية وصور تخييلية يندس نرسيس في ثناياها، وأن الابداع يمر حتما بلحظة نرجسية تتمثل في مرآة النفس هي مصدر الإلهام. وهذا ما نجده تقريبا في قصة «العملاق» لفوزيةالعلوى من مجموعتها «طائر الخزف». فالنص على لسان كاتبة تسرد الأحداث بضمير المتكلم فتشكو فتور الإلهام وعدم استجابة الكلمات وترى ورقها مزورا كسيرا متجعدا، وأقلامها غير مطيعة. فتستجدي حضوره فتحلم بعملاق يدلها على كلمة السر، سر الكتابة، تفتح لها باب الإلهام «وتنتشر على ورقها سنابل القمح فيلد بعد عقمه» كما تقول ص 105. وفعلا يظهر العملاق ويقتلعها من الأرض ثم يضعها في مرج واسع ويرسل إليها مع غلام أقلاما طويلة وأوراقا ثم يأخذها إلى بركة (هل تكون المنبع الذي رأى فيه نرسيس صورته؟) ويوصيها بالتطهر ويدلها على الباب الأبيض فتفتحه. وما ذلك الباب الأبيض غير باب النفس تلجه فتكتشفها وتنظر في مرآتها، مرآة النفس، مرآة النرجس، فتنهمر الكتابة سيلا عارما. قالت بعد أن أفاقت من نومها: «وجدت غرفتي كما تركتها، طاولتي وأوراقي ومحبرتي، لكن مرآة كبيرة ورائعة الإطار كانت تملأ الجدار. تقدمت بثبات إلى الطاولة، جذبت الكرسي، جلست أكتب، أي سيل منهمر بين أصابعي!» (38).

إن التبصّر في مرآة الذات يغذي الكتابة الأدبية بأهم مصادر من مصادر الإلهام. وهذا ما فعله كل من محمود بلعيد وفوزية العلوي فأنتجا رؤيتين متقابلتين للرجل.

## المراجع والمصادر


1) محمود بالعيد، شكرا أيها اللص الكريم، تونس 2003، ص58.
2) نفس المصدر، ص 62.
3) نفس المصدر، ص 79.
4) ن.م،ص 112.
5) ن.م،ص 121.
6) ن.م،ص 128.
7) ن.م،ص 149.
8) ن.م،ص 155.
9) ن.م،ص 17.
10) ن.م،ص 184.
11) ن.م،ص 44.
12) ن.م،ص 50.
13) ن.م،ص 50.
14) ن.م،ص 68.
15) ن.م،ص 68.
16) ن.م،ص 74.
17) ن.م،ص 9.
18) ن.م،ص 10.
19) ن.م،ص 10.
20) فوزية العلوي، طائر الخزف، تونس 2003، ص 12.
21) ن.م،ص 16.
22) ن.م،ص 16.
23) ن.م،ص 11.
24) ن.م،ص 113.
25) ن.م،ص 115.
26) ن.م،ص 117.
27) ن.م،ص 115.
28) Julia Kristeva, Histoire d'amour, Denoel, Paris 1983
29) نفس المرجع، ص 105.
30) ن.م،ص 118.
31) ن.م،ص 123.
32) ن.م،ص 127.
33) ن.م،ص 120.
34) Jean Chevalier et Alain Gheerbant, Dictionnaire des symboles Ed, Laffont 1969 p. 659
35) Julia Kristeva, op. cit., p 129
36) op. cit., p 131
37) op. cit., p 122
38) فوزية العلوي، طائر الخزف، ص 110.

# عبد القادر بن الحاج نصر وهموم كتابة الرواية ...

بوشوشة بن جمعة

نظّم المعهد العالي للغات بتونس، مساء الجمعة 2 مارس 2007، لقاء أدبيا مع الكاتب عبد القادر بن الحاج نصر، احتضنه فضاء مدرّج ابن منظور، وحضره ثلّة من أساتذة المعهد، وجمع غفير من طلبته، وأداره الأستاذ بوشوشة بن جمعة. وهو لقاء يندرج ضمن انفتاح الجامعة على المشهد الثقافي في شتّى تشكّلاته الإبداعيّة، ومنها الإبداع السرديّ الذي مثّل مدار تجربة هذا الأديب. وهو الإبداع الذي يتنافذ ويترافد مع عدد آخر من مسالك الإبداع التي جرّبها عبد القادر بن الحاج نصر وكانت له فيها إسهامات، بعضها مسرحيّ، وبعضها الآخر نقديّ، وآخر إعلاميّ مرئيّ.

استهلّ الأستاذ بوشوشة بن جمعة تقديم الكاتب عبد القادر بن الحاج نصر، بإبراز جملة من السمات المفيدة والعلامات الدّالة التي ميّزت تجربته الأدبيّة عامّة، والسرديّة الروائيّة خاصّة، فبيّن التنوّع الأجناسيّ في مسيرة إبداعه الممتدّة في الزمان، منذ أواسط الستّينات، فكانت نموذجا دالاّ على تنافذ الأجناس الأدبيّة والفنون في تشكيل عوالمها . . إذ تترافد فيها القصّة القصيرة، وقد تواتر صدور مجموعاتها منذ السبعينات من القرن الماضي، بظهور «صلعاء يا حبيبتي»، (1970)، لتتواصل بنوع من الإنتظام في : «البرد»، و«أولاد الحفيانة»، و«زبد المياه المتّسخة»، و «عجائب زمن»، وأخيرا «عجميّة»، والرواية التي كان يمارسها بالتوازي مع القصّة القصيرة و بنوع من المراوحة بين هذين الجنسين الأدبيّين، فتواترت رواياته منذ أواخر الستّينات من القرن الماضي، إلى اليوم، بدءا بـ «الزيتون لا يموت»، (1969)، مرورا بـ : «صاحبة الجلالة» (1981)، و«زقاق يأوي رجالا ونساء»، (1994)، و«الاثم»، (1997)، و«امرأة يغتالها الذئب»، (1998)، و«قنديل باب المدينة»، (1999)، و«مقهى الفنّ»، (2002)، و«ساحة الطرميل»، (2004)، و«جنان بنت الريّ»، (2005)، وانتهاء برواية «عتبة الحوش»، (2006).

وينضاف إلى جنسيْ القصّة القصيرة والرواية جنس ثالث، يتمثّل في المسرح، حيث كتب عبد القادر بن الحاج نصر ثلاث مسرحيّات، هي: «كلاب فوق السطوح»، و«محاكمة الشيخ السفطي»، و«ولد الحفيانة».

وكان لمثل هذا التّمازج الأجناسي في شخصيّته مبدعا أن حفّزه على كتابة عدد من المسلسلات التلفزيونيّة، هي «الحصاد»، (15 حلقة)، و«الحمامة والصقيع»، (15 حلقة) و«الريحانة»، (18 حلقة)

و«دروب المواجهة» (15 حلقة) و«جمل جنّات» (30 حلقة).

إنّها تجربة أدبيّة/ سرديّة منفتحة على أكثر من جنس أدبيّ وفنّي... ثريّة من حيث التراكم والتواتر ومتنوّعة من حيث أسئلة الكتابة وجماليّات الإنشاء... تتوفّر على العلامات الدّالة على تحوّلات المشهد الثقافيّ التونسيّ المعاصر، وبالأساس السرديّ منه، على امتداد العقود الأخيرة من القرن الماضي إلى اليوم... وتكشف عن تفاعل صاحبها العضويّ مع مختلف التحوّلات المتأزّمة التي وسمت واقع المجتمع التونسي في ذات المرحلة التاريخيّة، وهي التحوّلات التي استمدّ من إشكاليّاتها أسئلة المتون الحكائيّة لنصوصه السرديّة القصصيّة منها والروائيّة والمسرحيّة والدراميّة التلفزيّة، وكذلك العناصر التكوينيّة لعوالم متخيّله السرديّ: فضاءات، وشخوصا، وأحداثا، ومناخات وجود ...يتداخل فيها الفرديّ بالجماعيّ، الذاتيّ بالموضوعيّ، الحاضر بالماضي، المحليّ بالعالميّ الإنسانيّ، والواقعيّ بالمتخيّل.

فجاءت رواياته تحمل زخم الاستقلال في شتّى صور تحوّله، الذي وسمه التأزّم، بسبب تصدّع الهياكل التقليديّة للمجتمع التونسيّ بفعل وطأة رياح المعاصرة والحداثة... وهي في آن ترشح بأشكال معاناة الفرد الذي وجد نفسه يواجه وجودا إشكاليّا بفعل القضايا المستجدّة في واقعه، والتي طالت البنية الذهنيّة الفرديّة منها والجماعيّة والتركيبة النفسيّة، والمذاهب السلوكيّة، وأشكال ممارسة الوجود، وعلاقة الذات بذاتها والآخر، فكانت نماذجه الروائيّة مأزومة الوجود، معطوبة الكيانات والعلاقات بسبب عطب الواقع في أكثر من مجال، وخسرانها لأكثر من رهان مع الحياة...والوطن... والتاريخ... تبحث عن سبل الخلاص... في أكثر من بديل.. وتتداعى الحدود بين الروائيّ وشخوصه.. فأوجاعه من أوجاعها وأشكال معاناته...رجع صدى لألوان معاناتها... تتجلّى في أكثر من صورة.

وهي روايات بقدر ما تشتقّ بيانها من كيان صاحبها المتعالق وكيانات مجتمعه...الباحثة عن الأصيل من القيم في واقع متهافت فإنّها تؤكّد مسعى صاحبها/ الباحث باستمرار عن البكر من أشكال الكتابة لتصوير أزمته مثقّفا، ولأزمة جيله، في مجتمع التبست فيه معالم الطريق، وغامت الرؤية... كلّ ذلك بعد أن تيقن بأنّ الكتابة/محنة الحرف، وهي وحدها القيمة الأصليّة الثابتة الدّالة على أصالة الكيان، والضامنة للذات الديمومة، فتكون الرمز الدّال عليها...

ثمّ تناول الكلمة الأستاذ منصف الجزّار مدير المعهد فرحّب بالكاتب، وعبّر عن شرف المعهد باستضافته حتّى يلتقي بأساتذته وطلبته، فيتمّ الحوار والنقاش بينه وبينهم حول تجربته الأدبيّة الثريّة والمتنوّعة في أكثر من مجال إبداعيّ. وقد ركّز على قيمة إسهاماته في الأدب التونسيّ المعاصر، وبالأساس في مشهده السرديّ الروائيّ الذي يحظى فيه بموقع متميّز، إذ شكّلت نصوصه القصصيّة والروائيّة والمسرحيّة والدراميّة روافد إغناء وتنويع له، ممّا يعكس ثراء ثقافته وتنوّعها، وتعدّد مواهبه الإبداعيّة في المجال الأدبيّ، وختم حديثه بسؤال الكاتب عن كيفيّة صناعته الرواية...

أمّا الأستاذة جميلة ميلاد فقدّمت مداخلة حول «تجربة الكتابة عند عبد القادر بن الحاج نصر»، بيّنت في مستهلّها سمة التنوّع الأجناسيّ، التي تميّز تجربة الكاتب الأدبيّة على مدى سيرورتها الزمنيّة، منذ بداياتها في السّتينات من القرن الماضي إلى اليوم، حيث يراوح بين أنماط كتابة متعدّدة ومتنوّعة: قصصيّة وروائيّة ومسرحيّة، ودراميّة تلفزيّة دون أن يقطع صلته بواحد منها، «فإذا تجربة الكتابة حافلة بالأشكال الأدبيّة، التي تفصح عن إصرار صاحبها على امتهان هذه الحرفة منشغلا بمجالات شتّى فيها، حتّى أضحت همّا من همومه وهاجسا يسكنه».

ثمّ أبـرزت أنّ الزخـم الهائل مـن مؤلّفـات هـذا الكاتب المبدع والمنتمية إلى أجناس كتابة أدبيّة تتعدّد وتتنوّع يحفّز الباحث على التساؤل عن مسيرة هذا المبدع في الحقل الأدبيّ، وعن المسالك التي نهجها

في أعماله، وعن التزامه بأن يسير في كلّ اتّجاه في مسعى بحثه عن المبتكر من أشكال الكتابة، خاصّة أنّ كتاباته في أجناس أدبيّة شتّى تعلن عن تخطّيه لظاهرة الاختصاص، وعدم اقتصاره على جنس أدبيّ بعينه . كلّ ذلك يغري الباحث، باستقراء المؤتلف والمختلف في كتاباته، فضلا عن استقصاء العلامات الدّالة على ملامح الذات الكاتبة، المتحجّبة عنه خلف ما يوهم به الأديب المبدع من وسائط الفنّ وطرائق الإبلاغ. وذكرت أنّ تشعّب هذه التجربة الأدبيّة وثراءها الكمّي يجعل بعضها يفلت عن أيّ تبويب أو تصنيف . فلا تتيسّر بعض سبل البحث، ولذلك رأت أن تقتصر على إثارة عدد من الإشكاليات التي استوحتها من أعمال الكاتب عبد القادر بن الحاج نصر، من بينها العلاقة بين المؤلّف وقارئه، حيث يعمد إلى توريطه في عدد من نصوصه ويتوجّه إليه بالخطاب ممّا يطرح إشكاليّة العلاقة بين الكتابة/ الكاتب والقراءة/ القارئ. والكتابة بما هي تحقيق للذات المفردة والذات الجماعيّة، والقراءة بما هي عقد بين النصّ والقارئ، كذلك إشكاليّة العلاقة بين الكاتب وشخوصه الروائيّة : خلفيّات التشكّل، فضلا عن بنيتها ودلالتها، ومدى تأثير التفاعل الأجناسيّ في صياغتها، وهي الإشكاليّة التي تفضي إلى أخرى تتمثّل في طبيعة العلاقة القائمة بين النسيج النصّي والنسيج الأجناسيّ، كما تطرح أعمال الأديب انحباس الحدث في فضاءات ضيّقة، وأزمنة محدودة، تكسب نصوصه طابعا محليّا يحدّ من البعد الرّؤيوي ...

ثمّ تلت هذه المداخلة شهادة الكاتب عبد القادر بن الحاج نصر وقد اختار عنوانا لها: هموم كتابة الرواية ... شهادة على مسيرته مبدعا في أكثر من مسلك كتابة ... كشف فيها عن خلفيّات تشكّل محنة الحرف في وجوده ... عن طقوس الكتابة ... والرواية ... وعن عوالم متخيّلة السرديّ ... فضلا عن مقصديّته من الكتابة والرواية في آن ... في زمن تنحسر فيه مساحات المقروء مقابل امتداد مساحات المرئيّ ...

## 1 – البدايات وارتباكات البحث عن أفق الإبداع

وفد عبد القادر بن الحاج نصر إلى دنيا الرواية، عبر معبر القصّة القصيرة، شأنه في ذلك، شأن أغلب كتّاب جيله ممّن جرّبوا ممارسة الرواية ... وكأنّه شعر بضيق جنس القصّة القصيرة على استيعاب إشكاليّات الواقع المستجدّة في السّتينات من القرن الماضي، والناجمة عن مرحلة الاستقـلال بتحوّلاتها المختلفة والتي يسمها التأزّم، فتحوّل عنها ـ أي القصّة القصيرة ـ، دون أن ينصرف نهائيّا ليجرّب مسالك الرواية، فكانت رواية «الزيتون لا يموت» (1969)، أولى لبنات مسيرته الروائيّة . رواية احتفى فيها بلحظة النصر/ الاستقلال عبر تمجيد أحداث 9 أفريل 1938، واختلط فيها العشق للمواطن بعشق الوطن، وكلاهما عنوان انتماء وعلامة هويّة، يقول : «عندما انهمكت في كتابة «الزيتون لا يموت»، كنت في بداية العشرينات من عمري، ومازال آنذاك طعم القرية التي ولدت فيها «بئر الحفي»، ورائحة مراعيها وحقولها ومشهد خيام الباعة المتنقلين يوم السوق الأسبوعية وألوان البضائع المكدّسة المعروضة للمتسوّقين وعطر البهارات، والكتب الصفراء إلى جانب قوارير الأدوية، وقراطيس الحشائش التي ابتدعها الطبّ الشعبيّ، ما يزال كلّ ذلك يتلاطم في داخلي وأنا أخطو خطواتي محترزا ... خائفا من أن أكتب فيهزأ بي بعض العارفين بالأدب الأصيل وبدقائق عمليّة الخلق الأدبيّ. كنت خائفا نعم، لكنّني كنت أيضا مندفعا للتعبير عن ذاتي ... عمّا يعتمل في صدري ووجداني ... وأنا الذي انتقلت فجأة من نصوص المنفلوطي الجميلة إلى روايات فرنسوا ساغان، فمورياك، فهمنغواي فكامي فتولستوي، وهيغو فبكيت، فنجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وفلوبير ... »

## 2 – سؤال الكتابة، طقوس الرواية

اعتبر عبد القادر بن الحاج نصر سؤال الكتابة، كما الحديث عن طقوس الرواية، من الأسئلة الصعبة التي

تواجه المبدع، لما يمثّله كلّ منها من «دعوة موضوعيّة إلى التوقّف، ومحاسبة النفس من أجل فهم عقلانيّ من قبل الكاتب للسلوك الذي يأتيه قبل الكتابة وأثناءها وبعدها»... وأوضح أنّ عملية الخلق الأدبيّ ممارسة مفتوحة، فهي طريق طويلة بلا نهاية، لأنّها صراع يوميّ من أجل السير إلى الأمام وسط عوائق بعضها ظاهر للعيان وبعضها الآخر خفيّ. ثمّ إنّ الكتابة - في تصوّره - سبيل المبدع إلى تحقيق ديمومة الأنا، بتحقيق المنزلة الأدبيّة، بعد أن تحقّقت لها المرتبة الاجتماعية. «فقد كان الدافع لحركة كتابة الرواية هو الإثبات للآخرين أنّني قادر على التعبير بأسلوب شخصيّ اعتمادا على ما أفرزته المطالعات المكثّفة من تجربة واطّلاع، أكثر من هذا، كنت أقنع نفسي بأنّه من الواجب أن أرمي بثقلي وسط هذا الحقل الشائك الذي يسمّى الإبداع الأدبي. إنّه الشوق إلى أن أرى نفسي صاحب إنتاج مميّز...»

وهو المنظور الذي جعله يدرك لاحقا- وقد تبلورت معالم مسيرته الأدبية، واغتنت نصوصا وتنوّعت مذاهب كتابة - أنّ الكتابة هي الفعل الوحيد القادر على تحويل حيرته إلى رمز، أمّا ما عداها من عناصر الوجود فيمحوه الزمن... ويلفّه النسيان... فالبقاء للبيان عند تلاشي الكيان...» قلت في نفسي: لا شيء باق غير الكتابة، والكتابة لا تؤخذ بمعزل عن المسؤولية... والكتابة أسمى من أن يتعاطاها الكاتب كفسحة لهو وترفيه... فهي ليست بحال من الأحوال ترويحا عن النفس. إنّها مشقّة، وصراع، وإصرار على المواجهة. لاشيء يبقى منّي أنا، ممّا أملك، ممّا أحلم بتحقيقه، ممّا أصبو إلى بلوغه من مطامح بشريّة... لاشيء يبقى غير الأدب، فأهمّ وأسمى من كلّ ما أشتهيه من الدنيا رصيد أدبيّ وشعور بضرورة أن أحيا واقفا وأن أموت واقفا».

ثمّ كشف عن اختلاف طقوس الكتابة والرواية عن سائر أشكال ممارسة الوجود، في قوله: «إنّني أرى نفسي ساعة الكتابة، لحظة الإمساك بالقلم ومواجهة الورقة البيضاء، خالي البال من كلّ العناصر التي تؤسّس لرؤية فكريّة واضحة المعالم، أي أنّني ساعة الشروع في الكتابة لا أستحضر في ذهني قضيّة اجتماعيّة أو سياسيّة أو عاطفيّة... تلك التي من المفترض أن تبنى عليها الأحداث، كما لا أستحضر الشخصيّات التي سأحمّلها الرسالة التي يجب إبلاغها إلى القارئ، أي أنّني عند الشروع في الكتابة أكون في وضع من سيخوض حربا دون سلاح. فلا عنصر لديّ البتّة ممّا تتطلّبه الرواية، إنّما لديّ شيء واحد ألا وهو الإحساس الملحّ بالانفجار نتيجة معاناة يمتزج فيها الخوف بالرفض، بالثورة، بالرغبة في التهديم، بالرغبة في الهروب، بالرغبة في المواجهة...

الخوف ممّن؟ والثورة ضدّ من؟ والرغبة في مواجهة من؟ ربّما كنت خائفا من الآخرين، وربّما كنت خائفا من نفسي، ربّما كنت ثائرا على الآخرين وعلى نفسي...، وربّما كنت أرغب في تهديم ما حولي: الأشكال والمضامين لأنّني في حاجة إلى أن أبني على أنقاض نفسي وقناعات الآخرين بناء جديدا...

ويتمّ قادح الكتابة / الرواية لديه، من التقاء إحساس الآخر وإحساس الكاتب، حيث يأخذ نسيج الكتابة أبعاده برسم ملامح شخصيّة أولى، تستدعي شخصيّة أخرى. ومن الإحساس المعاناة الإنسانيّة يولد حدث يؤدّي إلى حدث آخر.

## 3 - الكتـــابة والاختلاف

تبقى الكتابة لدى عبد القادر بن الحاج نصر فعلا مشتقّا من وجود فرديّ، يتعالق مع آخر جماعيّ، قبل أن يرتقي إلى مصاف إنسانيّ، لذلك ألحّ على ضرورة اختلاف الكاتب الروائيّ عن الآخرين وعمّن يشترك معهم في ممارسة فعل الإبداع الأدبيّ. وذلك من خلال ما يتوفّر عليه من قدرة على التعبير تحمل سمات تميّزها، فيقول: الكلمة التي يختنق بها الآخرون ولا يقدرون على التصريح بها، ويصف الإحساس الذي يعتريهم ولا يقدرون على وصفه، فيتحوّل من صيغة

المفرد إلى كلّ الأشخاص الذين يحيطون به لينفذ بقلبه وفكره إلى حقيقة العوامل، ويتجلّى مسعى هذا الأديب إلى إنشاء كتابة مختلفة ورواية مغايرة للسائد السرديّ، في بحثه الدائب عن المبتكر من الأشكال، والتي تتبلور أثناء عمليّة الكتابة لا أن تكون منجزة من قبل، ليتمّ إخضاع العمل الروائيّ لمقتضياتها وشروطها. يقول : «لا أتفنّن في التحضير للشكل، فإمّا أن يفرض نفسه تماشيا مع المحتوى، وإمّا أن تنهار عملية الكتابة برمّتها».

«إنّني إذا لم أشعر أنّ الشكل يساعدني نفسيّا على الصياغة، يتعطّل كلّ شيء لديّ . . . المسألة لا تتعدّى أن تكون في مجملها متعلّقة بالرضا أوالنفور، إلاّ أنّني والإحساس يقودني لا أستسيغ أن أكرّر نفسي، وأن أستخدم نفس الأدوات التي أستخدمتها في السابق، لأنّي أكره السير في الطرق المعبّدة، حتّى لو أنّ الذي عبّد الطريق هو أنا. فالإحساس عندي يحملني على السير إلى الأمام دائما إلى الأمام، والبناء على أسس جديدة. . . دائما جديدة قدر ما استطيع، والسعي إلى التخلّص من الرواسب التي تجمّعت في نفسي والقناعات المحنّطة».

كلّ هذا يجعل من الكتابة لدى عبد القادر بن الحاج نصر فعلا باحثا باستمرار عن المغاير للسائد من الأشكال، قصد إنشاء النصّ السرديّ المختلف بأفق حداثيّ، تسمه حريّة بلا ضفاف، ذلك أنّ «الهدف دائما هو البحث عن الحريّة. والكتابة، هذه المحنة هذه اللعنة الجذّابة، إمّا أن تكون متحرّرة أولا تكون» .

## 4 - الرواية وبلاغة تحويل اليومي إلى جمالي

حدّد الكاتب عبد القادر بن الحاج نصر ماهية الرواية، في أنّها «شهادة عن الأحداث الجارية في دنيا الواقع الذي تحياه، وعلى الكاتب ألاّ ينأى بنفسه عن مواجهة قضايا زمنة، إلاّ أنّ انخراطه ضمن مذهب الواقعيّة النقديّة في ممارسة الكتابة الروائيّة، يكشف عن قدرة وموهبة إبداعيّة تتجلّيان في تحويله تفاصيل الحياة اليوميّة إلى قيم جماليّة تميّز رواياته، وهو ما أفصح عنه في حديثه عن خلفيّات كتابة روايته «قنديل باب المدينة» : «إنّ رائحة بخور متسلّلة من فتحات نافذة أمام عتبة أحد البيوت هي التي أوحت لي بكتابة رواية «قنديل باب المدينة»، «كنت أسير في أحد الأنهج في المدينة العتيقة فشممت رائحة بخور طيّبة، تساءلت: هل يعقل أن تنشر رائحة بخور طيّبة جذّابة عبثا ؟ لا بدّ أنّ أحدا وراءها، غالبا ما تكون إمرأة... وهذه المرأة عندما رمت البخور على جمرات الكانون كانت تفكّر في شيء محدّد... لا شكّ في أنّ البخور يحتوي رسالة موجّهة إلى طرف له علاقة بصاحبة البخور، وأيّ علاقة هذه إذا لم تكن عاطفيّة ...

هكذا بدأت الرواية بمفردة من مفردات الحياة اليومية العادية لتمتدّ أوّلا في المكان: باب منارة، نهج المرّ، سوق العصر، مونفلوري، باب سويقة، باب البحر... ، ثانيا في الزمان: أواخر الخمسينات وأساسا الستّينات والسبعينات من القرن الماضي... ثالثا: في الشخصيات، من سعاد صاحبة البخور، وهي المرأة الشابة التي تقضي أيّاما طويلة في شقّة بالطابق الثاني في انتظار زوجها العامل على إحدى السفن التجاريّة انتظارا أوقد في قلبها عشقا لابن خالتها الذي يعمل أستاذا، والسّاكن في الطابق الأوّل، تترصّد عودته . فإذا ما أطلّ على الساحة التي توجد بها العمارة رمت البخور على الجمرات لتلفت انتباهه، وهو يصعد الدرج ويدخل شقّته... ومن سعاد إلى كريمة الحوت إلى الناجي إلى حمّة والهادي كركدن، ثمّ بدرة الأوّل وبدرة الثاني وهما موظّفان ساميان برتبة وزير...

ثمّ تتأسّس علاقة الشخصيّة مع المحيط الداخليّ والمحيط الخارجيّ، والتي تتحوّل مع تنامي دور الشخصيات إلى علاقات صراع من أجل إثبات الذات، والدفاع عن مصلحة أو تحقيق غاية...

## 5 – مقصديّـــة الكتابة في التزام الكاتب

إنّ اعتراف الكاتب عبد القادر بن الحاج نصر بأنّ كتاباته القصصيّة والروائيّة المنتمية إلى السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، كانت مقصديّته منها إرضاء غريزة حبّ الظهور، فإنّ الأمر قد تغيّر مع منتصف التسعينيات، من خلال مساءلته لذاته عن قيمة منجزه السرديّ، وعن إمكانات تجاوزه، ووظيفته في الحركة الاجتماعيّة «كأنّ لهفة الكتابة انطفأت في داخلي، فلم تعد تأخذني نوبة حبّ الظهور والتميّز. خالجني شعور بأنّني قد أنهيت المهمّة، أيّ أنّني بلغت ما كنت أصبو إليه . ولعلّ هذا يعكس هشاشة الرؤية الثقافيّة . فبين أن تصيغ أدبا للأدب، وبين أن تصيغ أدبا يحمل في ثناياه قضيّة سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة فاصل شاسع».

وبناء على ذلك أقـــام مقصديتـــه مـــن الكتابة علـــى الالتـــزام بقضايـــا مجتمعـــه، فلا شيء - في نظره - أجدى بالنسبة إلى الكاتب من أن تكون له قدم صدق حيثما كانت دائرة الأحداث، وحيثما كانت حركة الإبداع . .

وقد أثارت هذه الشهادة للكاتب عبد القادر بن الحاج نصر عددا من الأسئلة التي شكّلت مدار نقاش بينه والحضور، منها ما اتّصل بمدى تجاوزه لمنجزه السرديّ، ومنها ما تعلّق بهيمنة سلطة المكان على إبداعه الروائيّ، ومنها ما طرح علاقته بشخوص أعماله الأدبيّة ومرجعيّاتها. فأبرز في إجاباته عنها بأنّ الكتابة السرديّة لديه فعل يتجدّد باستمرار بتجدّد بحثه عن المغاير من أشكالها، وبأنّ المكان فاعل في تشكيل عالمه الروائيّ لوثيق صلته به، وعمق معايشته له، كما الشخوص التي يؤثّث بها عوالم حكيه والمستمدة ممّا يعايشه من نماذج أو يرصده من نماذج دالّة على وجوه من معاناته. . . وصور من رؤيته للذات والعالم . . .

كلّ ذلك وتبقى الكتابة سبيله إلى تحقيق ديمومة الأنا. . . لأنّ البيان فعل أقوى من النسيان أن يأتي على الكيان .

# مع الدكتور رشاد الإمام

محمـــد بوغـــلاّب

**غيّب الموت في نهاية شهر فيفري الماضي (23 فيفري 2007) الأستاذ الدكتور رشاد محي الدين الإمام، أستاذ كرسي بالجامعة التونسية، قسم التاريخ والأستاذ المساعد بالجامعة الأمريكية ببيروت والباحث بمركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية (من 1971 إلى سنة 1977) وصاحب الإنجاز العلمي «ببليوغرافية مدينة القدس» منذ ثلاثة آلاف سنة بثلاث لغات (العربية، الفرنسية، الإنجليزية).**

**وتقديرا لجهده البحثي منحت للراحل جائزة الآداب والفنون سنة 2000 ووفاء لروح الفقيد وأسرته وزملائه تنشر مجلة الحياة الثقافية هذا الحوار الذي جمعنا بالأستاذ رشاد الإمام يوم 25 ماي 1998 وشاءت الأقدار أن لا ينشر في حياته...**

## ما الذي يمكن أن نعرفه عن الدكتور رشاد الإمام؟

أنا الدكتور رشاد الإمام مولود بمدينة منزل بوزلفة في 29 ديسمبر 1932.

فيما يتعلق بالتعليم العالي انا متحصل على شهادتين من الأستاذية في علم النفس والاجتماع، كلية الآداب عين شمس، بالقاهرة 1957 و1958 ثم تحصلت على الأستاذية في التاريخ من كلية الآداب والجامعة اللبنانية/ بيروت سنة 1961 بعد ذلك أحرزت على شهادة الماجستير (المعادلة لشهادة دكتورا الحلقة الثالثة)، في التاريخ الإسلامي، الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1966، وفي الأخير توجت تعليمي الجامعي بالإحراز على دكتورا الدولة في التاريخ الإسلامي، اختصاص تاريخ شمال افريقيا الحديث، من الجامعة الأمريكية بيروت 1971 وأحسن من اللغات الأجنبية: الإنجليزية والفرنسية.

أما عن الخبرة فقد درست بالتعليم الثانوي بمعهد قرطاج الرئاسة سنة واحدة (1961 - 1962) وعملت كأستاذ مشارك بمركز الأبحاث بالجامعة الأمريكية وعينت في بيروت ثم أستاذا مساعدا بالجامعة الأمريكية نفسها. وعند رجوعي إلى تونس 1971 عينت أستاذا مساعدا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (9 افريل) من سنة 1975 إلى 1977 وبجانب مهمة التدريس قمت بمهمة باحث بمركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسيـــة (1971 - 1977) ثم رقيت إلى أستاذ محاضر للتعليم العالي بكية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية من 1977 إلى 1986 وفي هذه السنة اصبحت أستاذ ا للتعليم العالي بنفس الكلية من سنة 1981 إلى اليوم.

## الانتاج العلمي

فيما يلي قائمة لأهم الدراسات العلمية المنشورة.

1 - تحقيق مخطوط تاريخ مصطفى بن اسماعيل، أسباب دخول تونس تحت الحماية الفرنسية سنة 1881 نشر بمجلة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت السنة 22 الأجزاء 1-2 جوان/ حزيران 1969 بيروت لبنان.

2 - مقال «سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري» نشر بالمجلة التاريخية المغربية عدد 2 سبتمبر 1974 تونس.

3 - مقال «عبيد الله المهدي والنسب الفاطمي» نشر بالمجلة التاريخية المغربية عدد 3، 1975 تونس.

4 - كتاب «مدينة القدس في العصر الوسيط (1253 - 1516 )» تونس الدار التونسية للنشر 1976.

5 - مقال «حمودة باشا الحسيني كرافد للتجديد في تونس» نشر بمجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية في بيروت السنة 25 والمقال دراسة شاركت بها في المؤتمر التاريخي الأول حول «الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد» الذي انعقد في شهر مارس 1975 بدعوة من قسم التاريخ بالجامعة اللبنانية.

6 - كتاب «سياسة حمودة باشا في تونس 1782 - 1814» نشرته كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية 1980.

7 - مقال «الوثائق والمخطوطات العربية لتاريخ الجزيرة العربية في تونس» صدر في مجلد ضخم عن جامعة الرياض عنوانه «دراسات تاريخ الجزيرة العربية» الكتاب الأول مصادر تاريخ الجزيرة العربية الجزء الثاني، مطبوعات جامعة الرياض 1979 وهي دراسة قدّمت في مؤتمر «مصادر تاريخ الجزيرة العربية» الذي عقد بالرياض من 15 إلى 21 أفريل 1979.

8 - كتاب «سيرة مصطفى بن إسماعيل» صدر عن المعهد القومي للآثار والفنون، تونس 1981.

9 - مقال «الأندلسيون في البلاد التونسية» في منتصف القرن التاسع عشر من خلال خزينة الوثائق التونسية المجلة التاريخية المغربية عدد 23 - 24 (أكتوبر 1981)

10 - مقال Some documents concerning slavery in Tunisia at the end of the 18th century

صدر بالمجلة التاريخية المغربية، عدد 23 - 24 (أكتوبر 1981 ) وهي دراسة قدمت في مؤتمر الاساتذة الجامعيين الأفارقة الذي عقد بجامعة واشنطن بمدينة سياتل بالولايات المتحدة الأمريكية في شهر جويلية من سنة 1978.

11 - مقال «المسجد الأقصى» مجلة الهداية تونس ادارة الشؤون الدينية نوفمبر 1978.

12 - مقال القدس في العصر الوسيط (شؤون عربية عدد 40 ديسمبر 1984) تونس.

13- مقال «بيليوغرافيا عن القدس» شؤون عربية عدد 40 ديسمبر 1984.

14- مقال «الوثائق والمخطوطات العربية في تونس» مجلة المؤرخ العربي بغداد عدد 6 ص 145 - 153.

15 - مقال «الوثائق والمخطوطات العربية لتاريخ الجزيرة» مجلة المؤرخ العربي عدد 13، ص 189 - 198 بغداد.

16 - مقال «هجرة الأندلسيين إلى تونس في القرن الثالث عشر الميلادي» وهي دراسة ألقيت بمؤتمر يتعلق بالأندلسيين بشمال إفريقيا إنجازاتهم - أهميتهم - آثارهم، نشرت بدراسات المؤتمر سنة 1984 الجزء الثاني.

17 - ببليوغرافية مدينة القدس في مختلف العصور التاريخية باللغات الثلاث العربية والانجليزية والفرنسية وهو كتاب يتألف من 7 أجزاء في 7 مجلدات إصدار بيت الحكمة بتونس :

- صدر الجزء الأول بعنوان: ببليوغرافية مدينة القدس الشريف باللغة العربية في الفترة القديمة والوسيطة تونس المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة 1989.

- وصدر الجزء الثاني باللغة العربية أيضا في الفترة الحديثة والمعاصرة تونس المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة 1990.

- وصدر الجزء الثالث (ملاحق وفهارس باللغة العربية) عن بيت الحكمة أيضا سنة 1991.

وصدر الجزء الرابع باللغة الانجليزية عن بيت الحكمة أيضا سنة 1992.

الجزء الخامس (ملاحق وفهارس وغيرها باللغة الانجليزية) سيصدر عن بيت الحكمة في هذه السنة وهو مطبوع وجاهز للسحب.

الجزء السادس( باللغة الفرنسية) جاهز للطبع والنشر

الجزء السابع (ملاحق وفهارس وغيرها باللغة الفرنسية) جاهز للطبع والنشر أيضا.

18- مقال «هجرة الأدمغة العربية إلى خارج الوطن العربي» صدر بمجلة المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب الرياض 1992.

19- مقال صورة الدولة العثمانية في كتب التعليم بالمغرب العربي «صدر بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 7 و9 أكتوبر 1993.

20 - كتاب القرصنة البحرية في البلاد العربية 5 أجزاء

- الجزء الأول : القرصنة البحرية في العصر القديم، صدر هذا الجزء بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، المملكة العربية السعودية، 1993.

الجزء الثاني «القرصنة البحرية في العصر الوسيط» سيصدر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض.

الجزء الثالث: القرصنة البحرية في العصر الحديث، سيصدر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض.

-الجزء الرابع: القرصنة البحرية في الخليج العربي في مختلف العصور سيصدر بنفس المؤسسة السابقة الذكر.

-الجزء الخامس: ملاحق وجداول وفهارس وببليوغرافية لمختلف الأجزاء الأربعة المذكورة أعلاه، وسيصدر أيضا بنفس المؤسسة السابقة الذكر.

- دراسة «الجيش التونسي في عهد حمودة باشا» ندوة «تاريخ الجيش التونسي» تونس أكتوبر 1987.

- دراسة «العلاقات التونسية مع الولايات المتحدة» ندوة «البحر الأبيض المتوسط» تونس نوفمبر 1997.

## دراسات أخرى جاهزة للطبع والنشر

1 - ترجمة إلى اللغة الانجليزية لكتاب «مدينة القدس في العصر الوسيط». تحت عنوان Jerusalem in the Middle Ages 1253-1516.

2 - كتاب حول التفكير الاصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر (مجلدان).

3 -كتاب تونس وحرب القرم

4 - الحياة الاقتصادية والفكرية والعمرانية بمدينة تونس في العهد الحفصي (1228 - 1574).

5 - ترجمة إلى اللغة الفرنسية لكتاب سياسة حمودة باشا في تونس (1782 - 1814)

6 -مقال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وجريدة العروة الوثقى.

7- تأثير غزوات تيمورلنك على الحياة الفكرية بالشرق الأوسط.

8- الإدارة شمال إفريقيا في العهد الحفصي.

9 – دراسة عبد الله بن سبأ حقيقة أم أسطورة.

10 – الإمامة والخلافة في الشمال الإفريقي.

## المؤتمرات

1- مؤتمر : الدراسات التاريخيّة لشرقي الجزيرة العربية، عقد بالدوحة قطر من 21 إلى 27 مارس 1977.

2 – معظم مؤتمرات الفكر الإسلامي التي تعقد كل سنة بالجزائر.

3 – مؤتمر : الأندلسيون بشمال إفريقيا: انجازاتهم، آثارهم، أهميتهم، عقد بتونس من 14 إلى 21 فيفري 1978.

4 – مؤتمر الأساتذة الجامعيين الأفارقة، عقد بجامعة واشنطن بمدينة سياتل ولاية واشنطن الولايات المتحدة الأمريكية من 1 إلى 10 جويلية 1978.

5- مؤتمر: إعادة كتابة تاريخ العرب، دمشق ديسمبر 1978.

6- مؤتمر: تاريخ الأمة العربية عقد بجامعة قاريونس بالجماهيرية العربية من 8 إلى 12 أفريل 1979.

7- مؤتمر: الصهيونية حركة عنصرية عقد ببغداد أفريل 1980.

8- مؤتمر : صورة الدولة العثمانية في كتب التعليم عقد بعمان الأرد 1985.

9- مؤتمر هجرة الأدمغة العربية إلى خارج الوطن العربي – الرياض 1989

10- ندوة «تاريخ الجيش التونسي» قدمت دراسة الجيش التونسي في عهد حمودة باشا، تونس أكتوبر 1997

11- ندوة «البحر الأبيض المتوسط» قدمت دراسة العلاقات التونسية مع الولايات المتحدة الأمريكية، تونس، نوفمبر 1997.

12- هذا عدا عشرات المؤتمرات التي عقدت في تونس والجزائر والمغرب وغيرها في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

## التدريس:

1 – درّست كأستاذ زائر لمدة ثلاثة أشهر في جامعة يوتا قسم التاريخ بمدينة سولت ليك سيتي عاصمة ولاية يوتا بالولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تلك المدة تشمل فصلا دراسيا كاملا وهو فصل الربيع الدراسي من سنة 1977. درست أثناءها قسمين اثنين قسم دكتوراه الحلقة الثالثة (الماجستير) وقسم طلبته بسنة التخرج من قسم التاريخ من الجامعة المذكورة.

2 – ألقيت ثلاث محاضرات بدعوة من قسم التاريخ في جامعة جورج طاون بواشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية وذلك في شهر أوت من سنة 1978 المحاضرات الثلاث كانت في موضوع حضارة وتاريخ تونس في العهود الحديثة والمعاصرة.

3 – درّست في الجامعة التونسية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية من سنة 1971 إلى يومنا هذا.



## ما هي اهتماماتك بعيدا عن التدريس والبحث العلمي؟

إن اهتمامي الأول بعد البحث العلمي هو الفلاحة، فلاحة القوارص على أحدث الطرق ولا غرابة في ذلك وأنا الابن البار لمدينة منزل بوزلفة ولا أدخر جهدا للحصول على إنتاج متميز كمّا وكيفا بإعتماد المناهج العلمية الحديثة.

فيما يخص الإهتمامات الأخرى فالمطالعة وقراءة المجلات والصحف التونسية بالخصوص، وكذلك مشاهدة مختلف القنوات التلفزية العربية وغيرها تأتي في مقام مميز تشدني في التلفزة الأفلام التاريخية والأخبار والمناقشات والحوارات وبعض المسلسلات.

الموسيقى والأغاني التراثية سواء التونسية منها أو الشرقية أحبذ الإستماع إليها في الإذاعة سواء في البيت أو في السيارة بل أطرب لبعضها مثل أغاني صليحــة وعلي الرياحي وكذلك أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب أجدني مشدودا للموسيقى التراثية الغربية، مشاهدة الأفلام في القاعات السينمائية لا أميل إلى حضورها لا بالعربية ولا غيرها، وأحبذ مشاهدة الأفلام في التلفزة. الرياضة انفصلت عنها منذ طفولتي بعد أن كنت كشافا أثناء تعليمي الإبتدائي في منزل بوزلفة لكنني تكاد لا تفوتني مقابلة رياضية يكون الفريق القومي التونسي لكرة القدم مشاركا ومتباريا فيها ، : وأتتبع أحداثها وتطوراتها بكل حماس بل بكل اندفاع أحيانا.

## لو نطلب منكم تقديم «ببليوغرافية مدينة القدس، ماذا تقولون؟.

**- نريد أن نعرف كم استغرق إنجاز هذا العمل من وقت ؟**

**- عدد أجزاء الكتاب؟**

**- ما نشر من الأجزاء وأين؟**

تشتمل هذه البيليوغرافية على جميع الكتب والمقالات والوثائق والملفات والقرارات والإجراءات، المنشورة في أغلبيتها العظمى، والتي تمكنت من معرفة مؤلفيها أو محققيها أو معديها وعناوينها، والمتعلقة بالقدس في مختلف الفترات التاريخية، ولم يفلت من مواد أجزاء هذا الكتاب إلا الوثائق والدراسات والمؤلفات التي لم أعثر عليها أو على البيانات أو العناوين المرشدة إليها مع كل ما بذلته في الإعداد من صبر وأناة خلال فترة تفوق العشرين سنة. تتألف هذه البيليوغرافية في مجموعها من سبعة أجزاء.

**الجزء الأول،** يحتوي على ببليوغرافية القدس في العصور القديمة والوسيطة، أي من أول ما أنشئت فيها المعالم الأولى للعمران حوالي سنة 3000 قبل الميلاد إلى سنة 1516 ميلادي تاريخ دخول القدس تحت الحكم العثماني في عهد السلطان سليم الأول، وهذا الجزء الأول يشتمل على البيليوغرافية العربية لتلك الفترة التاريخية. التي تغطي حوالي أربعة آلاف وخمسمائة وست عشرة سنة.

**الجزء الثاني،** يشتمل على ببليوغرافية القدس من نهاية العصور الوسيطـة (1516) إلى آخر شهر جوان حزيران سنة 1988 كما ذكر سابقا. وهذا الجزء يضم بدوره البيليوغرافية العربية لفترة تاريخية تقارب الخمسة قرون من تاريخ المدينة المقدسة في العصور الحديثة والمعاصرة.

وهذان الجزءان الأولان ترد فيهما البيليوغرافية مرتبة ترتيبا هجائيا من الألف إلى الياء بالنسبة للأحرف الأولى لألقاب المؤلفين والكتاب، أو المجموعات الوثائقية مثل «وثائق» أو «مذكرات» أو «قرارات» ومما تجب ملاحظته هو أنّ في آخر الجزء الأول مجموعة من النصوص الحرفية الهامة تضم مثلا الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت في شأن القدس والأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد مكانة القدس في الإسلام والصلاة في مسجدها، وكذلك العهدة العمرية، وعهد أهل القدس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونص رسالة من الرسائل التي بعث بها صلاح الدين الأيوبي بعد استرجاعه القدس من الصليبيين، يخبر المسلمين، أينما كانوا بالفتح ونص وقفية حتى المغاربة بالقدس ونص وثيقة وقف أبي مدين بالقدس وجدول تاريخي لأهم الأحداث التي مرت بها مدينة القدس من سنة 3000 قبل الميلاد إلى سنة 1516 بعده وجميع هذه النصوص مرتبة ترتيبا زمنيا باعتبار تسلسل تواريخ حدوثها.

**الجزء الثالث،** يشتمل على ملاحق وفهارس الجزء الثاني من هذا المؤلف البيليوغرافي، وفي الملاحق هذه مجموعات من النصوص الهامة المتعلقة بالقدس الشريف في الفترة التاريخية الحديثة والمعاصرة، وجميع هذه الملاحق في مجموعاتها مرتبة ترتيبا زمنيا باعتبار تواريخ صدورها.

ومن هذه الملاحق على سبيل المثال لا الحصر القرارات التي اتخذتها مختلف المؤتمرات، وخاصة مؤتمرات القمة ومؤتمرات وزراء الخارجية في إطار جامعة الدول العربية والمتعلقة بالقدس بنصوصها الحرفية المخطوطة ومنها النصوص المتعلقة بالقضايا التالية: رفض مشروع تقسيم فلسطين، موضوع نقل وزارة خارجية إسرائيل إلى القدس، تعمير الصخرة المشرفة، إصلاح المسجد الأقصى، أعمار المسجد الأقصى إنشاء، مكتب لجامعة الدول العربية في القدس، إنشاء مستشفى عربي بالقدس قرار مجلس الجامعة لمجابهة الضغط الذي تمارسه إسرائيل على الدول من أجل الإعتراف بالقدس المحتلة عاصمة لها، الموقف من الدول التي تعيد علاقاتها مع إسرائيل أو تقبل القدس عاصمة للعدو، مشروع النظام الخاص بمركز توثيق وصيانة وترميم آثار القدس، اعتداءات إسرائيل المتكررة على مدينة القدس ومحاولة نقل السفارة الأمريكية إليها.

المجموعة الثانية من القرارات، هي نصوص الوثائق المتعلقة بقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ومجلس الوصاية واليونسكو وغيرها من المنظمات، المتعلقة بالقدس والتي منها النصوص الحرفية للقرارات المتعلقة بالقضايا التالية: صك الإنتداب على فلسطين، قرار التقسيم، مشروع نظام القدس، طلب وقف إطلاق النار في فلسطين والهدنة في القدس في نظام دولي دائم، دعوة إسرائيل إلى إبطال نقل بعض الدوائر والوزارات إلى القدس، مشروع تدويل القدس، حث إسرائيل للإمتثال لقرار لجنة الهدنة المشتركة حول القدس دعوة إسرائيل إلى إلغاء التدابير المتخذة بتغيير وضع مدينة القدس والامتناع عنها في المستقبل، دعوة إسرائيل إلى المحافظة على الممتلكات الثقافية خصوصا في القدس القديمة.

و من المجموعة الثانية أيضا قرار إدانة حريق المسجد الأقصى، دعوة إسرائيل بصورة مستعجلة إلى الكف عن تغيير معالم القدس وعن الحفريات الأثرية، إدانة إسرائيل بخرقها المستمر لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة واليونسكو بشؤون مدينة القدس وغيرها من القرارات.

المجموعة الثالثة من الملاحق، هي تلك المتعلقة بقرارات وبيانات منظمة المؤتمر الاسلامي ولجنة القدس المتعلقة بمدينة القدس، مرتبة ترتيبا زمنيا باعتبار تواريخ صدورها ومنها النصوص الحرفية للقرارات والبيانات المتعلقة بالمواضيع التالية: البيان الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامي الأول بالرباط والمتعلق بالقدس وقرارات مؤتمر وزراء الخارجية للمؤتمر الإسلامي الثاني، قرار يوم المسجد الأقصى، رارات مؤتمر وزراء الخارجية للمؤتمر الإسلامي الثالث، والتي فيها القرار الرابع المتعلق بقضية تهويد القدس، قرار مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الرابع في شأن ضم وتهويد القدس وتغيير معالمها الدينية والتاريخية، بيان مؤتمر القمة الإسلامي الثاني ومنه: قرار القدس، قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الخامس بشأن القدس، قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي السادس، قرار رقم واحد بشأن تكوين لجنة القدس، بيان مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي السابع في شأن الدفاع عن التراث والطابع الإسلامي والعربي والإنساني للقدس، تقرير حول اجتماع لجنة القدس في دور انعقادها الرابع ونصوص القرارات المتخذة في شأن القدس.

ومن هذه القرارات أيضا قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي الثامن بشأن صندوق القدس، ومؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي العاشر ( دورة فلسطين والقدس ) ونصوص وجميع القرارات والبيانات المتعلقة بالقدس في هذه الدورة المتميزة ومنها قرارات بشأن صندوق القدس، ولجنة القدس، ونص خطاب رئيس لجنة القدس في افتتاح الاجتماع الأول للجنة القدس، ونصوص قرارات لجنة القدس، ونص رسالة رئيس لجنة القدس إلى الندوة العالمية حول القدس المنقدة بلندن، وتوصيات لجنة القدس في اجتماعها الثاني بدينة مراكش.

ومن هذه النصوص أيضا قرارات مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية في دورته الحادية عشر بشأن مدينة القدس الشريف وبشأن لجنة القدس وصندوق

القدس وبشأن النظام الأساسي لوقفية صندوق القدس، وبشأن الحفاظ على التراث الثقافي والإسلامي في المدينة كذلك نص توصيات لجنة القدس أثناء اجتماعها في دورتها الطارئة بمدينة الدار البيضاء ونص بيان الندوة العالمية حول القدس التي عقدتها منظمة المؤتمرالإسلامي بباريس، ونص البيان الختامي للمؤتمر الطارئ لوزراء خارجية الدول الإسلامية بفاس حول قضايا القدس، والبيان الختامي لأشغال لجنة القدس الرباط والبنود المتعلقة بالإلتزام بتحرير القدس العربية لتكون عاصمة للدولة الفلسطينية المتخذة بمؤتمر القمة الإسلامي الثالث المنعقد بمكة المكرمة ونص إعلان الجهاد المقدس لإنقاذ القدس الشريف.

ومن وثائق هذه المجموعة ونصوصها أيضا قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الثاني عشر بشأن لجنة القدس، وبشأن استمرار عمليات الإستيطان في الأراضي العربية المحتلة ومنها القدس وبشأن صندوق القدس ووقفيته وبشأن إعلان الجهاد المقدس.

وقرارات مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الثالث عشر بشأن القدس الشريف والرابع عشر بشأن مدينة القدس وصندوق القدس ووقفيته. وكذلك قرارات مؤتمر القمة الإسلامي الرابع وقراراته بشأن مدينة القدس الشريف، وقرارات مؤتمر وزراء الخارجية الخامس عشر بشأن القدس ولجنة القدس وصندوق القدس ووقفيته. والمؤتمر السادس عشر بشأن مدينة القدس ولجنة القدس وصندوق القدس وكذلك قرارات مؤتمر القمة الإسلامي الخامس بشأن مدينة القدس الشريف وصندوق القدس ووقفيته ومؤتمر وزراء الخارجية السابع عشر بشأن صندوق القدس.

ومن هذه النصوص أيضا توصيات لجنة القدس في دورتها الخامسة فيما يتعلق بمدينة القدس في المجالات الإعلامية والثقافية والإقتصادية ودعم الصمود وتوصيات لجنة القدس في دورتها السادسة بشأن تحرير القدس ودعم الصمود وقرارات مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر بشأن القدس الشريف وما يتعلق بالقدس في البيان الصادر عن اجتماعات لجنة القدس في دورتها السابعة وتوصيات لجنة القدس في دورتها الثامنة وتقرير لجنة القدس المقدم إلى مؤتمر القمة الإسلامية الرابع وقرارات مؤتمر القمة الإسلامية الرابع والخامس بشأن مدينة القدس وتوصيات لجنة القدس في دورتها التاسعة بشأن القدس وقرارات لجنة القدس المتعلقة بالمدينة المقدسة في دورتها العاشرة والتوصيات المتعلقة بالقدس الصادرة عن الإجتماع الطارئ للجنة القدس، وكذلك القرارات الصادرة عن لجنة القدس المتعلقة بالقدس في دورتها العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة ومن هذه النصوص ما يتعلق بالقدس في تقرير الدورة الرابعة لمجلس إدارة صندوق القدس، وكذلك الدورة الخامسة وهي أقسام من تقرير لجنة القدس المقدم إلى مؤتمر القمة الإسلامي الرابع. وفصول من تقرير الدورة السادسة لمجلس إدارة صندوق القدس خاصة منها ما يتعلق بصندوق القدس ووقفيته.

المجموعة الرابعة من الملاحق تشتمل على بيانات وقرارات أخرى هامة بشأن المدينة المقدسة مرتبة أيضا ترتيبا زمنيا باعتبار تواريخ صدورها، ومن هذه الملاحق النصوص الحرفية للوثائق التالية.

تقرير المهندسين بشأن حريق المسجد الأقصى، ونداء مؤتمر إنقاذ القدس المقررات والتوصيات الصادرة عن مؤتمر إنقاذ القدس المنعقد في عمان، كذلك بيان وقرارات مجمع البحوث الإسلامية بشأن جريمة إحراق المسجد الاقصى وقرارات وتوصيات الفترة الأولى للمؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية ونص قرار المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي الدورة الحادية عشر بمكة المكرمة ونص فتوى علماء الشيعة حول جريمة إحراق المسجد الأقصى ومذكرة مجلس أمانة القدس إلى مساعد الحاكم الإداري للمدينة حول ضم القدس للأراضي المحتلة.

ومن هذه الملاحق أيضا نص مذكرة زعماء الضفة الغربية المسلمين حول ضم القدس للأراضي المحتلة

والإعتداء على المقدسات وفتوى علماء المسلمين في الضفة الغربية حول حقوق المسلمين في المسجد الأقصى المبارك والحرم الإبراهيمي الشريف.

والملحق الأخير هو جدول تاريخي يشتمل على أهم الأحداث التي حصلت في مدينة القدس وأبرز المستجدات مع تواريخها من سنة 1516 إلى آخر شهر جوان حزيران سنة 1988.

بالنسبة إلى كشاف العناوين تجدر الإشارة إلى أنّه يحتوى على جميع عناوين المؤلفات والمقالات والوثائق والقرارات الواردة في الجزء الثاني والثالث مرتبة ترتيبا هجائيا.

**الجزء الرابع،** وقع تخصيصه لببليوغرافية القدس باللغة الانجليزية وهو يشتمل على جميع أسماء الكتب وعناوين المقالات والبيانات والقرارات والتقارير التي ضمتها هذه الببليوغرافية، التي كتبت ونشرت بتلك اللغة وتتعلق بمدينة القدس من سنة 3000 قبل الميلاد إلى آخر جوان حزيران سنة 1988 فيكون هذا الجزء يضم ببليوغرافية القدس لمدة 4968 سنة.

**الجزء الخامس،** يضم جميع ملاحق وفهارس الجزء الرابع السابق الذكر باللغة الأصلية لها وهي الإنجليزية وهو في أغلبه كالجزء الثالث - جزء الملاحق والفهارس باللغة العربية- ويجب التأكيد على أن الملاحق الواردة في هذا الجزء جميعها نصوص حرفيّة كما صدرت ونشرت باللغة الإنجليزية هذا مع ملاحظة أن قرارات وبيانات جامعة الدول العربية في شأن القدس ليس لها نصوص حرفية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية لما كانت الجامعة بتونس، فاضطررنا إلى ترجمتها بتكليف من مؤسسة «بيت الحكمة» في تونس ترجمة دقيقة.

أما بيانات وقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ومجلس الوصاية واليونسكو وكذلك بيانات وقرارات وتوصيات وتقارير منظمة المؤتمر الإسلامي ولجنة القدس المتعلقة بالقدس نوردها بنصوصها الإنجليزية ويضم هذا الجزء ترجمة للآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي هي في شأن القدس.

**الجزء السادس،** خصص لببليوغرافية القدس باللغة الفرنسية وهو يشتمل على جميع الوثائق والكتب والمقالات والبيانات والقرارات والتقارير التي ضمتها هذه المجموعة الببليوغرافية والتي كتبت ونشرت باللغة الفرنسية ومجالها مدينة القدس من سنة 3000 قبل الميلاد إلى آخر شهر جوان حزيران سنة 1988 أي يشتمل هذا الجزء بدوره مثل شبيهــه باللغـة الإنجليزية المذكور سابقا- على جميع ما تمكنت من الحصول عليه من ببليوغرافية القدس لمدة 4968 سنة.

**الجزء السابع والأخير،** يحتوي على جميع ملاحق وفهارس الجزء السادس وجميع هذه الملاحق والفهارس في هذا الجزء هي باللغة الفرنسية وهو في مجمله كالجزء الخامس في هذه المجموعة الببليوغرافية وجميعها نصوص حرفية كما صدرت ونشرت باللغة الفرنسية. هنا يجب أن نستثني من هذا التعميم قرارات وبيانات جامعة الدول العربية في شأن القدس حيث ان هذه القرارات والبيانات غير مترجمة للغة الفرنسية ايضا وترجمت هذه القرارات إلى اللغة الفرنسية ترجمة جيدة.

أما بيانات وقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ومجلس الوصاية واليونسكو وكذلك بيانات وقرارات وتوصيات وتقارير منظمة المؤتمر الإسلامي ولجنة القدس المتعلقة بالقدس، نوردها بنصوصها الفرنسية حرفيا ويضم هذا الجزء في أوله كمثيله الإنجليزي ترجمة الآيات القرانية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تهم مدينة بيت المقدس.

وإذا أردنا أن نقوم بعملية إحصائية لمشمولات جميع الأجزاء التي وردت في هذا العمل الببليوغرافي يمكننا أن نبين ذلك كما يلي:

**الجزء الأول:** باللغة العربية فترته الزمنية من سنة 3000 قبل الميلاد إلى سنة 1516 بعد الميلاد يتشمل على 728 كتابا ومقالا ومادة ببليوغرافية أي الوثائق والتقارير

والندوات والمؤتمرات المتعلقة بالقدس صدر سنة 1989 وبه 183 صفحة.

**الجزء الثاني**: باللغة العربية ايضا فترته الزمنية من سنة 1517 ميلادي إلى نهاية شهر جوان حزيران سنة 1988 يشتمل على 2116 كتابا ومقالا ومادة ببليوغرافية صدر سنة 1990 وبه 338 صفحة.

**الجزء الثالث**: باللغة العربية أيضا، جميعه ملاحق وفهارس للفترة الزمنية التي يضمها الجزء الثاني ويشتمل على 26 نصا مترجما للقرارات والتوصيات والبيانات التي صدرت عن جامعة الدول العربية ويشتمل على 54 نصا حرفيا للقرارات والتوصيات والبيانات التي صدرت عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ومجلس الوصاية واليونسكو المتعلقة بالقدس، ويضم 74 نصا حرفيا لبيانات وقرارات منظمة المؤتمر الإسلامي المتعلقة بالقدس وكذلك نصوص عدة وثائق أخرى منشورة مختلفة عددها عشرة تتعلق بالقدس أيضا وبه جداول وفهارس أخرى مختلفة، صدر سنة 1991 وبه 519 صفحة.

**الجزء الرابع**: باللغة الإنجليزية فترته الزمنية من 3000 قبل الميلاد إلى آخر جوان / حزيران 1988 يشتمل على 2392 مادة ببليوغرافية سواء كانت كتبا أو مقالات أو وثائق أو قرارات... وهو يحتوي على ببليوغرافية القدس المنشورة باللغة الانجليزية لمدة 4968 سنة صدر سنة 1992 وبه 324 صفحة.

**الجزء الخامس**: باللغـة الإنجليزيـة أيضـا جميعـه ملاحق وفهارس للفترة الزمنية التي يضمها الجزء الرابع وهي نصوص حرفية كما صدرت ونشرت بلغتها الأصلية الإنجليزية يشتمل على 26 نصا مترجما للقرارات والتوصيات التي صدرت عن جامعة الدول العربية ويشتمل على 54 نصا حرفيا للقرارات والتوصيات والبيانات التي صدرت عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ومجلس الوصاية واليونسكو المتعلقة بالقدس ويضم بالإضافة إلى ما سبق النصوص الحرفية لبيانات وقرارات منظمة المؤتمر الإسلامي وبه ملاحق وجداول أهم أحداث مدينة القدس في مختلف العصور وفهارس أخرى مختلفة، هذا الجزء لم يصدر بعد وهو جاهز للنشر وستكون به حوالي 500 صفحة.

**الجزء السادس**: باللغة الفرنسية، فترته الزمية من سنة 3000 قبل الميلاد إلى جوان حزيران 1988 يشتمل على حوالي 1440 كتابا ومقالا ومواد اخرى ببليوغرافية من وثائق وبيانات وقرارات... هذا الجزء ايضا لم يصدر بعد وهو جاهز للنشر وبه حوالي 300 صفحة.

**الجزء السابع**: باللغة الفرنسية أيضا جميعه ملاحق وفهارس وجداول للفترة الزمنية التي يضمها الجزء السادس وهي نصوص حرفية كما صدرت ونشرت بالفرنسية. يشتمل على 26 نصا مترجما للقرارات والتوصيات... التي صدرت عن جامعة الدول العربية، ويشتمل على حوالي 54 نصا للقرارات والتوصيات والبيانات التي صدرت عن الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ومجلس الوصاية واليونسكو المتعلقة بالقدس ويضم هذا الجزء النصوص الحرفية لبيانات وقرارات المؤتمر الإسلامي وبه ملاحق وجداول مختلفة منها جدول لأهم الأحداث التي مرت بها بيت المقدس في مجرى العهود والعصور، وكذلك به فهارس أخرى مختلفة. هذا الجزء أيضا لم يصدر بعد وهو جاهز للنشر وسيضم حوالي 300 صفحة. وإذا أردنا شرح هذه الأرقام الواردة أعلاه بسرعة تكون الصورة كما يلي:

المادة الببليوغرافية كاملة مع ملاحقها تساوي:

باللغـة العربيـة: 728 + 2116 + 154 = 2998

باللغة الإنجليزيـة: 2392 + 150 = 2542

باللغـة الفرنسيـة: 1440 + 150 = 1590

المجمـوع = 7130

**ملاحظة: الوثائق المذكورة بنصوصها في هذا الجمع تساوي 454 نصا حرفيا أصليا باللغات الثلاث.**

## عشرون سنة لإنجاز هذا البحث المهم، ما هي الصعوبات التي واجهتموها في جمع المعلومات وفي الترجمة.....؟

لقد راودتني فكرة إعداد ببليوغرافية شاملة عن مدينة القدس منذ سنة 1964 وأنا طالب في قسم الدكتوراه بشعبة التاريخ بالجامعة الأمريكية في بيروت وعقدت العزم على إنجاز تلك الفكرة بعد صدور أولى دراساتي عن مدينة القدس وهي كتاب : مدينة القدس في العصر الوسيط (صدر سنة 1976) وإن كنت بدأت تجميع مواد هذه البيبليوغرافية منذ سنة 1970.

ولا يخفى على أي باحث الصعوبات التي تواجهه عند إعداد ببليوغرافية سواء في جمعها من المكتبات العامة والخاصة أو مكتبات الجامعات والكليات أو مراكز البحث والكشوفات البيبليوغرافية التابعة لها وبطاقات كتبها ومجلاتها وكذلك الصعوبات المنجرة عن البحث والتنقيب في كشوفات المصادر والمراجع في مختلف المؤلفات والدراسات والمقالات وكشوفات الوثائق بجميع أنواعها.

وقد تفاقمت مشاق هذا العمل لما عقدت العزم على أن يشمل هذا الإنجاز العلمي كامل الفترات التاريخية التي مرت بها مدينة القدس من حوالي سنة 3000 قبل الميلاد إلى عصرنا هذا وتحملت عبء هذا الإنجاز وصعوباته لا في الفترة الإسلامية وباللغة العربية فحسب بل في مختلف العصور التاريخية وباللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية.

لقد ذهلت لما اكتشفت أن مدينة القدس وما أعظمها من مدينة على مر العصور والدهور لم تعد لها ببليوغرافية شاملة لا باللغة العربية ولا بأية لغة أخرى فراعني وأنا أجمع المعلومات لكتاب (مدينة القدس في العصر الوسيط) مدى افتقار مكتباتنا العربية لمجموعات ببليوغرافية تأخذ بايدي الباحثين والدارسين وذلك على الرغم من شدة أهمية البيبليوغرافيات للطلبة والأساتذة والكتاب في مختلف مجالات المعرفة والإنتاج الفكري في أوسع معانيه إذ يصعب جدا الإلمام بالإنتاج العلمي والفكري في موضوع معين إذا لم تكن له ببليوغرافيا ت دقيقة وشاملة تكشف ما هو متوفر من مصادر ومراجع تتعلق به؟

## لماذا كان العمل فرديا، ألم يكن من الممكن تشكيل فريق للبحث لتيسير المهمة؟

لقد تم إعداد هذه البيبليوغرافية باعتمادي على مجهودي الفردي وبدافع المسؤولية العلمية في مجالها المطلق بدون أية إعانة من أي فرد أو مجموعة أو مؤسسة رسمية أو غير رسمية لا في تونس ولا في غيرها من البلدان، لا العربية ولا غيرها وذلك لأن هذا العمل المضني يقتضي البحث المتواصل الدؤوب سنوات عديدة تجاوزت العشرين سنة في هذه الدراسة وتقتضي عزيمة غير محدودة وإيمانا صلبا. بتحدي كل الموانع والعقبات مهما كانت صلبة ومنيعة.

إن الباحثين يعرفون الصعوبات التي تجابه مثل هذا الإنجاز البيليوغرافي الشامل لموضوع رئيس ومتميز كبيليوغرافية القدس منذ نشأتها إلى آخر شهر جوان/حزيران 1988 تاريخ تقديم مسودة الكتاب للشروع في نشره إلى المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة). ولذا كان لا مناص من مضاعفة الجهد الفردي وتتبع مضانّ الكتب والدراسات واستقصاء أثرها أينما وجدت سواء في البلاد العربية أو في البلاد الأوروبية أو في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. وقد تحقق لي هذا أثناء مشاركاتي في المؤتمرات العلمية أو عند وجودي في تلك البلدان في مهمات علمية بحثية وتدريسية وغيرها. . . مع التأكيد على أني لم أجد أية مساندة من أي جهات أو مؤسسات عربية أو غيرها اعتبارا من أن هذا المشروع يصعب جدا تحقيقه من جهة، ولعدم كنه وتصور الفوائد الجمة والمختلفة من وراء تحقيق هذه الدراسة المعمقة. ومثل هذه المواقف صدرت من مسؤولي أقرب المؤسسات والمراكز لقضية فلسطين بصفة عامة والقدس الشريف بصفة خاصة.

## أين تكمن أهمية العمل المنجز مقارنة بالمصادر الموجودة؟.

ذكرت سابقا أني ذهلت لما اكتشفت أن مدينة القدس وما أعظمها من مدينة على مر العصور والدهور - لم يقع إعداد ببليوغرافية شاملة لها بأي لغة كانت. لقد راعني وأنا اجمع المعلومات لكتابي : مدينة القدس في العصر الوسيط مدى افتقار مكتباتنا العربية لمجموعات ببليوغرافية تأخذ بأيدي الباحثين والدارسين وذلك على الرغم من شدة أهمية البيبليوغرافيا للطلبة والأساتذة والكتاب في مختلف مجالات المعر فة والإنتاج الفكري في أوسع معانيه إذا يصعب جدا الإلمام بالإنتاج العلمي والفكري في موضوع معين إذا لم تكن له ببليوغرافيات دقيقة وشاملة تكشف ما هو متوفر من مصادر ومراجع تتعلق به.

## لماذا وقع اعتماد ثلاث لغات في إنجاز هذه الموسوعة ؟

اعتمدت اللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية في إنجاز هذه الموسوعة لسببين : السبب الأول لأن القدس مدينة عربية، وثانيا لأن الانجليزية والفرنسية أكثر اللغات أهمية وانتشارا في العالم. ولعل من أهم الأسباب في ذلك، من دون شك، معرفتي للغات الثلاث، والمصادر والمراجع والوثائق والبيانات وغيرها محررة في نصها الأصلي بإحدى اللغات الثلاث، أو باثنين منها، وأحيانا باللغات الثلاث.

## أن يكون الباحث تونسيا، ليهتم بالقدس ألا يثير ذلك فيكم شعورا ما؟

فعلا لقد كان هذا التساؤل يوجه إلى بإعجاب. ولازال يلقى عليّ بإلحاح من طرف قراء جميع ما أنشره عن تاريخ القدس وكذلك الأمر في كل مؤتمر أحضره في البلاد العربية أو غيرها، حتى وإن كانت الدراسة التي أشارك بها لا تعني مدينة القدس. هذا التساؤل كان ولا زال ملحا ومكثفا من طرف الزملاء، أساتذة الجامعات، والباحثين، والطلبة، وحتى السياسيين.

الحقيقة أن هذا الانجاز العلمي، وغيره مما نشرته عن بيت المقدس، يبعث فيّ الشعور بأني قدمت كتونسي لمدينة القدس دراسات أكاديمية متميزة لمدينة مقدسة ومتميزة أيضا، وأثريت المكتبة العربية بمؤلفات فريدة من نوعها تخدم الدارسين والباحثين وترشدهم لكل ما يتعلق بمادة القدس في التاريخ.

## كيف ترون أوجه استفادة الشباب اليوم من هذه الموسوعة؟.

يستفيد الشباب وغير الشباب من الباحثين بهذه الموسوعة باعتبار أنها تقدم لهم كل عناوين الكتب والمقالات والدراسات التي تتعلق بالقدس الشريف من أول ما تأسست إلى شهر جوان من سنة 1988 وكذلك النصوص الحرفية للبيانات والقرارات وغيرها التي صدرت عن المؤسسات الدولية والإقليمية مثل مؤسسة الأمم المتحدة وكل ما يتفرع عنها من منظمات وكذلك الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي...



هذا مع ملاحظة أن هذه البيليوغرافية وهذه النصوص الحرفية للقرارات... وكذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأهم الأحداث التاريخية التي حصلت في بيت المقدس منذ تأسيسها إلى جوان 1988 كل ذلك باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية هذا مع التأكيد على أن كل عناوين الكتب وغيرها من قرارات لم تقع ترجمتها بل نشرناها باللغة والنص الرسميين اللذين صدرت بهما كل وثيقة وكل تأليف وكل نص ولم نقم بترجمة إلا قرارات المؤتمرات المختلفة للجامعة العربية المتعلقة بالقدس من العربية إلى الانجليزية ومن العربية إلى الفرنسية.

وستبقى هذه البيليوغرافية لكل من أراد أن يعرف عن القدس شيئا أو يكتب عنها لأجيال عديدة خاصة بالنسبة للدراسات المتعمقة في مختلف المجالات العلمية. إن هذه البيليوغرافية وملاحقها بأجزائها السبع تقوم، بكثافتها وثرائها

غير المعهودين في هذا المجال دليلا قاطعا وباتا على الأهمية الرئيسية التي تتمتع بها مدينة القدس لدى العلماء والكتاب والباحثين في مختلف الإختصاصات والميادين على مر العصور والأزمنة وهي المدينة الفريدة في هذا العالم التي تتميز بمقومات عديدة مقدسة لأبناء الديانات السماوية الثلاث وقد صدق مؤرخ مدينة القدس وإبنها البار الأستاذ عارف العارف الذي كرس حياته لدراسة تاريخ القدس لما وصف قداستها وأصالتها ونوائبها بقوله:

«إنها مدينة مقدسة، واسمها هذا، القدس... معناه في اللغة الطهر والبركة والقداسة... وقداستها هذه وإن كانت قد رفعت قدرها وشرفت اسمها وأذاعت في الخافقين صيتها إلا أنها في الوقت نفسه كانت ـ ويا للأسف ـ السبب في معظم البلايا والمحن التي أصابتها» فكم وكم من مرة في التاريخ القديم منه والحديث ـ هوجمت واستبيح حماها وكم من مرة سفكت دماء أبنائها ودمرت بنيانها تدميرا يجعل عاليها سافلها... لا لسبب سوى أنها مقدسة» (1).

وقد أجاد ذلك الأستاذ محمود إبراهيم في مقدمة كتابه لما ذكر القدس بقوله:

«وإني لآمل ان يكون هذا العمل المتواضع كاشفا للقراء من بين امتنا عن ان المدينة المقدسة، ليست مجرد مدينة تسكن ويبنى فيها، ويزرع في ارضها التين والعنب والزيتون بل هي قاعدة ترابية لعقيدة الاسلام وتاريخه لا تقوم مقامها مدينة اخرى على هذه الارض حتى ولو احتوت القصور الشامخات وانبتت الثمار الدانيات ووفرت لقاطنيها كل اشكال الرفاه والنعيم» (2).

ويقول الشيخ اسعد التميمي امام مسجد الاقصى سابقا في هذا الشان:

«...وليست بركة هذه الأرض مادية كلها وإنما بركتها، بالإضافة إلى الأشياء المادية، بركات معنوية تتمثل في أنها عش الأنبياء ولذلك فكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في دفنه في بيت المقدس عند وفاته بإعتبارها عش الأنبياء وكانت لم تفتح بعد وهي مهبط الوحي وهي مسرى النبي ومعراجه صلى الله عليه وسلم وهي القبلة الأولى فقد صلى المسلمون إلى مسجدها أربع سنوات ونيفا منها ثلاث سنوات في مكة، حيث فرضت الصلاه في السنة العاشرة من البعثة فأمر النبي والمسلمون معه أن يصلوا إلى القدس وأن يجعلوا الكعبة بينهم وبين القدس وصلى سبعة عشر شهرا إلى القدس في المدينة» (3).



## المراجع والمصادر

1) عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس مكتبة الأندلس 1961، ص 1
2) محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة : دراسة تحليلية ونصوص مختارة محققة، الكويت، معهد المخطوطات العربية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1989، ص 23.
3) زوال اسرائيل حتمية قرآنية، القاهرة، دار المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع، 24.

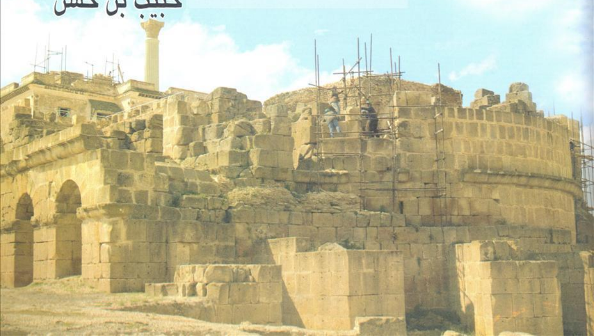
معالم ومواقع

# أوذنة

# تاريخها وآثارها



حبيب بن حسن



توجد أوذنة على بعد ثلاثين كيلومترا عن مدينة تونس ويتمّ الوصول إلى موقعها عبر الطّرق التّالية:

- الطّريق السّيّارة تونس -زغوان مرورا بالمفترق المؤدي للخليديّة.

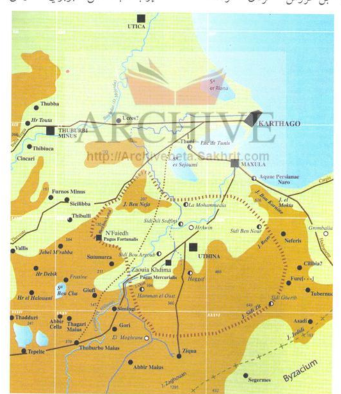
- الطّريق الوطنيّة تونس-فوشانة-المحمديّة-الخليديّة أو المحمديّة - بوربيع أو تونس - المروج - نعسان -الخليديّة.

- طريق رادس - بن عروس - مرناق - أوذنة.

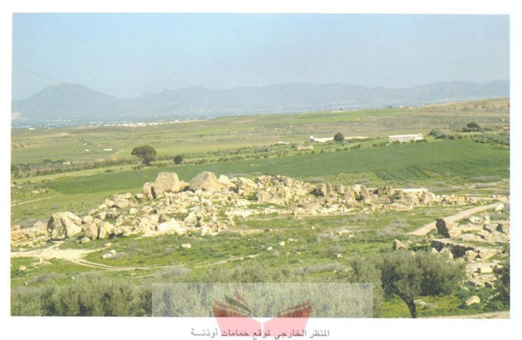
- الطريق السّيّارة الحمّامات -تونس مرورا بالمفترق الموالي لنقطة الإستخلاص عبر مرناق.

تاريخيا كانت أوذنة تقع على الطّريق الرّومانية الرابطة بين قرطاج وتبوربوماجوس (هنشير قصبة الموجودة قرب الفحص) مرورا بماكسولا (رادس حاليّا) وبمستعمرة أخرى اندثرت تدعى كانوبيس (canopis).

الراجح أن تاريخ أوتينا يعود إلى ما قبل الانتصاب الرّوماني بشمال إفريقيا، وذلكّ لما لإسم أوتينا من إرتباط بالأصل البربري، ومن المتأكّد أنّ قرطاج



خريطة منطقة أوذنة في العهد القديم



المنظر الخارجي لموقع حمامات أوذنــة



البونيّة كانت لها علاقة بهذه المدينة والأراضي الخصبة التي تحيط بها خاصّة وأنه تمّ العثور بالمنطقة القريبة منها على نقيشة تحمل ثلاث لغات لاتينية بونية و إغريقية، ترجع إلى مدينة يتمّ الحكم فيها عن طريق «شوفات» (Suffètes).

ويحتمل جدّا أن هذه النّقيشة ترمز إلى مدينة أوتينا نظرا لقربها من منطقة الاكتشاف هذه، زد على ذلك أنّنا عثرنا (إثر المسح الذي قمنا به بالمناطق المجاورة للمدينة من الجهة الجنوبية الغربية) على بقايا حصن يرجع تأسيسه للفترة قبل الرومانية وهو يحرس مدخل المدينة من هذه الجهة وبالتّالي الطّريق المؤدّي إليها أو إلى قرطاج. كما وجدنا بالموقع الكثير من قطع الفخّار والنّقود التي يرجع تاريخها إلى ما قبل احتلالها من طرف جنود روما.

أمّا الفترة الرّومانية فهي تبدأ منذ عهد الإمبراطور أوغوسطوس «Auguste» إذ أنّ تأسيسها الفعلي بالإسم الذّي نعرفه أي أوتينا يرجع إلى هذا العهد، فأوغوسطوس مكّن عددا من الجنود الرّومان المتقاعدين من الاستقرار فوق أراضي أوذنة حيث منحهم الأراضي المجاورة للموقع ليستغلّوها فلاحيّا، كما أنّه ومن أوّل وهلة منح هذه المدينة لقب مستعمرة « Colonie »، وهذه التّسمية كان مرغوبا فيها كثيرا في إفريقيا خلال القرن الأوّل والثّاني بعد المسيح ناهيك أنّ عددا كبيرا من مدن شمال إفريقيا لم ينالوا هذا

الكابيتــــول

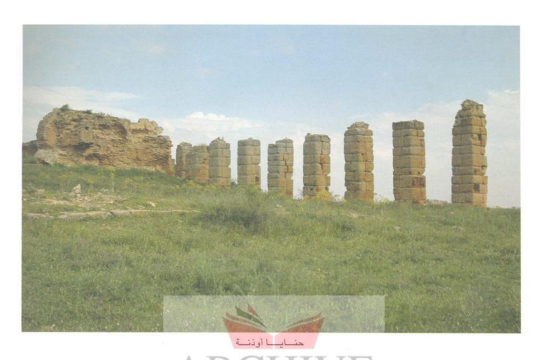




الطابق السفلي للحمامات العموميــة

اللقب إلاّ في أواخر القرن الثاني بل إن بعضها لم يفز به البتّة. . . وهو لقب يخوّل لسكّان المدينة التّمتّع بالجنسية الرّومانية والإعفاء من دفع الضرائب التي تسلّط على الأهالي الأصليين.

أمّا المراجع التي تدلّنا على إنشاء هذه المستعمرة الرّومانية فهي أوّلا تاريخيّة، وتتمثل في مدوّنة الكاتب الرّوماني «بلين» (Pline l'ancien) الذي يذكرها من بين أقدم المستعمرات السّت التي أحدثت بإفريقيا، وهي سيرتا (Cirta) وسيكّا (Sicca)





قرطاج (Carthago) مكسولا (Maxula) أوتينا (Uthina) تبربي (Tuburbi).

أمّا المرجع الثّاني فهو أثري ويتمثّل في نصّ لاتيني كتب فوق لوحة من المرمر اكتشفت بمنزل روماني يدعى منزل سالونان « Maison de Salonin » وقد تمّ حفره منذ سنة 1896.

إلى جانب هذين المرجعين تم العثور سنة 134 بعد المسيح على نقيشة فوق المسرح «الجمهوري» بروما تصف لنا مدينة أوتينا التي تمّ تكريمها وتكبيرها بفضل العناية التي أولاها لها الإمبراطور هادريانوس «Harien» (117-138).

كما نذكر هنا أيضا العديد من النّقائش اللاّتينية والحفريات الأثريّة التي تؤكّد أنّ أوتينا عرفت ازدهارا كبيرا في بداية القرن الثالث بعد المسيح، على أنّ الفترة الذّهبيّة التّي مرّت بها يمكن أن نحصرها في القرنين الثاني والثالث بعد المسيح حيث نمت المدينة وتطوّر عمرانها.

كانت الدّيانة المسيحيّة بأوتينا مزدهرة نسبيّا إذ أنّ المدينة أنجبت العديد من الأساقفة الذين شاركوا في العديد من المجامع المذكورة بالمصادر التّاريخيّة ومنها مجمع سنة 515 بقرطاج الذي حضره القس كوانتوس « Quintus ».

وقد بدأ تقهقر المدينة منذ أواسط القرن الثالث بعد المسيح حيث تمّ نهبها وتخريب الكثير من بناياتها من طرف الجنود المتمركزين بها وذلك إثر ثورة قرديانوس (Gordien 1er) الأوّل بالجم سنة 238 بعد المسيح، كما وقع في القرن الرّابع تدمير بعض

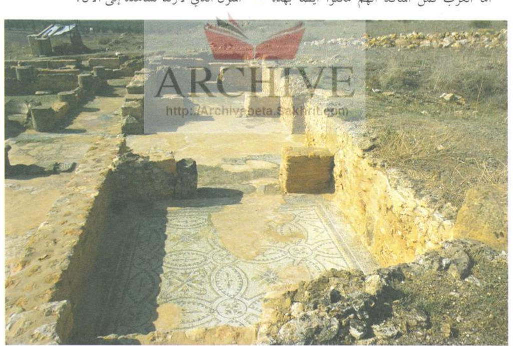
مبانيها من طرف الإمبراطور « Maxence ».

أمّا القرن الخامس الذي تمّ خلاله احتلال شمال إفريقيا من طرف الوندال فيمكن اعتباره شاهدا بصفة ملحوظة على تقلّص المدينة وانحطاطها، إذ تمّ مثلا في أواخر هذا القرن تركيز ورشة لصنع الفخّار داخل حمّام عائلة لابيري (Laberii) وهو ما يفسّر الاستغناء عن استعمال هذا المعلم.

ونصل إلى القرن السّادس الذي لم يكن هو أيضا قرن ازدهار حيث واكبه الاحتلال البيزنطي وتمّ في غضونه استعمال معبد الكابيتول، والمسرح الدّائري كمنطقتين محصّنتين بعد تدعيمهما بأسوار بنيت بسرعة.

أمّا العرب فمن المتأكّد أنّهم مكثوا أيضا بهذه المدينة إذ انّ العديد من القطع النّقديّة وقطع الفخّار والقناديل التي ترجع إلى العهود الأغلبية والفاطميّة والحفصيّة وكذلك الحسينيّة تثبت وجودهم واستقرارهم بأوتينا. فلقد تمّ العثور على قطعة نقديّة ترجع إلى عهد موسى ابن نصير وتحديدا سنة 84 هـ، وأيضا عثر على قنديل يرجع إلى العهد الزّيري، إلى غير ذلك من قطع الفخّار الأخرى التّي ترجع إلى مختلف العهود المذكورة آنفا.

وفي بداية فترة الاحتلال الفرنسي تمّ بيع هنشير أوذنة عن طريقة الإنزال إلى عائلة فرنسية تدعى « Ducroquet » حيث بنت فوق معبد الكابتول المنزل الذي لازلنا نشاهده إلى الآن.



منزل الأندستريوس

منزل اللابيريين



## الحفريـــات :

انطلقت الحفريات الأولى في أواسط القرن التّاسع عشر وبالتّحديد سنة 1845 عن طريق السيد روسو « A. Rousseau » وذلك بهضبة الأكروبول أوالكابتول. ثمّ أجريت حفريات أخرى أدارها السيد ڤوكلار «Gauckler » الذّي أماط اللّثام عن بعض المنازل في أواخر القرن التّاسع عشر، وقد ساهم الجيش الفرنسي أيضا في الحفريات خلال النّصف الأوّل من القرن العشرين ومنذ تلك الفترة لم تقع أيّة حفريّة بالموقع إلاّ التي أنجزت في أواخر الثمانينات حيث تمّ إبراز المعالم المعروفة من قبل.

مكّنت الحفريات التي بدأت منذ منتصف القرن التّاسع عشر من اكتشاف حوالي عشرين مسكنا رومانيا



فسيفساء أنديميون

شيّدت وسط حيّ راق كما مكّنت من العثور على ما يناهز 67 قطعة من الفسيفساء أكثرها معروضة بمتحف باردو بقاعة أوتينة أو بأرضية قاعة قرطاج، إنّ أغلب المنازل الهامّة وعددها تسعة تمّ حفرها من طرف الأثري الفرنسي ڤوكلار « P.Gauckler » وأشهر هذه المنازل وأفخمها هو المنزل المعروف باسم عائلة لابيري الموجود على اليسار بمدخل المدينة وهو منزل أعطانا الكثير من اللّوحات الفسيفسائية الخلاّبة مثل اللّوحة التي تمثّل الحياة الرّيفيّة بمنطقة أوذنة أو تلك التي تصوّر لنا ملك الأتّيك (Attique) إيكاريروس (Ikarios) وأمامه إلاه الخمر ديونيزوس «Dionysos» بصدد إهدائه عنقود عنب، أو تلك اللوحة التي تمثّل الإلاهة سيليني « Séléné » المبهورة بجمال الرّاعي، أنديميون « Endymion » أو


فسيفساء أوروبيــة



فسيفساء الملائكة الصّيادين

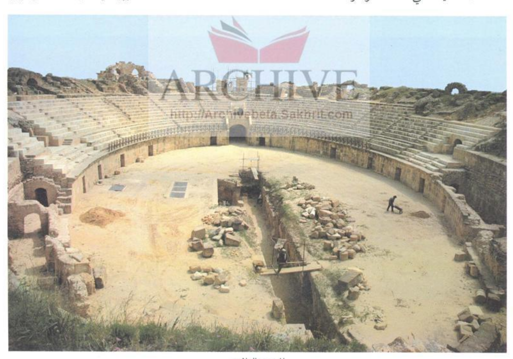
تلك التي تصوّر كبير الآلهة الإلاه جوبيتار (Jupiter) بصدد اختطاف الآلهة : أوروبا (Europe)، إلى آخره من اللّوحات الجميلة الأخرى الموجودة بمتحف باردو.

أمّا المعالم الهامّة التي يمكن أن نشاهدها بالموقع فهي:

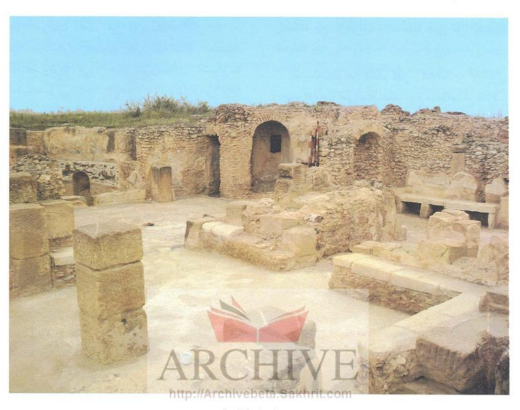
المسرح الدّائري(Amphithéâtre) وهو من أهمّ المسارح الدّائريّة بالبلاد التّونسيّة ويتسع إلى ما يناهز السّبعة عشر ألف متفرج ويرجع بناؤه إلى بداية القرن الثاني بعد المسيح. يوجد هذا المعلم بشمال الموقع وقد تمّ التعرّض له من طرف الأخصّائيين منذ زمن طويل لكن لم يقع درس كلّ جزئياته إلاّ بعد الأشغال الحديثة التي شملته مؤخرا.

لقد وقع رفع مثال هندسي للمعلم مكّننا من التّعرّف على المقاييس الجمليّة للمعلم وهي 120م فوق 89 مترا، وهو من أكبر المسارح الدّائريّة التي تمّ بناؤها بشمال إفريقيا في العهد الرّوماني، وبعد درس كلّ مقاييس المعلم تمّ ضبط عدد المتفرّجين الذين يمكن أن يحتويهم المعلم وهو بالضّبط 16225 شخصا، ويمكن اعتباره رابع مسرح دائري بشمال إفريقيا بعد مسارح قرطاج والجمّ ولبدة (لبتيس مقنا) (Leptis magna).

يقع هذا المعلم فوق هضبة أين تمّ بناء حلبته وتذكّرنا طريقة بنائه بالمسارح الدّائريّة بسانت بالغال (Saintes en Gaule) وإيطاليكا بمقاطعة هيسبانيا




المسرح الداذري




حمــامــات أوذنــة

إنّ قطع الفخّار وبعض النّقود التي تمّ العثور عليها داخل هذا المعلم وخاصّة بطبقته السّفليّة مكّنتنا من الاستنتاج أنّه تمّ إخلاؤه والعدول عن استعماله كمعبد في نهاية القرن الخامس بعد المسيح أو بداية القرن السّادس على أكثر تقدير.

وقد عثرنا داخل إحدى قاعات الطّابق السّفلي الأوّل على بقايا معصرة زيت تمّ تركيزها خلال هذه الفترة المتأخّرة من تاريخ هذا المعلم.

## الحمّامات العموميّة

تقع هذه الحمّامات على بعد حوالي 200 متر شرقيّ معبد الكابتول وهي معلم ضخم، يبدو للمشاهد في مظهر كتل من بقايا جدران، وأسقف تساقطت على إثر الانفجارات الكبيرة التي أصابته خلال الحرب العالميّة الثانية.

إنّ عظمة المعلم وكبر مساحاته تدعونا إلى مقارنته بالحمّامات الإمبراطوريّة المتواجدة بشمال إفريقيا مثل

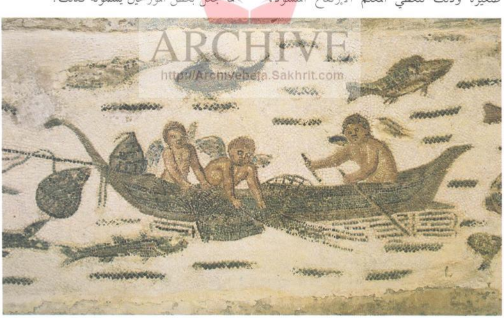
جلّ جوانب المعلم من الإستنتاج التالي : إنّ هذا الكابيتول يحتوي على ثلاثة معابد كانت تكوّن في العهد الرّوماني الثالوث الكابتولي (La triade capitoline) وهي ترمز إلى إلاه الآلهة الرّومانية جوبيتار (Jupiter) وزوجته جينون(Junon) وآبنته مينارفة (Minerve).

يتكوّن هذا المعبد الضخم في طابقه العلوي (الذي دمرّ) من القاعة التي كان يوجد بها تمثال الآلهة والقاعة المقدّسة المخصّصة للعبادة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكابيتول له خاصّية لا توجد في المعالم الأخرى الشّبيهة به ألا وهي احتواؤه على ثلاثة طوابق سفليّة (مازالت على حالة معماريّة شبه جيّدة)، وقد شيّدت فوق هضبة صغيرة وذلك لتعطي المعلم الإرتفاع المنشود، ولتمكّنه من الإشراف والسّيطرة على كلّ السهول المحيطة به.

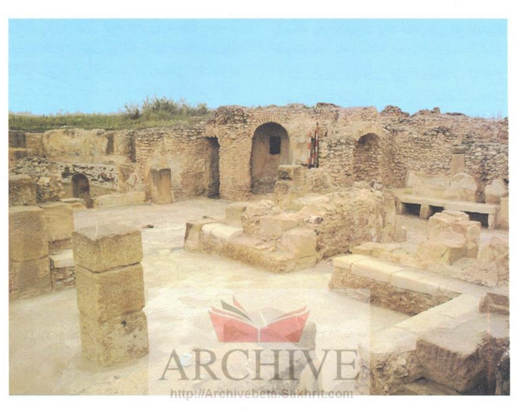
أمّا مقاسات هذا المعلم فهي 27 x 43 م، و تحتوي واجهته الأماميّة على ستّة أعمدة يبلغ ارتفاعها مع القاعدة والتّاج حوالي ستّة عشر مترا، وهي من النّمط الكورنتي، ولبلوغها يجب صعود مدرج يضم 41 درجة مقسومة إلى مدرجين واستراحة.

وقد عرف المعلم عدّة تغييرات تبرز لنا عبر الجدران المضافة آنفا وكذلك عبر التّدعيمات المتأخّرة التي أجريت عليه. كما تمّ في العهد البيزنطي إضافة بعض الغرف من الجانبين الشرقي والغربي غايتها الأساسية تدعيم المعبد وحماية جدرانه من السّقوط، وربّما استعمل الكابيتول كقلعة في هذا العهد البيزنطي ممّا جعل بعض المؤرّخين يسمّونه كذلك.





فسيفساء الملائكــة



حمــامــات أوذنــة

إنّ قطع الفخّار وبعض النّقود التي تمّ العثور عليها داخل هذا المعلم وخاصّة بطبقته السّفليّة مكّنتنا من الاستنتاج أنّه تمّ إخلاؤه والعدول عن استعماله كمعبد في نهاية القرن الخامس بعد المسيح أو بداية القرن السّادس على أكثر تقدير.

وقد عثرنا داخل إحدى قاعات الطّابق السّفلي الأوّل على بقايا معصرة زيت تمّ تركيزها خلال هذه الفترة المتأخّرة من تاريخ هذا المعلم.

## الحمّامات العموميّة

تقع هذه الحمّامات على بعد حوالي 200 متر شرقيّ معبد الكابتول وهي معلم ضخم، يبدو للمشاهد في مظهر كتل من بقايا جدران، وأسقف تساقطت على إثر الانفجارات الكبيرة التي أصابته خلال الحرب العالميّة الثانية.

إنّ عظمة المعلم وكبر مساحاته تدعونا إلى مقارنته بالحمّامات الإمبراطوريّة المتواجدة بشمال إفريقيا مثل

حمّامات أنطونيوس بقرطاج أو الحمّامات العموميّة بمدينة بلاّريجيا.

تحتوي هذه الحمّامات على طابقين : طابق أوّل علوي وهو يشمل الحمّامات ذاتها بأجزائها الباردة والسّخنة، وطابق سفلي يضمّ في جزئه الأوّل منطقة الخدمات وفي جزئه الثاني خزّانات للماء.

يقع تزويد هذه الحمّامات بالماء عن طريق قنوات تحمل المياه فوق أعمدة تمّ العثور على بقاياها مؤخرا. هذه المياه تجلب من عيون تنبع من الجبال المجاورة الموجودة بالجنوب وبغرب المدينة.

الحفريات الأخيرة مكّنت من التّعرّف على المنطقة المسخّنة وعلىالأفران الموجودة بها، وكذلك من التّعرّف على تاريخ بناء هذه الحمّامات الذي يرجع إلى بداية القرن الثاني بعد المسيح وذلك عن طريق جزء من نقيشة تمّ العثور عليها بالمنطقة الشّرقية للطّابق السّفلي للمعلم.

يحظى المعلم الآن بعمليّة ترميم وصيانة تتمثّل خاصّة في الطّابق السّفلي حيث يتمّ تدعيم أسقفه والأقواس التي تحملها.

وفي 24 ديسمبر 1992 انعقدت جلسة وزاريّة ترأسها السيد الوزير الأوّل من نتائجها اتّخاذ بعض الإجراءات للعناية بآثار أوذنة، أي إبرازها وترميمها وصيانتها وخصّصت لذلك ميزانية قدرها مائتا ألف دينار أضاف لها السيد رئيس الجمهوريّة مائة ألف دينار.

وانطلقت أشغال الحفر والتّرميم يوم 8 فيفري 1993 وهي مستمرّة إلى حدّ الآن، وقد تمّ خلالها إبراز الواجهة الشّماليّة للقصر الدّائري «Amphithéâtre » وآكتشاف جزء كبير من قاعة بها لوحة جميلة من الفسيفساء المصنوعة من قطع الرّخام الكبيرة « Opus sectile » .

وكذلك تمّ الكشف عن كلّ واجهات الكابتول وعن المنطقة المسخّنة من الحمامات الكبرى، وقد مكّنت هذه الأشغال أيضا من ترميم جزء كبير من الطّوابق السّفليّة والعلويّة للكابتول، وتدعيم جدرانه وأقواسه التي كانت مهددّة بالانهيار.

إنّ التّغييرات التي تمّت بالموقع تعتبر كبيرة جدّا ولكن العمل الّذي ينتظرنا هو أكبر وخاصّة إذا علمنا أنّه سيقع إدماج الموقع وسط منتزه أثري طبيعي تبلغ مساحته حوالي 500 هكتارا ويشتمل على العديد من المنشآت الترفيهيّة.

# «الشّاردة»
# للروائي التونسي الرّاحل محمد النّاصر بالطّيب

قراءة عبد الرحمان مجيد الربيعي

لم تسمح لي الظروف بقراءة أي عمل منشور للكاتب المرحوم محمد الناصر بالطيب الذي انتهت حياته أخيرا بحادث سير فاجع. وربما كان السبب في أن اسمه ليس بين الأسماء المتداولة التي تكتب القصة والرواية في تونس نظرا لإقامته بعيدا عن العاصمة وفي مسقط رأسه بنقردان التي كان يعمل مديرا لدار الثقافة فيها لعدة سنوات حتى إحالته على المعاش قبيل وفاته بفترة وجيزة.

والعمل الوحيد الذي قرأته له رواية (الشاردة) وهي آخر إصدار له. وقد صدرت هذا العام على نفقته الخاصة. ولم يدرج في خاتمتها أسماء الكتب التي صدرت له وهذا مأخذ يسجل على الكثير من المؤلفين لا في تونس فقط بل وفي كل البلدان العربية. إذ من الواجب على الكاتب - أي كاتب - أن يكون حريصا على هذا مفترضا أنّ قارئا جديدا قرأ عمله وتعرّف عليه للمرّة الأولى وأراد أن يتواصل مع ما كتب قبله ربما لكتابة بحث جامعي أو دراسة نقدية أو إرضاء لرغبته في المطالعة.

قرأت رواية «الشاردة» بتأنّ لأتعرّف على تجربة الكاتب وانشغالاته السردية وما هو اختلاف نصّه عن النصوص التونسيّة الأخرى التي وجدت حظها في الانتشار والقبول.



وأقول إنّ المؤلف لم يبتعد كثيرا عن بنقردان حتّى في الإهداء «إلى موطني الحبيب إلى بنقردان بشرا وشجرا وحجرا». وهو لا يتوقف عند الحاضر بل ويسترجع أحداثا مرت وفي فترة الاستعمار الفرنسي لتونس،

والتجنيد الإجباري من قبل المستعمرين لأبناء البلد لإرسالهم إلى حروب فرنسا.

يحكي لنا سيرة ثلاثة فتية قرروا الهروب من التجنيد في الجيش الفرنسي الذي فرض عليهم. ولاذوا إلى ليبيا ومكثوا هناك سنوات، أحدهم اسمه ضو الزيادي كان يحمل سؤالا حول مصير فتاة لقبوها بـ «الشاردة» وهو ما ذهب إليه عنوان الرواية. وكان قد عرف حكايتها سماعا عندما كان يبحث عن ناقته المفقودة بين مضارب العرب في الصحراء. أمّا حكايتها فتتمثل في فرارها إلى المدينة لتتزوج بالشاب الذي أحبته رافضة الزوج الميسور الذي أختاره لها والدها. يومها أحس الشاب ضو الزيادي بأن عليه ردّ الإهانة عن القبيلة التي هربت منها إحدى فتياتها.

وما دامت هذه القبيلة قد أكرمته فإنّ الواجب يدعوه أن يبحث عن (الشاردة) ليعيدها إلى أهلها، ولكنّه بدلا من العثور عليها عثر على ناقته. ونجد أنّ المؤلف يستعمل في كلّ التسميات لغة الصحراء وكلّما أحس أنّها أصبحت عصيّة على القارئ يضع هوامش تاريخية للمفردات.

فالناقة المفقودة هي (بكرة) هذا اسم الناقة في عمر معين، أمّا أوصافها فهي (حجلاء، وعليها سمة أولاد عون) وأولاد عون اسم قبيلة الفتى.

أمّا القبيلة التي فرت منها الشاردة فهي (قبيلة نجّاع). والمؤلف حريص على الحكاية فهي عماد روايته هذه.

لم يكن الفتى ضوّ الزيادي وقتها إلا فارسا بارعا في امتطاء جواده الأصيل ومعه بندقيته التي اصطاد بها أرنبا حمله معه.

ويستطرد في وصف الحياة في البادية كما يثبت مقاطع طويلة من قصائد شعبية ويورد في الهامش أسماء شعرائها الحقيقيين، وكأنّني بالمؤلف بأنّه كان حريصا أن يثبت هذه النصوص البليغة في روايته حتّى وإن بدت كثيرة لقارئها ومن هنا حرصه على وضع شروح لها مع ذكر أسماء شعرائها. ولا ندري إن كانت هذه الأشعار مدوّنة أم أنّها متناقلة من ذاكرة بعض الذين يحفظونها والمؤلف أحدهم؟

ونرى هنا أن أهمية هذا النص الروائي من احتفائه بالمكان الصحراوي في منطقة بنقردان وما جاورها وصولا إلى المدن الليبية القريبة، ويبلغ هذا الإحتفاء مداه الجميل في الشعر والعادات وطرق العيش واللباس والمعاناة. وكلّ ما حفل به قاموس الصحراء التي لم تبق في عزلتها بل إنّها وصلت إلى المدينة لا التونسية فقط بل والأوروبية أيضا من خلال هجرات الأبناء بحثا عن فرص للعمل والتعليم.

وإذا كانت الشاردة قد بقيت سؤالا للفتى ضو الزيادي فإنّه سرعان ما عثر على جوابه عندما التقى بالشاردة وجها لوجه بعد سنوات طويلة في قطار متجه إلى قابس من العاصمة، وكانت عجوزا رفقة حفيدتها.

هنا ستبدو الأحداث مركبة غير مقنعة في هذه الصدفة التي جعلت ضو الزيادي يلتقي بالشاردة في القطار ثم لتروي حكايتها وما آل إليه مصير زوجها.

وهنا أيضا ضعف البنية السرديّة حيث اعتمد المؤلف على كثير من المصادفات والمفاجآت التي لا تأتي من داخل الحدث بل من خارجه.

ونعلم أن الفتى الذي اختارته الشاردة زوجا (اسمه الطاهر) وهربت معه إلى المدينة قد وصله نداء فلسطين فلبّاه مع مجموعة من أصدقائه، وهناك استشهد ودفن (في مكان ما من الحدود السورية)، ولم تبق للشاردة إلا أحزانها عليه وسلواها بولدها عبد الدايم وإبنتها فاطمة.

أمّا الفصل الأخير من الرواية فهو تحت عنوان (النكسة) والمقصود هنا نكسة 5 جوان 1967 وللتوثيق يضع المؤلف مقطعا من خطاب الرئيس بورقيبة وقتذاك الذي وجهه من الإذاعة الوطنية والذي ورد فيه: (نحن مع أشقائنا العرب في كفاحهم ضدّ إسرائيل التي تمثل الإستعمار لكن تونس مسؤولة عن أمن الأجانب

فلا ينبغي أن يمسوا بسوء لأن في ذلك مسا بهيبة دولتنا).

كان الفتى عبد الدايم (وهو اسم جدّه الذي اختاره الجدّ بنفسه له) ابن الشهيد الطاهر زوج (الشاردة) طالبا في الحقوق وقتها، ويتّقد حماسا مع رفاقه ولكن النكسة أحبطتهم.

وهنا يأتي حديث عن اليهود التونسيين وكيف كان عبد الدايم يفرّق بينهم وبين يهود اسرائيل باعتبار اليهود التونسيين أبناء تونس وتألم لحرق استوديو التصوير لمعرابي اليهودي.

ويدور بينه وبين أمه الشاردة حديث حول هذا الموضوع أحست بعده أنّ ولدها سيسلك طريق أبيه عندما قال: (أنا أقدّر الذين يتطوعون للدفاع عن شرف الأمّة ويلتحقون باخوانهم في ساحة الحرب وأكبر فيهم روح التضحية والفداء).

ثم أوضح أكثر بقوله: (الحقيقة يا أمّي أنني عازم مع بعض رفاقي على التطوع وهم جميعا يشيدون بما قام به المرحوم أبي، وأنني أرى أن حقه عليّ أن أواصل دربه حتّى أكون جديرا بحمل إسمه). ولكنها استطاعت أن تقنعه على البقاء عندما ذكرت له : (أن الجهاد الحقيقي يا ولدي أن تجاهد نفسك وأن توطنها على العمل المفيد للبلاد والعباد وأن تخلص في عملك وتتقنه وأن تكون أمينا وعادلا أينما كنت مسؤولا في هذا الوطن).

وأخذ برأيها وتخرّج من الحقوق وصار قاضيا وأقام في العاصمة. وانتقلت أمّه (الشاردة) إليها لتقيم معه أيضا بعد أن تزوّج وأنجب.

وكما رأينا فإنّ هذه الرواية اعتمدت على مجموعة حكايات متداخلة محورها ضوّ الزيادي وما جرى له، وتقابله حكاية الشاردة لتكون الخاتمة في لقاء الصدفة بالقطار.

ربمّا أراد المؤلف أن يوثق لفترة معينة عاشها وربّما عرف أبطالها الرئيسيين، فكلّهم من الجهة التي يقيم فيها (بنقردان) وقد انفرشت الأحداث على مساحة زمنية عريضة منذ نضالات الشعب التونسي لطرد الاحتلال وحتّى قيام اسرائيل ببناء جدار الفصل العنصري.

وربّما كانت أهميتها من موضوعها لا من تقنيتها الحكائية البسيطة. موضوعها الذي أثراه المؤلف بتراث المنطقة وعاداتها وتقاليدها. ولعل هذه كانت غايته الأولى من وراء تدوين هذه الأحداث وفق إمكاناته الكتابية المحافظة.



1) جاءت الرواية في 142 صفحة من القطع المتوسطة - نشر على الحساب الخاص - طبعت في مطبعة تونس قرطاج - الشرقية 2007

# «سبع صبايا» فيها «واو» لصلاح الدّين بوجاه

قراءة عبد الله البهلول

**يُمضي الساعات الطويلة جالسا أمام الكتب الموصدة، عسى أن يفكّ رموزها، فلا يكون له شيء منها. يرجو أن تتفتح إزاءه**

سبع صبايا ص 51

«للواو» في الدرس اللغوي والبلاغي من المعاني ما يعسر حصرها، ومن الوظائف ما يعزّ رصده. فقد تحدّث صاحب اللسان عن أنواع عديدة من «الواو» ذكر ابن منظور واو الجمع، واو العطف، واو القسم، واو الصلة في القوافي، واو الإشباع، الواو المحمولة، واو الجزم المرسل، واو النداء، واو الندبة، واو الحال، الواو التي تدخل في الأجوبة فتكون جوابا مع الجواب ولو حذفت كان الجواب مكتفيا بنفسه، الواو الدائمة وهي واو تلابس الجزاء وذلك مثل: زُرْني وأزورَك [أو أزورُك] بالنّصب والرّفع، فالنصب على المجازاة، ومن رفع فمعناه زيارتك عليّ واجبة،(1)...

ولأهميّة المبحث وصلته بالبلاغة ذكرها ابن الأثير في فصل عنوانه «في الحروف العاطفة والجارّة» (2). وتطرّق الجرجاني إلى مسألة العطف مبرزا ما يعرض للباحث من إشكال في دراسة الواو مؤكّدا أهمّية هذا المبحث وصلته بظاهرة الفصل والوصل جاعلا إياها حدّا للبلاغة (3).

ومن الشروط التي أشار إليها الجرجاني شرط المناسبة، إذ لا يتصوّر - في نظره - إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الاشتراك فيه (...) وإذا عطفت على الأوّل شيئا ليس منه بسبب ولا هو مما يذكر بذكره، ويتصل حديثه بحديثه لم يستقم. ويضرب لذلك أمثلة: «فلو قلت: خرجت اليوم من داري. ثمّ قلت: وأحسن الذي يقول بيت كذا. قلت ما يضحكك منه» (+). لذلك نجده يضع جملة من الشروط الواجب توفّرها في المركب العطفي منها:

- أن يكون المحدّث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى.

- أن يكون الخبر عن الثاني ممّا يجري مجرى **الشبه والنظير أو النقيض** للخبر عن الأول. مثال: لا توجد مشاكلة بين:

ج 1 - زيد طويل القامة

وج 2 - عمرو شاعر

بينما توجد مشاكلة بين قولنا:

ج 3 ـ العلم حسن

ج 4 ـ الجهل قبيح

ـ قد يكون المخبر عنه في الجملتين واحدا، كقولنا: هو يقول ويفعل، ويضرّ وينفع، فالواو في هذا المثال للجمع والاشتباك والاقتران(5).

وإذا كان مبحث الجرجاني قد انعقد أساسا على دراسة الظاهرة في إطار العلاقة بين الجمل واستقراء الحالات التي توجب استعمال الواو أو الفاء أو ثمّ أو غيرها من أدوات الربط والعطف، فإنّ البحث في الظاهرة منزّلة في إطار الجملة من شأنها أن يثير مسائل أخرى موصولة بالعلاقات المنطقيّة بين المعطوف عليه والمعطوفات، ووجه الجمع بينها في المركّب الواحد. وقد تحتدّ الظاهرة أكثر وتتعقّد إذا ما تنولت في نصّ روائيّ يميل إلى التميّز من حيث اللغة التي يتوسّلها ومن حيث الجنس الأدبيّ الذي ينتمي إليه كما هو الشأن لرواية «سبع صبايا» لصلاح الدين بوجاه(6).

## «فيها واو»؟ :

قد يتعقّد أمر «الواو» أكثر إذا ما استحضرنا ما يحفّ بعبارة «فيها واو» من المعاني العرقيّة، فمن شأن هذه العبارة أن تستدعي إلى الذهن جملة من المدلولات، وتصرف الفكر إلى مفاهيم لم تكن من مقاصدنا في هذا العمل. لذلك يبدو تدقيق المفهوم أمرا ضروريّا قبل مباشرة التحليل.

لعبارة «فيها واو» جملة من المعاني العرفيّة، لعلّ أقربها إلى الذهن وأكثرها تواترا في الاستعمال، معنى الشكّ في ما نتقبّله من أقوال، ومعنى التّحفّظ ممّا يقال، وتجاوز ظاهر القول إلى دراسة ما ينطوي عليه من أساليب المغالطة والخداع. وفي التلفّظ بهذه العبارة ما يؤكّد انتباه المتقبّل إلى موضوع الحديث، واهتمامه بالتفاصيل والجزئيات، واستكشافه المسكوت عنه في ثنايا المصرّح به. وفي أحيان كثيرة يتحوّل استعمال هذه العبارة إلى سلوك مرضيّ قد لا يكون له ما يبرّره. فإذا بالعلاقة بين المتخاطبين قائمة على التّوجسّ والحيطة والحذر، فإذ يجدّ الأول في إبراز «حسن نيتة» يجهد الآخر في تقصّي القول وتأويله موقنا أنّ الحقيقة هي غير ما تقبّل.

وما قصدنا بعبارة «فيها واو» هذه المدلولات، وإنّما نستعمل العبارة في مدلولها البلاغي ،نبحث، في الرواية، عن توظيفها الأسلوبيّ.

ولعلّ الذي دفعنا إلى اقتحام عالم الرواية من هذا الباب أمران:

ـ أوّلهما هو أنّ الظاهرة اللغوية متى تواترت في النصّ الأدبي تواترا يفوق معدّل شيوعها في الخطاب عامّة ووقع توظيفها بطرق جديدة تخالف مألوف استعمالها تحوّلت إلى ظاهرة أسلوبيّة جديرة بالدرس، ومثّلت مفتاحا من مفاتيح ذلك الأثر. وهذا الشيوع اللافت للنظر يشرّع البحث في الظاهرة المفردة وربطها بسائر المكوّنات والعناصر اللغوية والفنيّة لاستجلاء مظاهر من جماليّة النسيج الروائي والبحث في أبعادها الدلالية بدلا من الانطلاق من ظواهر شتّى. وقد لاحظنا في رواية «سبع صبايا» حضورا مكثّفا لحرف «الواو» في مواضع عديدة من فصول الرواية. وبالرغم من أنّ هذا الحرف من واصلات الكلام يتواتر بكثرة دون أن ينشئ بتواتره فروقا كميّة فإنّ قارئ الرواية يتأكّد من أنّ حرف «الواو» قد تواتر فيها تواترا لافتا للنّظر، يفوق كثيرا معدّل عودته في الكلام، فكشف بذلك عن سعي الكاتب الروائي إلى توظيفه توظيفا فنيّا مخصوصا معربا عن خياراته الفنيّة الجماليّة وعن أبعاد فكريّة سيكشف عنها البحث لاحقا.

ـ أمّا الأمر الثاني الذي أغرانا بالتّركيز على ظاهرة الرّبط في الرّواية فامتداد للأمر الأوّل موصول بجماليّة الأثر الأدبي، ولها مصدران تُستمدّ منهما:

جماليّة اللغة أصواتا وتراكيب ومعاجم وصورا، ذلك أنّ الخطاب الأدبي ـ أيّا كان الجنس الذي ينتمي إليه ويتنزل فيه ـ وهو توظيف مخصوص للغة

يكشف عن قدرة الكاتب الإبداعيّة، والأدباء - في هذا المستوى - يتفاضلون ويتفاوتون حظّا من جمال الصّياغة وبراعة التّعبير.

جماليّة الجنس الأدبي الذي تنتمي إليه أو تنقلب عليه، تخضع له أو تتحرّر من إكراهاته. وقد نضيف إلى هذين الأمرين أمرا ثالثا يبرّر اختيار المبحث، وهو مرتبط بشخصيّة منشئ الأثر، فنحن إزاء روائيّ ناقد في الآن نفسه، يقرأ الأدب ويكتبه، وله بعالم الرواية وشائج شتّى تنظيرا وتطبيقا، نقدا وإبداعا. وهو ما يقوّي فكرة التوظيف ويلمع إلى الأبعاد الجماليّة والفكريّة للظاهرة المدروسة.

من هذا المنفذ نعبر إلى الرواية، ونحن على وعي بما يثيره بحث دقيق في حرف من حروف الرّواية من إشكاليّات منهجيّة ومعرفيّة.

ونشير، منذ البدء، إلى أنّنا لسنا نروم - بهذا العمل - أكثر من تلمّس المداخل المناسبة إلى رواية مثيرة مغرية، إن من حيث اللغة والتراكيب التي قدّمت منها، وإن من حيث الجنس الأدبيّ الذي تنتمي إليه.

## 1 - في الحضور المكثّف للظاهرة:

لا يخلوا فصل من فصول الرواية - بل لا يخلو مقطع من مقاطع فصولها - من عودة حرف الواو في تراكيب مخصوصة متنوعة، وفي مواضع مهمّة من الأثر. فقد شاعت الظاهرة في مستهلّ الفصول وفي ثناياها وفي خواتمها، وقد انتهينا - استنادا إلى دراسة موضعيّة للظاهرة - إلى أنّ أغلب ورودها كان في الفواتح والخواتم.

ولعل تصدرها الكلام الروائي ممّا يزيد من أهمّيتها ويؤكّد الحاجة إلى دراستها. وقد أثارنا الوقوف على الفصل الأول من الرواية لتدقيق النظر في الظاهرة ولكون المقام لا يسمح باستقصائها والإتيان عليها.

**أكثر ورود المركب العطفي كان مبتدأ لخبر محذوف:**

«مرايا وصناديق وحلي **وعلب لادن** وصمغ وبخور وحرير وكتب وخشب وتمائم ونحاس وحديد وأحلام ورصاص **وجلد مدبوغ** وكوابيس ووهم وفول وعدس وحنطة وملح وزيت وورق وكتان **وسجّاد فاخر وتبرج إناث ومفاتيح غرف أخرى**» (7). النهر ورياح السموم وثمار التوت الجافة، وشذى الهضاب الأخرى... وجبل قريب بعيد يملأ النفس سكينة واطمئنانا (8).

**وقد يرد المركّب العطفي بدلا لمبدل منه:**

«كانت مريومة مثل السنبلة طويلة رائقة، تقرأ الحكايات القديمة وترويها، وتدير رؤوس الرجال (...) كانت مثل سنبلة، تحسن جمع شتات من القصص لا بداية لها ولا نهاية... تجعلها حزمة توزعها على الصبايا في أيام المطر التي تملأ الريف بطميها الغامض: خشب وأغصان زيتون، وطين وحصى وحديد وبراغي ولوالب غريبة: بولونات، وروسّورات، ومفاتيح سيارات قديمة... زيت أسود ثقيل، وحبال مشيمة وأشلاء مثقلة بدم السلالة الضائعة. مشرحة هذه أم ضيعة خلف النهر (9)؟

وقد يرد المركّب **العطفي تمييزا لمميّز:**

يتهادى الصوت فيمرّ بالمستودع الكبير المنفتح على الخلاء وبغربيّ الدار، والمستودع الصغير المقفل على **ما** تركته الحماية الفرنسية **من قصاصات، وحديد ومناشير** وبراغي ومسامير وجفاف **أصفر مطبوعة فوق عناوين** المانوفكتوريا... وليدة تغنّي، فينتشر اللحن فوق الضيعة بكاملها رداء صامتا جميلا رقراقا كالهدوء يكون».

ولهذا المركب وظائف أخرى في فصول الرواية.

ويظل الإلمام بمختلف وظائف تراكيب العطف في الرواية مشروع بحث يستوجب من الزمن ما يتجاوز هذه المناسبة، ومن التحليل ما لا يتّسع لهما هذا المقال الذي أردناه مدخلا إشكاليا للرواية وتساؤلا عن ظاهرة أسلوبية لافتة للنظر كميّا وكيفيّا.

لهذه الاعتبارات رأينا أن نحصر مجال البحث في موضع أو بعض المواضع من فصول الرواية، لرصد الظاهرة وتدقيق النتائج. وقد استقر الرأي على قراءة الفاتحة الروائية لأهميتها من الرواية موضعا وتركيبا ودلالة، وذلك بالبحث في الخصائص اللغوية والأسلوبية لتراكيب العطف في ذاتها، ثم منزلة في الرواية بماهي تعبير جماليّ عن اقتناعات فكرية، ورؤية للعالم تجليها أساليب الأداء.

## 2 ـ تحليل المقطع الروائي الاستهلالي:

تستهلّ الرواية بالمقطع التالي:

«مرايا وصناديق وحلي **وعلب لادن** وصمغ وبخور وحرير وكتب وخشب وتمائم ونحاس وحديد وأحلام ورصاص **وجلد مدبوغ** وكوابيس ووهم وفول وعدس وحنطة وملح وزيت وورق وكتّان **وسجّاد فاخر وتبروج إناث ومفاتيح غرف أخرى**» (10).

ونجد في الفصل نفسه:

«. . . مواسم الهجرة نحو الشمال التونسي بقمحها وشعيرها وروث أحمرتها وهسهسة حليها وغدر نسائها ولذة الوقوع أسراب صاخبة وقطعان، ثغاء كلها وغناء وأشتات عشق ضائع وخوف وحزن. فجراره قد كانت ملأى وذهنه غزير. زهر وتوت وزيتون وغلال مما تؤتي الأرض، وفتوّة قلب تمرّس بالأيام وتوق إلى ما لا يكون» (11).

يقف الدارس لظاهرة العطف في هذا المقطع الروائي على جملة من الملاحظات من أهمّها:

• ورود المركب العطفي مبتدأ لخبر محذوف. وهذا البناء يكسب الفاتحة أهميّة تركيبيّة ودلاليّة إذ يجعل الرواية بأكملها إخبارا عن قصّة هذه الكائنات والأشياء التي لا تكتسب معانيها وقيمتها من اللغة والاستعمال، وإنّما من أهميّتها في الرواية ومختلف الفصول والفقرات التي عادت فيها، والعلاقات التي نشأت بعودتها.

• تكوّن النص الاستهلالي من معطوف عليه (مرايا) و26 معطوفا ورد 21 منها لفظا مفردا نكرة، واثنان منها في تركيب إضافيّ (علب لادن + تبرّج إناث)واثنان في تركيب نعتي (جلد مدبوغ + سجّاد فاخر) ومركب إضافي اشتمل على مركب نعتي (مفاتيح غرف أخرى).

تبدو هذه الأشياء نكرة، منفصلة عن ذات الرواي، غريبة وغامضة، ولم تزدها الإضافة تعريفا ولا زادها النعت تدقيقا، بل إن هذه الأشياء لا تجتمع إلا في لوحة سريالية أو في نصّ روائي. وهو ما يؤكد النزعة إلى الإغماض والتنكير ويكشف عن استراتيجية روائية قوامها الغموض والالتباس.

توزّعت هذه المعطوفات في ترتيب مخصوص يجمع بين ألفاظ مفردة وبين مركبات نعتيّة وإضافية: (نستعمل الخطّ المكثف للمعطوفات عليها التي لم ترد لفظا مفردا بل جاءت في تركيب نعتي أو إضافيّ).

• 1 ـــ 2 ـــ 3 ـــ 4 ـــ 5 (3 = مركب إضافي)

• 1 ـــ 2 ـــ 3 ـــ 4 ـــ 5

• 1 ـــ 2 ـــ 3 ـــ 4 ـــ 5 (3 = مركب نعتي)

• 1 ـــ 2 ـــ 3 ـــ 4 ـــ 5

• 1 ـــ 2 ـــ 3 ـــ 4 ـــ 5 (3 = مركب نعتي)

(4 = مركب إضافي)

(5 = مركب إضافي + مركب نعتي)

وقد يوضح الشكل التالي مبلغ مافي هذا المقطع من تدبير:

أ (خمسة أسماء أوسطها مركب)

ب (خمسة أسماء مفردة)

أ (خمسة أسماء أوسطها مركب)

ب (خمسة أسماء مفردة)

أ+ ب (خمسة أسماء = 2 لفظ مفرد

= 2 مركب

= 1 تضعيف التركيب

من شأن هذا الشكل الذي انتظم فيه تركيب العطف أن يكون العبور بين قابلين من التعبير ويصل النثر بالشعر بما هو عود على بدء، ويخفي نظاما صوتيّا خضعت له المركبات اللغوية التي انتظمت أزواجا انتظمت أزواجا متناوبة تناوب الليل والنهار يدفعان الإنسان إلى جمع أدوات السفر استعدادا للرّحيل.

فظاهر مافي النص من فوضى لا ينفي حقيقة ماهو عليه من النّظام والاتساق.

**من حيث المعجم:**

متح الكتاب الروائي في هذه الرواية من منابع متنوعة، فاتسمت لغته بسمتين:

ـ سمة العراقة، يجليها معجم عريق موغل في لغة العرب، برز في المقطع الاستهلالي، وعزّز توجها لتأصيل الرواية في الحضارة العربية.

ـ سمة الانفتاح على العصر، وهي سمة يجليها معجم «مشوّش» منه ماهو عامّي شائع ومنه ماهو دخيل، وقد انتشر هذا المعجم في مختلف فصول الرواية.

## العلاقة بين مكونات المركب العطفي :

جمع المركب العطفي بين ثنايا ضديّة مختلفة:

- السائل ≠ الجامد
- الطبيعي ≠ الصناعي
- المجرد ≠ المحسوس
- الواقعي ≠ الغيبي
- الحاضر ≠ الآتي أو المنقضي
- الأنا ≠ الآخر
- البارز للعيان ≠ المختفي في المكان
- الوعي ≠ اللاوعي
- اليقضة ≠ الحلم
- الوجه ≠ القناع
- الحقيقة ≠ الوهم

إن الطريقة التي رتّب بها الكاتب الروائي أشياء الرواية تندرج ـ في رأينا ـ ضمن اختيارات فكرية وجمالية باللغة الدلالية. فللجمع بين الأشياء وظائف عديدة أهمّها:

ـ **وظيفة التمثيل**: ذلك أن هذه العناصر جميعها من لبنات العالم الروائي، هي الأشياء التي تؤثثه وتوهم قارئها بواقعية الرواية.

ـ **وظيفة الإحياء**: تتحول هذه الأشياء إلى رموز مثقلة بالدلالة، تدعو القارئ إلى استدعاء قصّتها ورصد مختلف مدلولاتها.

ـ **وظيفة التشويق**: تفتح أفق انتظار لدى القارئ لرصد عودتها في صفحة من صفحات الرواية والبحث في مختلف علاقاتها بسائر مكونات هذا العالم من أحداث وشخصيات وأمكنة... هي كالعلاقات المفرغة من الدلالة تنتظر قارئا يملؤها. وهذا المقطع موصول بكامل فصول الرواية، من ذلك مثلا ظهور الأطياف في الفصل التاسع امتدادا لذكر الأحلام والكوابيس والتمائم في الفاتحة، وتبادل النساء المرايا خفيّة في الفصل الخامس...

ـ **وظيفة التعبير**، عن مذهب في الكتابة الروائية من مقوماته «شعرية الأشياء» و«جمالية الفوضى» واتحاد الانسان بالطبيعة والأشياء. ويتجلى ذلك في نزعة الكاتب الروائي إلى محو الحدود بين الأشياء والكائنات وإعادة تشكيل العالم تشكيلا مشوشا مقصودا صادرا عن رؤية جمالية مخصوصة واقتناعات فكرية محددة. (...)

إن قارئ رواية سبع صبايا لصلاح الدين بوجاه «يمضي الساعات الطويلة جالسا أمام الكتب (الفصول) الموصدة، عسى أن يفكّ رموزها.... يرجو أن تنفتح إزاءه» ولعلّ أكثر ما يخشاه أي باحث هو أن «لا يكون له شيء منها».



فهل في حديث الرواية عن ذاتها ما يشي بموقف الروائي من النقاد ـ أحبّاء بروكست ـ الذين يبترون النصوص الابداعية ويمطّطونها حتى تكون على قدر المنهج؟ أوَلا تكون الرواية ـ بالصورة التي وردت عليها ـ استفزازا لمناهج النقد الحديثة وتشكيكا في قدرتها على النفاذ إلى أعماق الابداع إن هي ضامت النص لئلا تبخس المنهج قَدْرَهُ؟

«سبع صبايا» رواية مثيرة غامضة، تسائل المناهج النقدية المعاصرة وتستفزّها ساخرة منها، وقد يكون البحث في جماليّة الجنس أعسر منالا من البحث في جمالية الجنس أعسر منالا من البحث في جمالية اللغة وتوظيفها الإبداعي.

## المراجع والمصادر

1) ابن منظور، لسان العرب دار صادر، م15 ط1، س 2000
2) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1990 ج2 ص46 وما بعدها
3) الجرجاني (عبد القاهر) دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار المعرفة بيروت لبنان ط 1 س1994 ص152 «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ومما لا تأتي الصواب فيه إلا الأعراب الخلص والأقوام طبعوا على البلاغة وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنّهم جعلوه حدّا للبلاغة [معرفة الفصل من الوصل] وذلك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل سائر معاني البلاغة».
4) الجرجاني م ن ص 153/ 154
5)الجرجاني، م ن ص 154
6) صدرت الرواية في سلسلة عيون المعاصرة، عن دار الجنوب للنشر، الطبعة الأولى 2005 .
7) سبع صبايا ص19
8) سبع صبايا ص23
9) سبع صبايا ص22
10) سبع صبايا ص19
11) سبع صبايا ص20



# عالــــم الثقافــــــات

حسونة المصباحي

## الموسيقار العبقري ...وأختاه

كان يهودي مانوهين في السابعة من عمره لّما عزف «السمفونية الاسبانية». في ذلك الوقت كان يعيش في باريس بصحبة عائلته. وعند بلوغه سن المراهقة أصبح من أمهر وأشهر العازفين على الكمنجة في أروبا العجوز. وقد ساعده معلمه الروماني جورج يونسكو على اكتساب مهارة موسيقية عالية خولت له أن يعزف في سن مبكرة «الكونسارتو الثالث» لموتزارت بطريقة «تبكي الحجر» بحسب أحد النقاد الموسيقيين. وقد تحدث مانوهين عن ذلك قائلا: «كانت لي مع موتزارت علاقة الطفل بالطفل والبراءة بالبراءة. كنت أعرفه محافظا على شخصيتي ودون أن أشعر أنه يتحتم علي أن أكون أكثر قوة، وأكثر عظمة. وكانت باريس في ذلك الوقت المكان المفضل لعزف موتزارت. فالأسلوب، وحضور الماضي على مستوى المعمار واللغة وكل هذا جعل من موتزارت الموسيقار الذي ينتمي بشكل واضح إلى فرنسا، خارج النمسا بلده الأصلي. وكنت أغادر بيتنا في «فيل دافري» بصحبة والدي. وكان بيتا مغطى بالوستاريات بحديقة فيها منحدر ينفتح على حديقة «سان كلو» التي كنت أقوم فيها بجولات بالدراجة برفقة أختيّ».

وبمساعدة معلمه الثاني أدولف بوش، صاحب الموهبة الكبيرة، اطّلع مانوهين على أسرار الموسيقى الألمانية الكلاسيكية. وابتداء من مطلع الثلاثينات، شرع يقدم حفلات موسيقية في جميع أنحاء العالم.

وكانت لمانوهين أختان تمتلكان موهبة موسيقية عالية. الأولى تدعى يالطة والثانية هيبهزيباه. وكانت يالطة عازفة جيدة على البيانو. وكانت في السابعة عشر من عمرها عندما تزوجت محاميا لم تكن تعرفه جيّدا. وبعد مرور نصف عام على زواجها منه، تركته وفرت إلى نيويورك ولم تعد إلى أحضان العائلة إلى عام 1940. وفي هذه المرة تزوجت عسكريا ومعه راحت تتنقل من ثكنة إلى أخرى. وبعد أن أنجبت منه طفلين، أصبح غيورا وباتت حياتها جحيما بسبب ذلك. وذات يوم تركت البيت، وفرت إلى لندن بصحبة طفليها للتزوج من عازف على البيانو مثلها يدعى جوال رايس. وقد تحدث عنها أحد أصدقائها في مذكراتها قائلا: «كانت يالطة ملاكا يرى الخير في كل مكان ولدى الجميع. وكانت شاعرة جيدة وتتكلم لغات عدة. كما أنها كانت رسامة وطباخة ماهرة ومحبة للناس، وسخية بمالها ووقتها، ودائما تضع الآخرين في المنزلة الأولى قبلها!».

وكانت الأخت الثانية لمانوهين هيبهزيباه موهوبة موسيقيا هي أيضا. وكانت تتكلم لغات عديدة تماما مثل أختها يالطة. وقد تزوجت فلاحا أستراليا غنيا، وأصبحت مدافعة عن حقوق الإنسان، وعن حقوق المرأة بالخصوص. كما أنها أنشأت مكتبات متنقلة لتعليم

الأطفال الفقراء. وبعد الحرب العالمية الثانية عادت إلى أوروبا لتستقر في بريطانيا حيث أسست جمعية للدفاع عن حقوق الإنسان. ومع زوجها الثاني، النمساوي ريتشارد هاوزار فتحت بيتا للذين بلا مأوى، وللنساء اللاتي تعانين من قسوة الأزواج. وقد تحدث عنها مانوهين قائلا: «بعد زواجها الأول من الفلاح الأسترالي، التقت أختي هيبهزيباه يهوديا نمساويا كان قد تعذب طويلا في المعسكرات النازية وكان يريد أن ينقذ العالم. ولم يعد البيانو الذي كانت تعزفه جيّدا يحتل مكانة بارزة في حياتها كما كان شأنها قبل ذلك. كانت تريد أن تعتني بالبؤساء والمعوزين. قبل ذلك كانت جميلة ثم لم تعد تهتم لا بثيابها ولا بمظهرها وأصبحت تعيش حياة شبه زاهدة».

## صوت الحركيين الجزائريين

ولدت دليلة كركوش التي تنتمي إلى عائلة جزائرية من الحركيين الذين كانوا يتعاملون مع قوات الاحتلال الفرنسي عام 1973. وبعد أن أنهت دراستها في الفلسفة، أصبحت تعمل في مجلة «الاكسبريس» الفرنسية الأسبوعية الواسعة الانتشار. وهي تقول: «بعد استقلال الجزائر، قدمت عائلتي إلى فرنسا واستقرت في «سانت إيتيان دي فوجار». وحتى هذه الساعة لا يزال والداي يرتعبان عندما يريان رجال الشرطة وهما لا يتكلمان إلا الدارجة الجزائرية.

وفي عام 1996، انتحر أخي محمد في حديقة البيت بعد أن قال لي: «انظري إلى ما فعلوه بنا!». وأظن أن أخي الذي كان يبلغ آنذاك من العمر 35 عاما فعل ذلك لأنه مثل كل الشبان الذين ينتمون إلى العائلات الجزائرية التي تنتمي إلى الحركيين لا يحسّ أنّه جزائري، ولا يحسّ أنه فرنسي. ومثل هذا الوضع مقلق للغاية. وعندما لم يعد أخي يتحمل ذلك وضع الحبل حول رقبته وقتل نفسه».

ومعلوم أن الكثير من الحركيين الجزائريين أعدموا ومثّل بهم عقب خروج فرنسا من الجزائر. ومن تبقّى منهم فرّوا إلى فرنسا ليعيش على هامش المجتمع في معسكرات تحيط بها الأسلاك الشائكة. ومنذ الستينات وحتى هذه الساعة هم يعيشون معاناة شبه يومية تقريبا. وتقول دليلة كركوش: «أنا لم أعش في تلك المعسكرات الرهيبة التي كان يعيش فيها الحركيون عند قدومهم إلى فرنسا. وكان لي الحظ أن دخلت المدرسة وتعلمت. وشيئا فشيئا بدأت أكتشف الجرح القديم من خلال حكايات والدي وأمي. وفي عام 2002، قررت أن أكتب تاريخ الحركيين من خلالهما وعرفت أن أمي وصلت إلى ميناء مرسيليا عام 1962. وكان عمرها آنذاك 29 عاما. وخلال مجيئي اكتشفت أن امرأة تدعى جولييت تبلغ الآن من العمر 80 عاما، اعتنت بأمي وبالعديد من الحركيين في البداية، واهتمت بهم على جميع المستويات. كما أن مجيئي هذا سمح لي بالذهاب إلى الجزائر لمعرفة جذوري الأصلية. وفي النهاية، كانت النتيجة كتاب حمل عنوان: «والدي، هذا الحركي» وصدر حديثا عن دار «السوي الباريسية».

## عشيقة برشت

خلال صيف 2003، أصدر الكاتب الفرنسي جاك بيارامات رواية حملت عنوان: «عشيقة برشت» ومن خلالها، هو يحاول أن يكشف لنا جوانب لا تزال مخفية من حياة صاحب: «دائرة الطباشير القوقازية». وهو يقول: «إن برشت شخصية روائية مدهشة. بسبب التناقضات التي تملأ حياته العاطفية والفكرية. فهو في الآن نفسه شاعر مجيد خصوصا في «مراثي بيكوف» وفي «بعل»، ومنظر سيئ وبدائي خصوصا في البعض من مسرحياته الدعائية التي تذكر برواية «الأم» لمكسيم غوركي التي أمقتها مقتا شديدا. لكنه في يومياته التي كتبها بين عام 1938 وعام 1955 هو نموذج للحداثة والسخرية ذات المستوى العالي وللحيلة التي تدل على ذكاء متوقد. أما رسائله فتحتوي على كنز ثمين. وقد اهتممت شخصيا بعلاقته العاطفية مع نساء كنّ يحيين

جولة عندما كان في برلين بين عام 1949 و 1951. وقد اخترت من بينهن ريجين لوتز وهي ممثلة لها وجه جميل رأيتها في صورة نشرت في أحد الألبومات المخصصة لبرشت. وأنا أتصور أن هذه الممثلة عاشت قصة حب عاصفة معه».

## كارلوس فيونتاس وشموس المكسيك الخمس

في نصّ بديع حمل عنوان... «شموس المكسيك الخمس»، يحاول الروائي المكسيكي الكبير كارلوس فيونتاس المولود عام 1928 أن يرسم صورة لتاريخ بلاده، ولثقافتها، وللتأثيرات التي فعلت فيها على مدى العصور. وهو يقول أن المكسيكيين القدماء يسجّلون زمن الإنسان وكلمته في تتابع خمس شموس. الأولى كانت شمس الماء التي فنت غارقة، والثانية اسمها شمس النصر، وقد التهمها ليل طويل، حالك السواد، والثالثة هي شمس النار التي حطّمها مطر من اللهب، والرابعة، شمس الريح التي حملتها العاصفة لتطرح بها بعيدا. والخامسة هي تلك التي يعيش تحتها المكسيكيون راهنا، وهي أيضا سوف تختفي ذات يوم مثل الشموس الأخرى، والحركة هي التي سوف تقضي عليها. ويعلق كارلوس فيونتاس على ذلك قائلا: «الشمس الخامسة، التي هي الأخيرة، تحمل معها هذا التحذير المرعب: الحركة سوف تقتلنا!».

ثمّ يضيف قائلا: «كيف يمكن ألاّ نرى في مثل هذه التنبؤات المرتبطة بأسطورة الخلق مرآة لعصرنا الراهن؟ مرآة ينعكس فيها التّنافر الثابت والدائم بين وعود الحياة ويقينية الموت، بين الوعي المستنير، الإنساني، العلمي، الأخلاقي ولاّوعي أنظمة الحكم العمياء التي تؤدي بنا إلى التخريب والموت والصمت».

وكان الإله الأكثر شهرة عند المكسيكيين القدماء يُدعى «كيتزالكوتال» أو هو الذي خلق الزراعة والتربية، والشعر، والفنون، والمهن. ولأنّها كانت تغار منه، فإنّ الشياطين الصغيرة، التي يقودها إله الليل المدعو «تازكاتليبوكا» والذي يعني اسمه: «مرآة الدخان» ذهبت ذات يوم إلى قصر «كيتزالكوتال» لتقدم له هدية كانت ملفوفة في القطن. ولم تكن تلك الهديّة غير مرآة. وعندما نظر فيها «كيتزالكوتال» رأى فيها وجهه لأول مرة، ولأنّه كان يعتقد أنّه بلا وجه ذلك أنّه إله، وبالتالي أبديّ، وحيّ لا يموت وها هو مثل بقية الكائنات البشريّة، فإنّه أصيب بالرعب. ولكي يخفف عنه وطأة الهمّ الذي استحوذ عليه، شرب أكثر من اللزوم، وارتكب الخطيئة مع اخته. وفي اليوم التالي ترك المكسيك على ظهر مركب وانطلق إلى الشرق، واعدا بأنّه سوف يعود ذات يوم، ليتأكد إذا ما كان الرجال والنساء قد قاموا بعملهم على أحسن ما يرام، وحافظوا على الأرض. وقد حدّد عودته بـ «سنة القصب» التي تتوافق مع ينج 1519 الميلادية... لكن في تلك السنة لم يعد الإله «كيتزالكوتال»، بل جاء الزعيم العسكري الاسباني هارنان كورتاس ومعه 508 جنديا و16 حصانا، و11 باخرة حربية ليغزو المكسيك التي كان يحكمها آنذاك «موكتيزوما»، الذي كان يلقب بـ «صاحب الصوت العالي» وذلك دليلا على قوّته وجبروته واستبداده أيضا. وبواسطة عشيقته المدعوة مارينا. تمكن الزعيم العسكري الاسباني من أن يفرض اللغة الإسبانية على السكان المحليين وهكذا لم يعد «موكتيزوما» حاكما للمكسك، وبالتالي فقد سلطته على الزمن والكلمة كما كان حاله من قبل. ويقول كارلوس فيونتاس كورتاس كان سياسيا ميكيافيليا (نسبة إلى ميكيافيلي) بالمعنى الحقيقي للكلمة. لذا استطاع أن يكتشف بسرعة ضعف الأمبراطورية المكسيكية في ذلك الوقت إذ أنه عاين أن الشعب المكسيكي بجميع فئاته وأقلياته يكره حاكمه «موكتيزوما» كرها شديدا لذلك اتّحد مع الإسبان الغزاة لإنهاء حكمه الاستبدادي. ويرى كارلوس فيونتاس أن الغزو الإسباني لبلاده أفضى إلى نتيجة إيجابية للغاية تمثلت في ظهور مكسيك جديد، هي في الآن نفسه هندية، وأروبية وليست إسبانية فقط، وإنّما من خلال إسبانيا هي

أصبحت متعدّدة ومتنوّعة، أي متوسّطية (نسبة إلى البحر الأبيض المتوسط) وإغريقية ورومانيّة، وعربية ويهوديّة. . . ومعلقا على هذا الحدث الكبير في تاريخ المكسيك، يكتب كارلوس فيونتاس قائلا : «وهكذا تحققت النبوة. فالشمس الخامسة دمّرت من قبل الحركة، والأسطورة بواسطة الملحمة والعزلة انتهت بدخول ثقافات جديدة إلى البلاد. والمكسيك الأولى التي كانت معزولة داخل جبالها، والمقطوعة عن المحيط والمخلصة لأساطير أجدادها القدامى، بدأت تنفتح للحركة الملحمية للكون الذي كان في طور التوسّع، كون تميّز بالاكتشافات وبالهجرات وبالتجارة وبالاستعمار، أعني بذلك عالم عصر النهضّة. وفجأة تنوّعت العادات والتقاليد التي كانت تميّز البلاد، وتعدّدت، وهكذا لم يعد المجتمع المكسيكي مركزا لإقصاء الآخر وإنّما لتقبله واحتضانه. والشمس الخامسة انطفأت وسط نيران بارود المدافع(. . . .) والآلهة القديمة دُمّرت، ولم يعدْ لها وجود. ومعابدها خرّبت، والقرابين التي تقدم لها أصبحت ممنوعة. أمّا المسيحية فقد فرضت نفسها بقوّة أبويّة وأمومية، عن طريق الأب ذلك أنّ هيأة المسيح مصلوبا أذهلت الهنود، فالإله الجديد لا يطلب منهم أن يضحّوا من أجله، وإنّما هو يضحي من أجلهم. وعن طريق الأم، ذلك أن الاحساس بالاهمال الذي اعقب الغزو وقع تعويضه بسرعة بعملية سياسية وعرقية جذرية : مريم العذراء، تظهر لأشد الفلاحين فقرا وتهديه زهورا في عزّ الشتاء. إنّها عذراء ببشرة سمراء ولها اسم عربيّ، وهي تصبح الأمّ المفعمة بالبراءة والصفاء للمكسيكي الجديد». ومع اختفاء الشمس الخامسة، ظهرت في سماء المكسيك، بحسب رأي كارلوس شمس سادسة، هي شمس التلاقح بين الثقافات وبين الأجناس، وبات المكسيكيون يعتبرون أنفسهم ورثاء لكبار المفكرين والفلاسفة الغربيين من أمثال ميكيافيل وتوماس مووراسموس وغيرهم من الذين صنعوا مجد عصر النهضة الأروبية. . . .

وعن الثورات التي اندلعت في المكسيك خلال القرن التاسع عشر وبداية العشرين، والتي كانت أسبابها الأساسية تتمحور حول الهويّة، يقول كارلوس فيونتاس : «لقد كانت الثورات المكسيكية محاولة ـ الأكثر أهميّة في تاريخنا ـ من أجل الاعتراف بكلية الثقافة المكسيكية، وبأن كلّ ثقافة من ثقافاتها المتنوّعة والمتعدّدة لا يمكن الاستغناء عنها، أو إهمالها أو التضحية بها. والمعارك الكثيرة التي خاضها جنود بانشو فيلا في الشمال وجنود زاباتا في الجنوب كانت بمثابة عملية أخذ بالثأر للشمس الخامسة التي قتلت في حركتها العالم المكسيكي القديم. وأمّا الحركة الثورية التي اندلعت عام 1910، فقد أنشأت شمسا جديدة، شمس الاعتراف المتبادل، وتقبل كلّ ما كنّاه قبل ذلك، وأيضا لكل عنصر من العناصر التي جعلت من المكسيك أمّة متعددة الثقافات في عالم أصبح هو نفسه متنوّعا ومتعدّدا».

ومحاولا أن يوضّح الأسباب التي تجعله يجزم أن المكسيك دخلت القرن الواحد والعشرين بقوة، يقول كارلوس فيونتاس: «المكسيك وجميع بلدان أمريكا اللاتينية لها ثقافة لا تتوقف عن العطاء وعن التطور إنّها ثقافة تعود إلى آلاف السنين، أي إلى الحضارات القديمة، حضارة «المايا» و«الاستاك» وغيرها، وإلى الظواهر الأكثر حداثة في مجال الفن والموسيقى والأدب والمعمار والأدب والفكر. وهي ثقافة منفتحة على المستقبل، ذلك أن مصدرها الأول كان الهجرات البشرية والتنوع والتعدد والاختلاف وهكذا يمكنني أن أقول إننا مرآة القرن الواحد والعشرين(. . . ). وليس علينا أن نخشى العلاقات مع الثقافات الأخرى، ذلك أنّ الثقافات والشعوب التي تعزل نفسها تموت، وحدها تبقى على قيد الحياة، الثقافات والشعوب التي تبقى نوافذها وأبوابها مفتوحة على الآخر!».

ويختم كارلوس فيونتاس كلامه قائلا : «شمس أخرى جديدة تطلع على العالم. وهي تنتظر منا أن نحتفظ باسم كل الثقافات، وكل القيم بالقيمة العليا التي هي تواصل الحياة».

# استشراف الحداثة في كتاب «إمرأتنا في الشّريعة والمجتمع» للطّاهر الحدّاد

أحمد خالد

سأختزل بروؤس أقلام عرض موضوع «استشراف الحداثة في كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع». وكنت قد فصّلته وعمّقته خاصّة في كتابي «الطاهر الحدّاد ومسألة الحداثة» بقسمه العربيّ، وكذلك الفرنسيّ:

Le Traité Moderniste de Tahar Haddad (Notre Femme dans la charia et la société) Éd. Tunis 2002

## I ـ ماهو منهج البحث للوصول إلى المضمون في عنوان المحور الأوّل من ندوتنا؟

هناك كلمات مفاتيح تفرض نفسها وهي:

أ ـ استشراف، وتعني سبق الزّمن الآتي بتصوّر اجتهاديّ طلائعيّ.

ب ـ حداثة (Modernité Modernisme)، وتعني في أصل اللّغة بأوروبّا المنحى التّنظيري لتجديد الفكر الدّينيّ، وتفسير الكتاب المقدّس، وكذلك تجديد المذهب الاجتماعيّ، ونظام الحكم على ضوء ما جاءت به الثّورة الصّناعيّة من مكاسب سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة بدءا من القرن التّاسع عشر.

أمّا مصطلح (Poste-Modernité) أو «ما بعد الحداثة» فهو ما أنتجته تكنولوجيا المعلومات والثّورة الرّقميّة وانعكاساتها على الإنسان في جميع الميادين.

والحداثة وما بعد الحداثة كلاهما قائم على أساس المعرفة.

ج ـ فماذا بخصوص هذا كلّه في كتاب «امرأتنا في الشّريعة والمجتمع» حسب طرح موضوع المحور الأوّل من النّدوة؟

المعروف الرّائج بخصوص المشروع الإصلاحيّ للطّاهر الحدّاد المتعلّق **بالمرأة والأسرة والطّفل** أنّه بناه على مبدإ ضرورة الإقرار **بسّنة التّدريج** في الأحوال العارضة (الأحوال الشّخصيّة) دون المساس بجوهر العقيدة، وأنّ تلك الأحوال تتطوّر بالتّدريج لتبلغ مستواها المطلوب عند نضوج الإنسان. وهكذا يدخل الحدّاد في صفّ كبار المجتهدين، ويرتبط سند التّدريج عنده بنظريّة التّقعيد الفقهي المعتمد على «**علم مقاصد الشّريعة**» كما بشّر به أبو إسحاق الشّاطبي الأندلسي في «الموافقات»، واهتمّ به بعض علماء تونس، وخاصّة عبد العزيز جعيّط في مقال

بالمجلّة الزّيتونيّة (نوفمبر 1936) بعنوان «المقاصد الشّرعيّة وأسرار التّشريع»، ثمّ في سلسلة البحوث التي نشرها في «المجلّة الزّيتونيّة» عام 1955 قبل أن يصدر العلاّمة الشّيخ الإمام الطّاهر ابن عاشور كتابه المرجعيّ بعنوان «المقاصد الشّرعيّة» في طبعته الأولى عام 1978.

وباجتهاده في مقاصد الشّريعة بخصوص المرأة والأسرة والطّفل أرانا الحدّاد معالم الطّريق مستشرفا «مجلة الأحوال الشّخصيّة» الأولى الصّادرة في فجر الاستقلال (13 أوت 1956)، ومبشّرا بـ «مجلة الأحوال الشّخصيّة» الثانية (الصّادرة في 12 جويلية 1993) المنقّحة والمثراة في عهد التّحوّل بالرّصيد الضّخم القانوني والمؤسّساتي والإجرائي الدّاعم لها كالقانون عدد 92 لسنة 1995 المتعلّق بـ «مجلّة الطّفل» الرّياديّة في العالم العربيّ والاسلاميّ.

وقد استعرضت في كتابي المشار إليه موازنة مفصّلة بين المشروع الإصلاحي الطّلائعي كما استشرفه الحدّاد، وما تحقّق في تونس على مدى عهدين: عهد الاستقلال وبناء الدّولة، وعهد التّغيير والتّطوير، فأكتفي هنا بالإشارة إلى أنّ الحدّاد استشرف بالخصوص الحقوق المدنيّة للمرأة كحقّ الشّهادة، والانتصاب للقضاء، واقتحام جميع ميادين العمل خارج المنزل، وحقّها في التّملّك الشّخصي» سواء عن طريق الميراث أو العمل، و«حقّ الولاية على القاصرين»، ومفهوم «الشّراكة» بالمعنى الحديث بين الزّوجين في الإنفاق والتّملّك مع حقّ المرأة في الاستقلال المالي، والقول بأنّ الإسلام ـ وفق تعبير الحدّاد ـ «لم يقرّر نزول ميراثها عن ميراث الرّجل كأصل من أصوله التي لا يتخطّاها» مشيرا بذلك إلى إمكانيّة التّسوية في الميراث بينهما.

وتبرز مؤسّسة الزّواج كما تصوّرها استشرافيّة ببنائها على حرّيّة الاختيار، والواجبات والحقوق، والازدواج والشّراكة والتّعمير.

وهو الذي استشرف مسألة التّنظيم العائليّ وإمكانيّة الإجهاض عند اقتضاء الضّرورة لصحّة الأمّ والطّفل في مرحلة جنينيّة معيّنة، كما استشرف المراقبة الصّحيّة قبل الزّواج، ومنع تعدّد الزّوجات، وتأسيس محاكم الطّلاق، والتّعويض المالي للمتضرّر منه.

وهو الذي كشف المخاطر النّاجمة عن تشغيل الأطفال ونادى بحمايتهم والعناية بتربيتهم وفق المناهج الحديثة، وما إلى ذلك من المسائل الاجتماعيّة الدّقيقة الدّالّة على اقتناع الحدّاد بأنّ المسلم يستطيع أن يكون مؤمنا بالحقائق الإلهيّة، متناغما مع عصره.

وقد تحقّقت أحلام الحدّاد في بلادنا بفضل الإرادة السّياسيّة القويّة، فلم تنتظر القيادة في أعلى هرم السّلطة الإملاءات الخارجيّة لإنجاز الإصلاحات المنشودة بسبق كبير للأحداث، خلافا لما يلاحظ في أماكن أخرى من العالم العربيّ والإسلاميّ في هذا الزّمن الفاجع حيث تتحرّش بالإسلام بعض القوى الحاكمة أو الضّاغطة المتغوّلة التي تتّهم المسلمين بالانغلاق والتّطرّف والعنف، في حين أنّ الإسلام السّمح، كما في تونس، من ذلك براء. ولكنّ الخصوم يجدون الذّرائع في تطرّف التّيّار الظّلامي الذي استشرف الحدّاد مخاطره وكان ضحيّته.

وبدون دخول في التّفاصيل أذكّر ببعض القوانين والمؤسّسات والإجراءات التي تحقّقت في تونس بين عهدين: عهد الاستقلال وبناء الدّولة، وعهد التّغيير والمتعلّقة بالحقوق المدنيّة للمرأة:

**1 - بخصوص الشهادة والقضاء**

ـ أعطى القانون للمرأة أهلية كاملة مثل الرّجل فيما يتعلّق بالوجوب والأداء والتّقاضي والشّهادة.

ونصّ الفصل 7 من «مجلة الالتزامات والعقود» بقانون 3 أوت 1956 على إلغاء كلّ تمييز بين الجنسين،

وتواجدت المرأة في أعلى مراتب القضاء، ومثّلت في جهازه نسبة 24 ٪ من مجموع القضاة حسب إحصائية 1998، بل تواجدت المرأة في جميع وظائف الدّولة كما بينته في كتابي:

«La Postérité du traité Moderniste de Taher Hadad"» pp 52-50.

**2 ـ بخصوص أهلية التّطرف الشّخصيّة في التّملّك والميراث والعمل والولاية على القاصرين.**

هذا الحقّ الذي استشرفه الحدّاد أقرّته «مجلة الأحوال الشخصية» الأولى في فجر الاستقلال، وزاد وضوحا ودقّة في عهد التّغيير وفق «مجلّة الأحوال الشّخصيّة» الثّانية المؤرّخة في 12/ 7/ 1993.

ثمّ أضاف القانون عدد 9 لسنة 1998 نظام الاشتراك في الأملاك بين الزّوجين اختياريّا،

**3 ـ بخصوص الميراث**

استشرف الحدّاد مفهوما حديثا للشّراكة الزّوجية بتجاوز مجرّد مفهوم المساواة.

ولم تزل مسألة الميراث في اتّجاه المساواة بين الجنسين (لتغيّر ظروف الحياة) كما استشرفها الحدّاد، لم تزل معتّمة تثير الحساسّيات.

**4 ـ في مسألة التّنظيم العائليّ**

استشرف الحدّاد هذا التنظيم المرتبط في تونس الحديثة بسياسة سكّانيّة فاعلة في النّهوض الاقتصادي والاجتماعيّ، **وكذلك إمكانية الإجهاض.**

أذكر القانون المؤرخ في 9/ 1/ 1961 المتعلّق بالبيع الحرّ لوسائل منع الحمل.

ـ القانون المؤرّخ في 1/ 7/ 1965 المتعلّق بإبطال الحمل بشرط إجرائه خلال الأشهر الثلاثة الأولى، وفي المستشفى أو المصحّة

**5 ـ تعدّد الزوجات**

منعه الفصل 18 من مجلّة الأحوال الشّخصية.

**6 ـ بخصوص الطّلاق**

استشرف الحدّاد ما قنّنته مجلّة الأحوال الشّخصية في هذه القضيّة ومنه:

ـ وجـوب الرّجـوع فيه إلى «محاكم خاصّة» (الفصل 18)

ـ **التّدخّل الاختياري** بالصّلح بواسطة حكمين، والتّدخّل الوجوبي بالصّلح بواسطة قاضي الأسرة

ـ أزيلت مهزلة **التيّاس، ودار جواد.**

ـ أنشئ صندوق ضمان النّفقة وجراية الطّفل وفق القانون المؤرّخ في 5/ 7/ 1993 والأمر المتمم له بتاريخ 9/ 8/ 1993.

**7 ـ منع الزّواج بالإكراه** بإلغاء حقّ الجبر للوليّ وإعطاء الحقّ للمرأة في اختيار زوجها (الفصل 3 من مجلّة الأحوال الشّخصية)

ـ وضبط الفصل 5 السنّ القانونيّ للزواج، كما استشرفه الحدّاد.

8 ـ استشرف الحدّاد:

ـ لزوم الكشف الطبي قبل الزّواج (القانون المؤرّخ في 3/ 11/ 1964)

**9 ـ في مسألة تشغيل الأحداث،** استشرف الحدّاد «مجلّة حماية الطّفل» (القانون عدد 92 لسنة 1995) الذي حمى الطّفل من جميع أشكال الاستغلال.

هذا ملخّص عام وهناك جوانب أخرى يطول ذكرها.

## II ـ هذا كلّه قد أصبح من المسائل المطروقة المعروفة.

وقد بغيت عن المهتمّين بالحدّاد فهمه العميق للحداثة، ومقاربته الشّاملة لمفهوم الحضارة.

وهو في نظري المفكّر التّونسيّ التّال□ في كتابه «امرأتنا في الشريعة والمجتمع»، بعد ابن خلدون في «مقدمته»

وخير الدّين في كتابه «أقوم المسالك»، الذي عالج مسألة الحضارة باعتبارها امتدادا وإثراء للسّند الصّحيح (La bonne tradition) في كلّ ميدان، واعتبرها شموليّة لمكوّنات «العمران البشريّ»، وهي «الملك» (أي الدّولة)، والاقتصاد، والصّنائع والعلوم والفنون، وفق التّنظير الرّياديّ لابن خلدون (Sience du peuplement humain)

والعجيب المذهل في فكر الحدّاد أنّه تحدّث في سنة 1930 تاريخ صدور كتابه عن «**التّعمير**» بمفهوم خصوصيّ متّصل بتصوّره للحضارة الجديدة التي كان يرومها لشعبه بمعنى «التّنمية الشّاملة» (Développement intégral) كما في اصطلاحنا الحديث.

ويقوم التّعمير ـ كما عرضه في كتابه في باب «تيّار التّطوّر الحديث» ـ على التّعليم والمعارف، وبعث المشاريع الاقتصاديّة، وتوفير مواطن الشّغل لمقاومة الفقر، وإرساء البنية الأساسيّة.

هكذا استشرف الزّمن الآتي في تونس الحديثة وحلم به. النّفوس الكبيرة حالمة، والإرادات السّياسيّة القويّة محلّقة بجناح الحلم. ومن لا يحلم ويجدّ ويتعب لا ينجز ولا يبدع مهما كان اختصاصه.

والأهم من ذلك كلّه تركيز الحدّاد لفكره في كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» على اعتبار «المعرفة» كأصل للنّهضة والحضارة، كما بيّنته في تحليلي الضّافية.

والمدهش أيضا أنّ هذا العبقريّ الكشّاف تحدّث بمصطلح زماننا عن «**مجتمع المعرفة**»، وله مشروع تربويّ للمرأة مذهل مفتوح على جميع معارف عصره وفنونه حتّى الرّياضة البدنيّة. والعبرة من ذلك اقتناعه بأنّ المسلم يستطيع أن يكون مؤمنا بالحقائق العلميّة، مسايرا لعصره.

ذاك استشراف كبير للحداثة في فكر الحدّاد. ويروج اليوم أنّ من فاته قطار الثورة الصّناعيّة بإمكانه ـ في هذا المنعرج التّاريخيّ ـ تدارك أمره بالانخراط في الثورة الرّقميّة، واكتساب تكنولوجيا المعلومات والإبداع في البرمجة، والسّباحة في شبكات الأنترنات، وهي وسائل بلغت أرقى درجات الذّكاء في زمن علوّ سلطان المعرفة.

وهذا ما استشرفه الرّئيس زين العابدين بن علي منذ فجر التّحوّل، فسعى في إنجازه وإرساء شبكات الأقطاب التّكنولوجيّة عبر البلاد، فاستحقت تونس عن جدارة في مارس 2005 تصنيفها من قبل المنتدى الاقتصادي العالمي بدافوس (Forum de Davos) في المرتبة 31 من مجموعة مائة وأربعة بلدان في العالم تعتبر الأرقى من حيث مؤشّرات التّأقلم مع الأرضيّة التّكنولوجيّة لدخول الشّبكات.

فلا عجب إذن أن يستجيب المجتمع الدّوليّ لدعوة سيادة الرّئيس استضافة «قمّة تونس لمجتمع المعلومات» التي كانت بشهادة المختصّين والملاحظين قمّة غير مسبوقة في التّنظيم والتّسيير وإظهار القدرات الابداعيّة التّونسيّة، وفرصة تاريخيّة لإشعاع الصّورة المشرقة لتونس الجميلة عبر العالم.

# أهليّـة التّصـرّف للمـرأة (*)

## الطّاهر الحدّاد



أكثر من ذلك في تحقيق الشّخصيّـة المدنية أن الإسلام يقرّر لها أهليّـة وحقّ التّملّك الشّخصيّ سواء من طريق الميراث أو العمل كالرّجل كما هو نصّ الآية : ﴿للرّجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنّساء نصيب ممّا اكتسبن﴾ [النساء 4 : 32] فليس ما تكتسبه المرأة جزءا يندمج في مال أبيها أو زوجها وهي فيه خادمة مسخّرة كما كان ذلك في الجاهليّـة . وقد صحّح معاملاتها مع الغير طالبة أو مطلوبة . وأعطاها أهلية التّصرّف الكامل في ملكها بيعا وشراء في تجارة أو غيرها متى بلغت الرّشد بعد زواجها بعامين أو ثلاثة (1) على الخلاف في ذلك إلا ما وجد في بعض المذاهب الفقهيّـة التي رأت قصر هذه الأهليّـة على المعاوضات والتّبرعات فيما لا يزيد عن ثلث مالها، اعتبارا بحالة ضعفها التي قد تتجاوز بها الاعتبار المناسب لمصلحتها، ولها أيضا حقّ الولاية على القاصرين والتركات بالوصاية والتّقديم : ترعى

(*) «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» الأعمال الكاملة، جIII، ص 31 - 33

(1) في الأصل «ثلاث» والصواب «ثلاثة».

الأبناء وتقوم على ضبط الأموال. وليس من المعقول أن يعطيها الإسلام كلّ هذه الحقوق التي يؤيّدها أغلب فقهائه وهو جازم بنقصها الذّاتي وعدم قابليّتها لاستعمالها في حقّ نفسها وحقّ من تنوبه. فلنتصوّر إذن ما كان ينتظره الإسلام من ثمار هذه الحقوق في عقليّة المرأة ونفسيّتها عندما تدخل في تجربة الحياة متحمّلة مسؤوليّة أعمالها فيها.

أمّا القانون المدنيّ التّونسيّ فقد أعطاها الرّشد كاملا من غير قيد متى رشدت بعد زواجها بعامين. وهذا نصّ الفصل السّابع من مجلّة العقود والالتزامات: «كلّ إنسان ذكر تجاوز عمره ثماني عشرة سنة كاملة يعتبر رشيدا بمقتضى هذا القانون. أمّا الأنثى فإنّها تبقى في قيد الحجر إلى مضيّ عامين من تاريخ تزويجها» وهذا عكس القانون الفرنسي فيما يخصّ المرأة، فهو يعتبر زواجها ابتداء الحجر عليها من زوجها.

إنّ المرأة قد تدرّجت فعلا في صدر الإسلام فاستعملت ما أعطاها من حقّ وانتفعت به بقدر استعدادها، وبقدر ما سمحت به الظّروف العامة إذّاك. فلنقابل هذا بآراء الذين يريدون انزواءها وبعدها عن الحياة إلاّ في حدود منزلها.

فهل تتوفّق من دون غبن لكلّ تلك الأعمال المدنيّة المشتبكة مع غيرها وهي تطل من نافذة البيت أو تسمع أخبار وروايات الوكلاء والمخبرين خصوصا في العصر الحاضر الذي تشعّبت فيه كافّة الأعمال المدنيّة بصورة تستدعي دقّة النّظر، واستيعاب حالة الوسط والأفراد، وأخذ الحيطة في ذلك؟

ها نحن إلى اليوم نرى نتائج حكمنا على المرأة بالانزواء في أموال الفتيات والنّساء والأرامل حيث يتسابق إليها الأقارب قبل الأباعد، فلا يمضي زمن طويل حتّى تذهب أو تكاد. وبذلك تخسر المرأة مالها وحقّها المشروع فيه فتذبل حياتها ويجمد عقلها بوقوف حركته فلا تعود تعرف حتّى أبسط طرق الدّفاع عن حقّ لها أو صدّ أذى ينالها في نفسها أو شرفها أو مالها. وهذه هي امرأتنا التي نحبّها ونعبد فيها هذا الانكسار القاتل.

# احترام الأفكار (*)

## محمّد الطّاهر ابن عاشور




يقول المبتدؤون والمتوسّطون من الكتاب "بنات الأفكار" إذا أرادوا أن يُملحوا العبارة، ويدلّوا على منزلتهم في علم الاستعارة . . . وربما كان البعض ذاهلا أو عاجزا عن كل هذا المقدار، فلا عجب أنهم ذهلوا عن شيء أكبر منه أفادته العبارة وما أراده قائلها : وهو تمام التشابه بين الأفكار وبين انتساب البُنُوّة من جميع أطرافه، حتى تجد مبتكر فكرك منك بمنزلة ابنك أو بنتك، وكأنهم اختاروا الثاني قصدا للمبالغة في الحرمة والغيرة.

لو عمدت إلى رجل من سوقة الناس، فأسندت إليه مسائل حقّقتها أو رسائل نمّقتها، لكنت توحي إلى الأمّة أن تسند إلى هذا الرجل منصب الرئاسة في علومها، أو أن تكل إليه قلمها الذي تدافع به عن نفسها، وفي هذا ما

ملاحظة : تسرّب خطأ في ترتيب فقرات هذا النص المرجعي، والمجلّة إذ تعتذر لقرّائها عن ذلك، تعيد نشر النص بصيغته المصححة تعميما للفائدة.

يجرّ الفساد لنفسك ولصاحبك وللأمّة . أمّا الأمة فقد ضرب فيها الفساد منذ صارت بيد من لا يعرف كيف يدير . وحسبك من هاته الكلمة تشخيصا لحالها . وأمّا صاحبك فرجل ألقي إلى الأمة بذلك الوصف العظيم ، فكيف تراه والمشاكل تتقاطر عليه ، وعيون الحيرة تعشو إلى ضوء اهتدائه ، وتنظر إليه ثم لا يبوء لهم أمرهم إلاّ بضلال مبين ، أو سكوت إن كان المسؤول من خلّص الجاهلين . وأما نفسك فأنت إذن بها أعرف .

قضت سنّة الله في الناس أن تخضع نفوسهم إلى الحق والواقع والثابت . ترى الرجل تسند إليه الهنة وهو بريء منها ، فتصعد إلى دماغه دماء الغضب ، ويدافع عن نفسه دفاع البريء المخلص ، بلسان فصيح وقلب صحيح ؛ ثم تراه تسند إليه تلك السيّئة إن كان قد اقترفها ، فيطأطئ لها رأسا ، ولا يجد منها مناصا ، مهما سترها بأطمار الجمود والمكابرة ، حتى تفتضح حاله عند الفراسة الصّادقة ، أو يزلق لسانه عند البحث الشديد ؛ أليس ذلك آية على أنّ النّفس تخضع إلى الحقّ وإن لم يكن مشتهاها وتبرأ من الباطل وإن كان هواها ؟ كذلك الرجل يبلوه الله تعالى ببنات ذرّية سوء ، فيستسلم إلى ما قدر عليه ، فلو كان ذلك الولد دعيّه لقرع ألْسن الندم ، ورضي أن لو باء من سعيه بالعدم . هكذا حال الأفكار ومنشئاتها متى أسندت إلى غير أصلها ، قارنتها ندامة واغتباط ، وفضيحة تلوح على أخوتها من تخالف شكل وانحلال ورباط . لعلّ في هذا المقدار مقنعا من إيصال هذا الإحساس الحكمي إلى نفوسكم أيّها النقّاد ، وتعريفا بوجوب دعائنا الأفكار إلى آبائها ، لنقوم بالقسط ، فلن نكون كذي ذهن عاقر يشوّه فضيلته بانتحال أفكار ما كان لينال أمثالها . قد تغتفر الأمور الضروريّة والإحساسات الفطريّة العامّة التي تشترك فيها أفراد الأمّة متى تقاربت في الشعور ، فلا يجب إسنادها ، وربّما استحال في البعض ذلك . إنّ الذي قالها بالأمس لم يصدر كلامه حتى قال مثلها أو قاربها اليوم آخر . أما احترام الفكر بالمعنى الثّاني ، فحقّ على كل صاحب فكر أن يقابل فكر غيره بالاحترام دون السخرية والهزء . فإن الاسترسال على ذلك يجبن الذين تخلّقت فيهم مبادئ العقل النظري عن الإعلان بما وهبوه خشية الاستهزاء والاستسخار ، ولو كانت قد وصلت إلى التمكّن والرّسوخ لأمنّا عليها حتى إن استترت تتستّر كشمس تحت السحاب أو كإدبار المتحرّف للقتال . أترون ذلك يرزونا المنفعة المقصودة؟ ولكنّنا لا نخشى عليها إلاّ أن تموت تحت أقفال الأسْر في صباها ، وما بلغت أشدّا تستطيع به مقاومة الزّمان وليّ أيدي المضطهدين .

نحن نوقن أنّ أفكارا ساقطة تنشأ في الأمّة قد يجب الضغط عليها أن لا تشيع فتستهوي أقواما غافلين بسطاء ، فتصبح وباء في الأفكار المهزولة . ولكنّا لما وازنّا بين هاته المصلحة النّادرة ، وبين المفسدة الكبرى التي كانت ولازالت تتزايد من اضطهاد الأفكار السامية ، باسم التحقيق آونة وباسم . . . . . أخرى ، لأنّها لا توافق الرّغبات ، ولا تجاري الشّهوات ، حكمنا للأفكار باحترامها ، وجعلنا البحث والنّقد معيارا يميّز به خبيثها من طيّبها ، ولا يلبث الحقّ أن يهزم الباطل .

لو كنا نضطهد الأفكار لاشتبه الباطل منها بالحق ، فيصرخ يستنصر لاهتضامه كما يستصرخ الحق شيعته ، وربما وجد

من السامعين قلوبا ترقّ للمضعوف وإن جار، فتصبح فتنة أشدّ من أن لو ترك يتمارض بالنقد الصحيح والحجّة الدامغة، حتى يموت حتف أنفه، ثم لا يثأر له أحد. ليس يحول هذا دون الواجب من تقويم المخطئ. إنا نعني باحترام الفكر أن لا يُتعرض لصاحبه الشخصي بالطعن والاستخفاف، ولكنّ التّقويم يكون بصفة كلّية وتعريض بسيط وليس احترام الأفكار يأبى مناقشتها والحكم بضعفها، لكن تجب الأناة في الحكم على الفكر أن لا يتعرض له بالنقد، ما دام فيه احتمال الصواب، أليس في ارتياء مقاصد المتكلّمين قبل التّسارع إلى تغليطهم ببوادر الظنون، ما نقتصد به زمان المراجعة إلى استئناف شيء جديد ونحفظ به كرامة الاتحاد وسلامة الضمير، ونسلم به من افتضاح حبّ التشفّي والانتقام لإطفاء ثوائر الحسد والغلّ. ما كان التقرير على الخطإ إلاّ خطأ وتضليلا، ولكنّ نظيره في التضليل وأعظم منه فسادا التّسارع إلى تغليط الصائبين، لاسيما إن قارنه ما يقارن سفاهة الرأي وضيق الصدر وغليل الجهل من تفويق سهام نقد تخطئ الرميّة والأخذ بسلاح العاجزين من الغيبة والشتيمة التي تترجم عن قصد صاحبها.

سيظن البسطاء من الناس أن احترام الأفكار وحرّيتها يخوّلها حقّ الاجتراء بنحو الشتيمة، ولكنّه ظنّ سريع التقشّع متى وجدوا لسانا حكيما يبيّن لهم أنّ الحرّية والاحترام شيء وأنّ الاجتراء شيء آخر، لأن الحرية إنما ينالها المرء بعد شعوره بوجوب مساواته مع غيره فيها، وإلاّ كانت الاستعباد الذي نفرّ منه، فإن طلبت أنفسهم زيادة البيان، فإنا نحيلهم على كلام طويل في معنى الحرية، لو بسطناه لفصم عنا سلك الكلام في مرادنا من هذا المقال. فإذا كانت الأفكار محترمة كما قلنا، فالاجتراء عليها بما ذكرنا يستأهل عقوبة على خرق سياج هذا الاحترام حقّا، لأن ذلك يثير العصبيات، ويجفي عن الحقيقة التي ما احترمت الأفكار إلاّ لأجل الوصول إليها.



من أكبر الأسباب في تقدّم الأمّة بعلومها وقبولها لرتبة التنوّر وأهليتها للاختراع في معلوماتها، أن تشبّ على احترام الآراء. وقد كان للمسلمين من ذلك الحظ الذي لم يكن لغيرهم يومئذ من التسامح والتساهل مع الأفكار، شهد بذلك التاريخ وأهله إلاّ المتعصّبين منهم مع ما كان قائما بين أصناف أهل الآراء من التناظر والجدل، ولكنك لا تجد ذلك محفوفا بتعصّب ولا اضطهاد. كنت ترى الأشعري بين يدي المعتزلي لا يستنكف عن تلقّي فوائده والاعتراف له بحقّ التعليم، وترى السنّي يتعلّم عن القدري وعن الفيلسوف الشاكّ. قد كان عمرو بن عبيد الزاهد الشهير من خاصّة تلاميذ الحسن البصري "رحمهما الله" وهو الذي كان مكلفًا بكتابة ما يمليه الحسن من التفسير الذي يردّ به على القدرية والمعتزلة، وما كان يمنعه ذلك من المجاهرة باتباعه مذهب المعتزلة ومن التحاقه بدروس واصل بن عطاء الغزّال الذي قال له الحسن لما كثرت مناقشته: اعتزل مجلسنا. فكان عمرو بن عبيد يختلف على الدرسين جميعا، وما كان ذلك يمنع الحسن من تكليفه بإملاء تفسيره. **[وهذا الإمام أبو عبد الله البخاري إمام الدين يخرج في صحيحه الذي هو أصل من أصول الإسلام عن عِمْرَان بن حطّان وهو خارجي خرج عنه في باب لبس الحرير وافتراشه للرجال من كتاب اللباس وخرج عن محمد بن خالد وهو الذي يعنيه كثيرا من قوله حدّثني محمد. وأخرج عن عمران بن حطان أيضا في باب الصور من كتاب اللباس ولم يتابع حديثه. وعمران بن حطان صرّح الجاحظ في البيان بأنه من أئمة الخوارج وهو يروي عن عائشة وغيرها من الصحابة.]** (**)

حتى استخدم اختلاف الآراء آلةً للتشيّع السياسي، حين آذنَت الدولة العربية والجامعة الإسلامية بالانحلال والافتراق اللّذين تركا من الآثار ما نحن نتخبّط في مصائبه ولأوائه حتى اليوم. وكذلك الحجر على الرأي يكون منذرا بسوء مصير الأمة، ودليلا على أنّها قد أوجست في نفسها خيفة من خلاف المخالفين، وجدل المجادلين. وذلك يكون قرين أحد أمرين، إمّا ضعف في الأفكار، وقصور عن إقامة الحقّ، وإما قيد الاستعباد الذي إذا خالط نفوس أمة كان سقوطها أسرع من هويّ الحجر الصلد. حكى الجاحظ: أنّ النّظام دخل على شيخه أبي الهُذَيل العلاّف، فقال: يا أبا الهُذَيل! لِمَ قرّرتم أن يكون الله تعالى جوهرا خشية أن يكون جسمًا؟ فهلاّ قرّرتم أن لا يكون جوهرا مخافة أن يكون عرضًا، والجوهر أضعف من العرض. فَبَصَق أبو الهُذَيل في وجهه. فقال النظّام: قـبّحَك الله من شيخ! فما أضعف حجتك!. وكان الخليفة المأمون يقول لأهل ناديه إذا جارَوْه على كلام: هلاّ سألتموني لماذا؟ فإن العلم على المناظرة أثبت منه على المهابة. دامت على ذلك الأمة الإسلامية متمتّعة باحترام الأفكار، جريء كلّ واحد على أن يبوح برأيه، وجريء كلّ مستمع على تقويمه بالحقّ، وإن وقع في خلال ذلك حادثة خلق القرآن، وحادثة صغيرة وقعت بالقدس بين الباطنية وأهل السنّة؛ إلاّ أنّهما لأسباب عالية وغلط فاحش لا يسع ذكره اليوم. لما استخدمت الآراء للسّياسة، وشاعت المداهنة بين النّاس، وضعفت الكبراء عن الحجّة، يومئذ ساد اضطهاد الأفكار والضّغط عليها، كي لا تسود على مخالفيها القاصرين الظّاهرين في مظاهر العلماء المحقّقين. نعني بالسّياسة ما يقرن سياسة الدّول في تصرّفاتها وأغراضها بسياسة الأشخاص المسيطرين في هواهم، وربما كان القسم الثاني أشدّ على الأفكار لكثرة دواعيه، ووفرة منتحليه: منهم من يفعل ذلك إبقاءً على منصبه، واستحفاظا على وجاهته، لأنّه يخال أنّ كل مخالفة له في الرأي، تنذر بثلّ عرشه وزلزال أركانه، والمريض كثير الأوهام. ومنهم الذي يسخط من مخالفة المعتاد، ويرى العادة دينا أو شبه دين، يجب أن لا يتلاعبَ به الشخص، ومنهم الذي يتوهّم أنّ الدّين يخالف احترام الآراء، ومنهم الحاسد العاجز الذي يحبّ أن يظهر في مظاهر الكمال بكلمات يلفـّقها، ويحسّ في ذكر ذلك لذّة مادام منفردا بها، فإن شاع ذلك بين الناس، تميّز من الغيظ. كنت أعرف رجلا ينادي بين النّاس باسم النّقد للحالة والطّعن في الأوضاع المعتادة، وربّما ترقـّى إلى بعض الشتيمة زمان كان يقول ذلك وحده يحبّ الشهرة وما يلقاها، ويترصّد طريقها وما يقع بمرآها. فلما امتدت الأيدي، وانبرت العيون إليها، واستوى مع غيره في معرفتِها، انصاعَ يُقبّحُ ذلك الحال، ويرى خلَفَه ودعاءَهم في ضلال.

ممّا يخصّ بالوصاية والاحترام أفكار المتقدّمين الذين وصلوا بنا إلى حيث ابتدأنا من العلم والمدنيّة، عوضا أن نكون في متحرّكهم الأول نبتدئ سيرًا بطيئا، كما قالوا: إنّ الإنسان ابن يومه لا ابن أمسه، فهو أيضا ليس بابن لغده. فمقدار فضيلة الرّجل ومكان شهرته، لا ينظر فيه إلى غير يومه الذي كان فيه، فلا يغلّط لنا كثير من الناس ينتقصون الأقدمين بمستدركات المتأخّرين، فإنّما تعرف مقادير الرّجال بما أوجدوه، لا بما تركوه؛ ولكنّ طرق الشهرة لا تختلف، وهي قوّة الفكر، ومرتبة العلم والعمل على تنوير آراء المتعلّمين والقارئين في عقل صحيح، ونيّة قويمة، ونصح جهير. قد استهوى هذا الغلط الشيخ أبا علي ابن سينا «رحمه الله» حين بالغ في ثنائه على أرسطو حتّى قال: أمّا أفلاطون الإلهي فإن كانت غايته من الحكمة ما وصلنا من علومه فإنّ بضاعته إذن لمزجاة. وكأنّه نسي أنّه

لولا أفلاطون بكلماته القليلة خوّل لأرسطو أن يبني عليها كثيرا، لكان أرسطو هو أفلاطون، وبضاعته الوافرة كانت مزجاة.

هذا أيها الناشئون على النّقد، الباحثون عن الحكمة نبراس مبين، أقمناه بين أيديكم ليضيء لكم مستقبلا نيّرا، وعسى إن اهتديتم بضيائه، واحتفظتم عليه من عواصف الأهواء والشبهات، أن تسلكوا به طريق العقلاء، فتصبحوا سمراءَهم، والله يضيء آراءَكم بالحكمة.

---

* مجلّة السعادة العظمى، عدد 18، المجلّد الأول، رمضان 1322/ 1904.

* * هذه إضافة بخط يد الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على هامش المقال بعد صدور المجلّة.



# رحمـــة الصّخـــر

حفيظـة قـارة بيبـان

- «لن تندمي على هذه الرحلة !»

وجدتني - رغما عني - أستسلم لرجاء ابنتي، في السيارة وهي تغادر المدينة. في طريق فرعية ضيقة تتلوى مع المرتفعات، وتخترق غابات سجنان لتنتهي بعد ساعة إلى طريق ترابية منهكة على امتداد أكثر من عشرة كم.

رغم قصر مدّة الرحلة، فقد حرصت على اصطحاب رواية «النفق» لأرنستوسا باتو الذي درس الفلسفة وحصل على دكتوراه في العلوم الفيزيائية والرياضية وعمل في مخابر باريس، ولكنّه هجر العلم الذي حطم ذرة اليورانيوم، ليصنع كلّ أسلحة دمار الإنسان واختار أن يكرّس حياته للأدب، ويضيء من خلاله الذات الإنسانية المعقّدة.

أخيرا، توقفت السيارة المنهكة على حافة الغابات الكثيفة على مرتفع فسيح، تتوزع فيه بعض بيوت من القصب على شكل أكواخ. وأطل البحر متألق الزرقة، جليلا، مزبدا بينما انتشر هدوء غامر سحري أنساني تعب الطريق.

* * *

في بيت القصب، رميت سلتي، ونزلت المنحدر إلى الشاطئ الرملي، لأشهد لأوّل مرة ذاك الصفاء الأخاذ المدهش لطبيعة بكر يكاد لا يرى فيها الإنسان.

بحر زجاجي كريستالي مدهش الصفاء !

الكريستال يموج ويتكسر على الشاطئ.

ويعود يجمع زبده ماضيا، عائدا من جديد، مضيئا! إغراء الطبيعة كان أكبر من إغراء كتابي، والبحر كان لا يكف عن الغزل، مأخوذة، عانقت قدماي نقاوة الرمل الأبيض الناعم الرّحيب... ارتميت في زبد البحر الكريستالي وقد تحول الماء مرآة تعكس حبات الرمل المتعانقة في القاع... تمشيت مبتلة على الشاطئ الخالي حتّى آخر الجون، قبل أن أجلس متوحدة على الرمل تحت الشمس الساخنة، أتأمل رحابة الكون حولي. وقتها، شاهدت الصخر الحارس للشاطئ ينظر إليّ بعيونه الرمادية بدا شامخا، ساكنا، شبه كئيب.

نظر إلى الكتاب في يدي... إلى عالم ساباتو... إلى عالمي... ورمى ظلاله المنقّطة بالضوء سائلا :

- لِم أستسلم «وحيدة» للشمس الساخنة؟

مُلبية، غاصت قدماي في الرمل الناعم الساخن، ماضية إليه. ليتمدد جسدي في ظلال تناثرت مع أقراص الضوء الصغيرة المتسللة من الثقوب.

* * *

هاهو الصّخر! الجامد، القاسي، الملعون!، على الشواطئ البكر يبدو إسفنجيا، مطيعا لاستدارة الأرض وحكمة الطبيعة. يضربه البحر الزجاجي المزيد، يلينه الموج، وتصقله الريح، تحذف حدة النتوءات، ويفتح فيه الزمن مسارب وعيونا للماء.

هاهو الصّخر، يستجيب لنداء الطبيعة بأن يكون سندا للإنسان.

في ظلاله، على هدير البحر، كان الصّخر يحكي ويعيد قصة التكوين الأول والبدايات، حين لم تكن للإنسان «المتوحش» أنياب من حديد وفولاذ - كما له الآن - ولا أنفاس من دخان حارق مسموم قتّال.

وحين كان الإنسان أكثر رحمة من إنسان الحضارات العلمية الحديثة، هذا الإنسان الذي أضاف إلى اكتئاب «ساباتو» ليهجر العلم، ويدخل أنفاقه وليقول على لسان رساميه في الرواية: «لا أعلق آمالا كبيرة على البشرية، ولكن يحدوني أمل ضئيل في أن شخصا ما يتوصل إلى فهمي، حتّى لو كان شخصا واحدا».

بين عالم ساباتو وعالمي، بين «نفقه» و أنفاقنا، بدا الصخر الإسفنجي ناعما ، مواسيا، فاتحا قلبه، حاضنا الإنسان وقتها، خطرت فجأة ببالي تلك القولة التي تجعل الصخر مثالا للقسوة. «قلب أقسى من الصخر!» لكم تبدو ساذجة ومتخلفة في عصرنا الحالي!

أليس الأصدق أن نقول الآن : «ما أرحم الصّخر!»؟

* * *

في الخلاء بعد غياب الشمس وجدتني، لأول مرة، أقضي الليل بلا جدران.

على فراشي المحاط بحصير، في بيت القصب، يطل عليّ الليل من بين الأعواد. هدير البحر الأبدي... هبوب الريح الناعم... تخترق حواجز القصب... تتخللها... تتخللني...

ما عدت أنا! القادمة - مجاملة - لتغرق في عزلتها مع الكتاب. ألتحم بالطبيعة. ذرة من ذراتها أصبح أهيم في دورة الطبيعة العذراء... في الملكوت الإلاهي. أستعيد بعض إيمان برحمة الكون، بعدما عشناه من مآسي هذا الصيف الحريق الموقد بحطب أطماع الإنسان. والريح تتخللني... والهدير... عادت إليّ - قولة «كازنتزاكيس» في روايته «الحديقة الصخرية»: «أن تكون وحيدا، أن تحوّل العزلة إلى نبع للقوة والمتعة، أن تغزو أخيرا كلا من الأمل والخوف، يالها من سعادة...!» . يا لها من سعادة!.

# من تجـاويف الأكـفّ

أحمـد بن ابراهيـم

كم هو صبور وماهر هذا السائق الكهل الأنيق، لقد توقف بسرعة.. من الجهة الأخرى للطريق برزت فتاة جميلة، أنيقة في لباسها الخفيف ذي اللون الأزرق الفاتح، تقدمت كعارضة أزياء، ولكنها تبدو في نزال بارد مع الحزن ـ لا ـ لا أعتقد ذلك.. واحدة مثلها تتغنى بها الدنيا كيف لها أن تحزن!؟

اعتدلت خلفه ـ قصيدة غزل ـ حيته بابتسامة مجاملة، ببرود يراقبها من المرآة العاكسة الصغيرة التي تتوسط أعلى البلور الأمامي، نظر أمامه وانطلقت التاكسي بلا ضجيج مضجر، انتبهت منفعلة حين انتبهت إلى وجهها يحتل الجانب الأيمن من المرآة العاكسة، شعرها منقوش، التورّم بدأ يناوش الجفون، لم تبعد عينيها عن المرآة العاكسة وقد سرحت الأنامل تعالج بحذر قفل حقيبتها اليدوية الحمراء التي فوق فخذيها شبه العاريتين.. أخرجت مشطا وبحركات متداخلة سريعة رتبت شعرها الأسود الناعم، ثم حركت رأسها ببطء إلى الاتجاهين تتفحصه بنظرات ثاقبة من خلال المرآة العاكسة التي ومض فيها وجه السائق.. لبست نظارات سوداء وأقفلت حقيبتها وهي تنظر في قلق إلى الطريق من الشباك.. تمنت لو تحاصر رأسها بكفيها، وبرغبة فتحت حقيبتها، أخرجت ولاعة غازية رفعتها بتلهف نحو فمها.. ابتلعت غيظها في صمت مرير وأعادت الولاعة بهدوء إلى جوف الحقيبة وهي تراقب السائق بثبات، أخفت إزرقاق شفتيها بأحمر شفاه قان ضاعف بياضها...

ـ لا أظنّه يدخن.

ـ واصلت في سرّها ـ ولكني في حاجة إلى سيجارة لعلها تمسح الخدر الذي برأسي... البارحة كانت السهرة في ـ الفيلا ـ حارقة.. لقد شربنا كثيرا.. تركتهم نياما.. هذا لا يهم الآن، فقط أريد سيجارة.. بللت شفتيها بلسانها وتبثت مترينة.. لقد حاصرتها براعة السائق حين انبعثت ومضة نور كالبرق بين عينيها من خاتمه حين لفحت الشمس يديه وهو يدير المقود، حدثت نفسها وكأنّها تبحث بعينيها عن وجهها في بلور النافذة:

ـ إنه متزوج.. وما صمته إلاّ من صراخ طيفها بخياله.. إلى الآن أشعر أني لم أتوصل بعد إلى حصر ألوان الرجال.. هل تشبهني أمّي في شيء؟! ـ لا أحد في العائلة يغرق في عناده مثلها، أنا أكره فيها هذا رغم اهتمامها الجميل بي.. والدي إلى الآن أراه في غرابة البحر ـ أمي دائما تشكو تسلطه، لا أنا ولا أحد من إخوتي رآه كذلك.

في هذه اللحظة امتدت السيجارة مشتعلة بين شفتيها كالمحرار.. واصلت امتصاص الدخان بعنف وكأنّها بمفردها. من تحت النظارات تدحرجت

دمعتان انتهتا فوق شفتيها، مسحتهما بأناملها في حركات مضطربة، ألقت بنظرة سريعة على المرآة العاكسة ثم فتحت بسرعة بلور النافذة التي على يمينها وهي تردد في نفسها:

الحادية عشرة صباحا، دقائق وأنا معه ولم يسألني وجهتي؟! ـ لم يسبق أن امتطيت سيارته رغم أني أستعمل التاكسيات كثيرا، لقد اشتدت حرارة الشمس، إنها تذكرني بطفولتي المشرقة... قلت سرعة التاكسـي، ثمّ توقفت بجانب إحدى ـ الفيلات ـ أسكت السائق المحرّك وأخذ معه المفتاح ونزل مسرعا ودخل ـ فيلا ـ ألقت بعقب السيجارة من خلال النافذة، وما لبث السائق أن أعاد معانقا ابنته وهو يتلظى هياما بها... تمايلت الفتاة وطأطأت رأسها فقابلتها يافطة بأعلى ـ الفيلا ـ روضة أطفال ـ أجلس بلطف ابنته على يمينه وهي تحتضن محفظتها الصغيرة ثمّ استدار بصدره نحو الفتاة معتذرا بابتسامة مصطنعة وسألها وجهتها، فضحكت الفتاة عاليا حتى أزعجت الصغيرة.. رفعت الفتاة النظارات عن عينيها بحركة رشيقة ثم نظرت مبتسمة إلى الطفلة وسألتها بصوت حنون:

أين أمّك؟!

كانت الصغيرة تنظر في اندهاش إلى ما ظهر من نهدي الفتاة، تدخل هو مبتسما، متلعثما وهو يداعب شعر ابنته التي بدأت تحاول عناقه، أجابها وهو يجذب نظراته بصعوبة من صدرها : أمّها بالبيت.

خيم صمت على الفتاة، ثم تناثرت نظراتها هنا وهناك.. وانفجرت مغمغمة وهي تحاول مسك دموعها قبل أن تسيل على وجنتيها: لقد تركت المعهد منذ خمس سنوات، بعد أن فشلت في أوّل امتحان باكالوريا، ولكني لم أصدق نفسي، إذ كيف لم أنفض عني رذاذ الهزيمة وأعيد ذلك الامتحان من جديد.. ولكني لم أفعل... بل استحسنت العمل بالنزل كمضيفة استقبال فتغير حلمي...

هنا أصبحت تحكي براحة وقد مسحت دموعها

ـ أصبحت أطمح إلى الطيران بعيدا، فحصنت نفسي برجال كبار وخاصة الأجانب منهم الذين فتحوا لي في الدنيا أسرارا لم أكن أعلمها فشققت بحارا وغصت في فضاءات حتى فوجئت بنفسي أسقى بدموعي بصمات الأجداد في الصين والهند والأندلس وغيرها...

أشعلت سيجارة رغم إيماءته المعارضة... التفتت إلى يمينها ـ اندفع إليها بأعلى صدره حتى كادت شفتاه تلمس خدها الأيسر وتهامسا بينما كانت ابنته تحاول مسك مقود السيارة، عادا معتدلين في مكانيهما، رجع ينظر في صمت إلى الطريق التي أمامه، لقد أعلمها حين همس لها بأن زوجته عاقر وهذه الطفلة هي بكر قريب له أخذها برضاء تام منه الشهر الخامس لولادتها، ثم سألها عن مصير الجنين الذي في بطنها وهي العزباء.. أجابت ضاحكة وكأنها غير مبالية:

ماذا لو لم يكن أسمر اللون؟!

شغل السائق المحرّك وهو ينظر إلى ابنته التي تنتظر في فرح لحظة الإنطلاق، رفع رأسه وخاطب الفتاة كالمازح من خلال المرآة العاكسة:

هل تعلمت مني كيف تكتشفين حقيقتك رغم أنّ نسبة من الحقيقة غائبة؟

أجابته مبتسمة وهي تفتح الباب في اظطراب وقد أعادت النظارات إلى عينيها:

سأبحث عنك لعلك قد مررت مرة في حلمي...؟

نزلت بسرعة وأغلقت الباب بعنف، رفعت يمناها فتوقفت حذوها ـ تاكسي ـ ركبتها وعيناها على الصغيرة التي تراقبها ببراءة من خلال النافذة ـ انطلقت ـ التاكسي ـ بالفتاة ولكن هذه التاكسي لا تحمل علامتها الرقميّة؟

شعـر

# إنســــان

الشّاذلــي زوكـــار

كنت بالأمس ...
خيالا ...
هائما في الأفـق
كنت حُلما ...
في جفون الشفـق
كنت لحنا غامضا ...
فوق شفـاه الزمـن
وضبابا لست أدري ...
ما يضُمّ
وسرابا ...
قبل يطويه العدمْ
فأنا اليوم حقيقه

* * *

كنت بالأمس ...
رواية
ضمّت الأبطـال ...
من كلّ هواية
وحوتْ ...
ألف حكاية ...
وحكايــــة
نسجتها يدُ أقدار
خفيّـــــة
لا تسلْني ...
كيف هيّـه ...
أنا
لا أعلمُ شيّا...
غير أنّي اليوم ...
أصبحت حقيقهْ

* * *

كنت دمعه
حفرت فوق خدود الكون
أشتات الصوز
فسقت
شوكا
وورداً
وزهـــــز
ثم صارت ...

سيل طوفان ...

مُخيــــــــف

صوَر الرُّعب ...

وغنّــــــى

كلّ أنغام الخطرْ

وعلى صدره ...

تطفو ...

كلّ أشـــلاء البشـــرْ

صفَع الأيام ...

كالعملاق ...

بالأيـــــدي الرقيقـــــة

هكذا أنّي ...أصبحت حقيقة



# أريد أن تكون للحياة قيمة

نــور الديــن صمـــود

من أجل عينيك اللتين تزرعان غابة الأملْ
في حقل عمري الأجرد
فأنتشي بلحن طيرها المغرِّد
* * *
من أجل عينيك اللتين تلمعان مثل درتين
وتبعثان النور مثل قطرتين
تأتلقان فوق زهرتين
وتصبغان عالمي بالنور واللجين

* * *
من أجل عينيك اللتين تقرآن لي
قصائد الغزلْ
وتطلقان قلبيَ المصفّدا
وتجمعان خاطري المبدّدا

* * *
من أجل ما يلوح في عينيك يا حبيبتي
من فتنة تخدّرُ
ومن جمال كانبثاق الفجر في الربيع يسحرُ
كالصبح حين يُسفر
كراية النهار في الصباح إذ ترفرفُ
كالدُّرّ حينما يفترّ عنه الصّدف
كالعلم الخفّاق في الآفاق إثر النصر ينشر
كأمّة تحرّر.

* * *
من أجل مقلتيك يا رائعة العينين
أريد أن تكون للحياة قيمهْ
أريد أن أحسّ أن للحياة معنى رائعا
كمقلتيك الحلوتين
أريد أن أحسّ أن كل الناس أغلى
من كلّ ما في الكون من حجارة كريمهْ
من لؤلؤ مطوّق بالتبر واللجين
وأنّ كلّ من يعيش فوق الأرض
أثمن من كنوز هذي الأرض
فقد غدا الرجالْ
من أرخص الأشياء يا رائعة الجمال !

# وسيم

منـــــوّر عزيـــــز

اِجمع ورودك
يا وسيم
وانتظرني عند باب الحلم
لا تنس حذاءك
فالمدى
شوك
وافك
خذ حبيبتك التي
مازال في دمها النسيم
كن يا وسيم... دائما
رجل المسافة كلّها
مُهر الشتاء
أمام عينيك اعتلاء الجمر
والثلج القديم
ربّما اختصر الربيع ضيوفه
في وردتين إذا
سألتُك عن حبيبتك التي
يغفو على أهدابها اللّيل
وتحرسها النّجوم
عفوا

سألتك يا وسيم
عن الحبيبة هكذا
هذا لأنّي شاعر
جمحتْ حروفي
فانتظرني عند باب الحلم إنّي
آخر النّاجين من حرب البسوس
قبل إعصار المعاني
لم يكن في القلب عطر للأغاني
لم يكن في العين ماء
للكتابة والوقوف
ضد أسنان الحتوف
فانتظرني عند باب الحلم
لا تنس المكان ولا الزّمان
ولا حذاءك فالمدى
شوك
وافك
والإديم بلا أديم
لا تكن حرفا
بلا إشراقة
إنّي أحبّك يا وسيم